

الجزء الأول

تأليف/ الشيخ محمد على سلامة
تحقيق/ د. محمد سيد أحمد المسير



منهج الفرقان في علوم القرآن

الجزء الأول

تأليف

صاحب الفضيلة الشيخ

محمد على سلامة

أستاذ التفسير وعلوم القرآن

بكلية أصول الدين سابقا

تحقيق

أ . د . محمد سيد أحمد المسير

أستاذ العقيدة والفلسفة - بكلية أصول الدين

جامعة الأزهر



www.nahdetmisr.com

بسم الله الرحمن الرحيم



اسم الكتاب: منهج الفرقان فى علوم القرآن (جـ ١) .

اسم المؤلف: محمد على سلامة

المحقق: د. محمد سيد أحمد المسير.

إشراف عام: داليا محمد إبراهيم .

تاريخ النشر: الطبعة الأولى نوفمبر ٢٠٠٢.

رقم الإيداع: ١٧٩٤١/ ٢٠٠٢

الترقيم الدولي: ISBN 977 - 14 - 1996 - X

الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع .

المركز الرئيسى: ٨٠ المنطقة الصناعية الرابعة
مدينة السادس من أكتوبر
ت: ٨٣٣٠٢٨٧ - ٨٣٣٠٢٨٩
فاكس: ٠٢/٨٣٣٠٢٩٦.

مركز التوزيع: ١٨ ش كامل صدقي - الفجالة - القاهرة .
ت: ٥٩٠٩٨٢٧ - ٥٩٠٨٨٩٥ .
فاكس: ٠٢/٥٩٠٣٣٩٥.
ص.ب: ٩٦ الفجالة - القاهرة.

الإدارة العامة: ٢١ ش أحمد عرابى - المهندسين - الجيزة
Publishing@nahdetmisr.com
ت: ٣٤٦٦٤٣٤ - ٠٢/٣٤٧٢٨٦٤ .
فاكس: ٠٢/٣٤٦٢٥٧٦.
ص.ب: ٢٠ إمبابة .

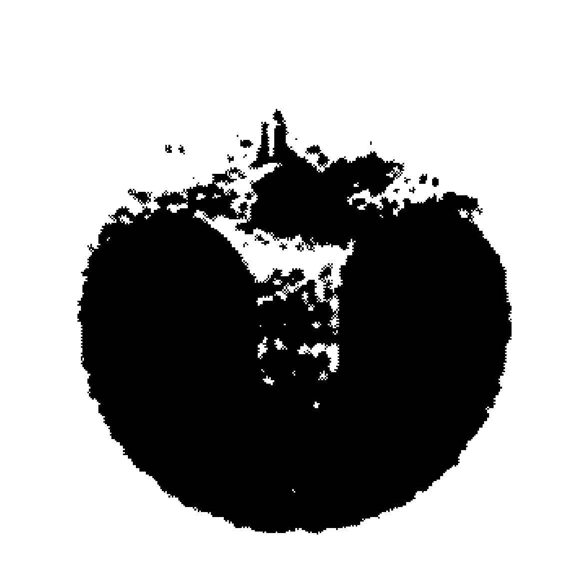
موقع الشركة على الإنترنت: كافة إصدارات شركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع تجدونها على موقع الشركة بالعنوان التالى
www.nahdetmisr.com الرقم المجانى 07775666

بين يدى الكتاب

* تقديم وتعريف.
* قصة الكتاب.
* موضوعات الكتاب.

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم وتعريف



نحمد الله رب العالمين، ونصلى ونسلم على خاتم الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين..

أما بعد ..

فالقرآن العظيم هو المعجزة الكبرى للرسول النبى الأمى محمد بن عبدالله العربى القرشى، وبه وقع التحدى للثقلين من إنس وجن.. وأعلن القرآن ذلك مرات كثيرة فى عهديه المكى والمدنى.

ففى سورة الإسراء يقول الله تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[1]

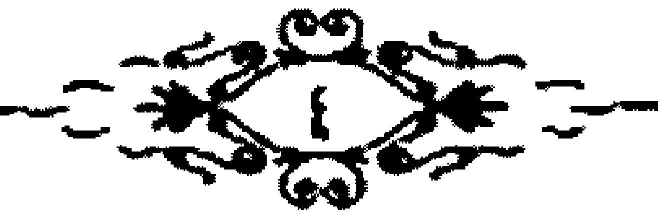
ثم خفف القدر المتحدى به فقال فى سورة هود: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٣) فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[2]

ثم تنزل لهم فى التحدى فقال فى سورة يونس: ﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٣٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[3]

١ - سورة الإسراء (الآية ٨٨).

٢ - سورة هود (الآية ١٣ ، ١٤).

٣ - سورة يونس (الآية ٣٧ ، ٣٨).



تلك الآيات مكية نزلت قبل الهجرة ثم ظل التحدي قائما في المدينة بعد الهجرة فقال تعالى في سورة البقرة: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾.

ولقد أكد القرآن أنهم عاجزون عن المعارضة فقال عقب الآية السابقة: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾[1]

فالتعبير بقوله: ﴿ وَلَن تَفْعَلُوا ﴾ يفيد تأكيد نفى المستقبل، وهذا هو منتهى التحدى لهم والإحباط من جانبهم..

إن التحدى العام للناس جميعا طال على عمر الدعوة النبوية كلها وجعله الله حجة لصدق النبوة المحمدية..

وقد يتوهم البعض أن التحدى القرآني موجه إلى العرب فقط، فما بال الأمم غير الناطقة بالعربية؟!

وهذا وهم كبير فإن التحدى لأهل الذكر والاختصاص ينسحب على غيرهم من باب أولى، ومن شهد له الأطباء أو علماء الفضاء باختراع معين فاق به أقرانه، لايضيره أن يعترض عليه جاهل من عامة الناس.. إن التحدى القرآني موجه إلى العالمين فى شخص الناطقين بالعربية فإذا عجز العرب وهم أهل اللغة وأرباب فصاحتها والعارفون بأسرارها فقد لزمت الجميع الحجة وقام عليهم الدليل..

ومن أبى فليعارض وليقدم ما يثبت به معارضته، وسيعلم حينئذ أنه يعيش فى سراب فكرى وظلام عقدى، ولا نجاة له إلا فى نور القرآن..

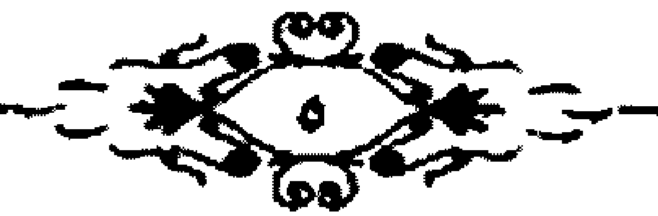
ووجوه الإعجاز القرآني متعددة منها الإعجاز البياني والإعجاز العقدى والإعجاز التشريعي والإعجاز العلمى.. إلخ..

ولقد كان القرآن المجيد محور الدراسات الإسلامية والعربية، وبه بدأت الأمة الإسلامية تاريخها، وعليه قامت حضارتها، ومنه تستمد وجودها وحياتها..

وعلوم القرآن ميدان رحب لبحوث علمية جادة، واجتهادات فكرية فذة، قام

---

١ – سورة البقرة (الآية ٢٤).



بها علماء أجلاء لخدمة العقيدة الإسلامية فى أكبر جوانبها، وأعز مبادئها، وأجل معانيها، وأعظم مقاصدها، وأمجد أهدافها.. وقدموا للمكتبة الإسلامية على مر العصور وتعاقب الأزمان كتبا رائدة..

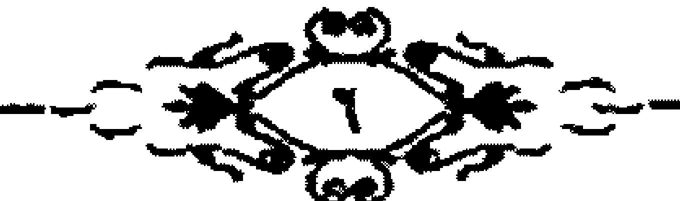
لقد كان القرآن المجيد محورا لعلوم متعددة مثل التفسير والإعجاز وأسباب النزول والقراءات.. ولم يخل عصر فى التاريخ الإسلامى ممن شرف بالكتابة فى جانب من هذه الجوانب إلى أن تبلورت مادة «علوم القرآن» فجمعت ماتفرق واستوعبت ماتعدد، وشيدت على ماتقدم، وأصبحنا أمام علم له أعلام، ومنهج له رجال، ودعوة لها دعاة..

واليوم نقدم للمكتبة الإسلامية الحديثة سفرا جليلا بعنوان «منهج الفرقان فى علوم القرآن» لعالم علامة أخلص فى طلب العلم واجتهد فى تحصيله وأدى أمانة رسالته وجاهد فى سبيله حق الجهاد، إنه حضرة صاحب الفضيلة الشيخ محمد على سلامة..

لقد ولد - رحمه الله تعالى - عام ١٣٠٧ هـ - ١٨٩٠ م فى قرية زرقان، مركز تلا محافظة المنوفية.. وتعلم فى الأزهر الشريف حتى حصل على شهادة الأهلية سنة ١٣٢٩ هـ، ثم حصل على شهادة العالمية سنة ١٣٣١ هـ، واتجه إلى ممارسة الوكالة (المحاماة) فأدرج اسمه بجدول المحاكم الشرعية سنة ١٣٣١ هـ، كما تحرر لفضيلته فى نفس العام شهادة من مشيخة الجامع الأزهر الشريف بالتصريح له بالتدريس فى الجامع الأزهر وغيره من أماكن التدريس فى مصر..

وصدر لفضيلته إذن من نظارة الأوقاف بأداء الخطب فى رمضان سنة ١٣٣٣هـ وأخيرا عمل أستاذا بكلية أصول الدين منذ إنشائها حتى وفاته فى التاسع عشر من شهر رمضان لسنة ١٣٦١ هـ الموافق للثلاثين من سبتمبر لسنة ١٩٤٢ م ..

ولقد تزوج الشيخ - رحمه الله تعالى - من كريمة فضيلة الشيخ عبد الحكم عطا عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف وأنجب ذرية طيبة هم :



١ – المرحوم الدكتور / محمود محمد على سلامة.

الوكيل الأسبق لوزارة الصناعة ثم الأمين العام لمنظمة الدول العربية للمواصفات والمقاييس.

٢ – المرحوم الدكتور/ محمد عزت محمد على سلامة.

الوزير الأسبق للكهرباء والإسكان والتعليم العالى.

٣ – الأستاذ الدكتور/ محمد رضا محمد على سلامة.

الأستاذ السابق بطب جامعة القاهرة والأستاذ الحالى بجامعة الينوى بالولايات المتحدة الأمريكية.

٤ – السيدة/ عزة محمد على سلامة.

وهى زوجة المرحوم الأستاذ محمد وجيه قطب رئيس مجلس إدارة شركة مصر للبترول سابقا ..

* * *

رحم الله شيخنا الجليل فضيلة الأستاذ محمد على سلامة، وأجزل له المثوبة، وجمعه بالنبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.. ونحن إذ نقدم كتابه اليوم علما ينتفع به وعملا صالحا متقبلا على درب المسيرة الإسلامية الممتدة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها لندعو علماء الأمة ومفكريها إلى مواصلة العطاء العلمى خدمة للإسلام والمسلمين..

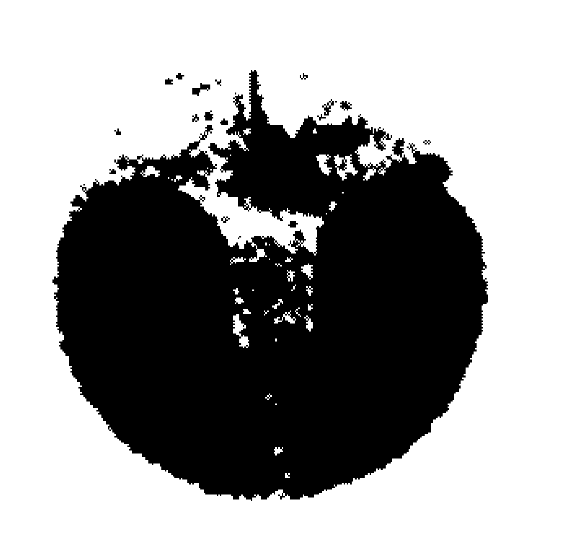
﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾

(فصلت : ٣٣)

* * *



قصة الكتاب



قام المؤلف - رحمه الله تعالى - بطبع هذا الكتاب فى جزأين، سبق الجزء الثانى جزأه الأول. لأنه قام بتدريس مادة «علوم القرآن» للسنة الثانية من قسم تخصص الوعظ والإرشاد بكلية أصول الدين، وكان ذلك سنة ١٣٥٥ هـ - ١٩٣٦ م .

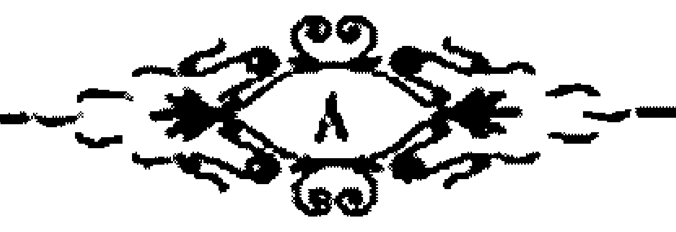
وفى عام تالٍ أسند إليه تدريس مادة «علوم القرآن» للسنة الأولى فكتب الجزء الأول، وكان الفراغ منه يوم الخميس الثانى عشر من شهر ربيع الأول سنة ١٣٥٧هـ وماهى إلا سنوات قلائل حتى توفى الشيخ الجليل فى التاسع عشر من شهر رمضان سنة ١٣٦١ هـ (٣٠ / ٩ / ١٩٤٢ م).

وطويت صفحات هذا السفر خمسين عاماً إلى أن قامت كريمة الشيخ الجليل السيدة الفاضلة / عزة فأرسلت إلىّ نسخة الكتاب بجزأيه كى أسعى فى نشره ونفع المسلمين به ..

وشجعنى على تحقيق الكتاب المرحوم الأستاذ / عبد الحميد أحمد الحلو مدير الإدارة التعليمية بتلا محافظة المنوفية، وابن أخت الشيخ الجليل، وزوج خالتى، وجد أولادى، وأمدنى بنبذة عن حياة الشيخ الجليل ومسيرة جهاده..

وقمت باختيار بعض بحوث الكتاب للدورات التدريبية التى تقيمها وزارة الأوقاف للأئمة والخطباء سنة ١٩٩٢ م ضمن مادة «التفسير وعلوم القرآن».

ثم سافرت إلى المملكة العربية السعودية معارا إلى جامعة أم القرى بمكة المكرمة ومضت مدة الإعارة وتلاها سنوات أخرى ثم شاء الله تعالى أن أعود إلى مراجعة الكتاب وتحقيقه تحقيقا يسيرا يبعد عن الترهل والتضخم، فقمت بمراجعة النص وتخريج الآيات وتنظيم الفقرات وتحديد البحوث وإبراز العناوين ووضع الهوامش.



موضوعات الكتاب

والكتاب يضم خمسة عشر مبحثا على النحو التالى:

•• المبحث الأول: مصطلح علوم القرآن

يبدأ ببيان هذا المركب الإضافى «علوم القرآن» ثم عرض الأسماء التى أطلقت على القرآن ودلالتها على عظم قدره وجلال شأنه ثم ذكر تعريف القرآن عند الأصوليين والفقهاء وعلماء الكلام ثم تكلم عن تاريخ ظهور هذا المصطلح وأشهر علماء هذا الفن.

• • المبحث الثانى: نزول القرآن

يتحدث عن معنى نزول القرآن وكيفية تلقى جبريل الأمين من الله عز وجل وكيفية تلقى النبى صلى الله عليه وسلم عن جبريل عليه السلام، ويشرح حكمة تنزيل القرآن مفرقا على مدى ثلاث وعشرين سنة، ويبين أول مانزل وآخر مانزل من الآيات والسور.

• • المبحث الثالث: أسباب النزول

يحدد مفهوم أسباب النزول وفائدة معرفة هذه الأسباب وطريق هذه المعرفة، ويشرح تعدد الروايات فى سبب النزول، وتعدد المنزل مع كون السبب واحدا، وآراء العلماء فى عموم لفظ الآية إذا كان سببها خاصا..

• • المبحث الرابع: الأحرف السبعة

يذكر النصوص الدالة على نزول القرآن على سبعة أحرف، وحكمة هذا النزول، ثم يستعرض أقوال العلماء فى فهم هذه الأحرف وبيان المقصود منها، ويسوق دليل كل قول ويناقشه..

• • المبحث الخامس: المكى والمدنى

يبين الاصطلاحات فى بيان المكى والمدنى، وضوابط معرفة كل منهما، ويرد على الشبه التى أثيرت حولهما .



• • المبحث السادس: جمع القرآن

يشرح الجمع بمعنى الحفظ، والجمع بمعنى الكتابة، ويفصل القول فى كتابة القرآن على عهد النبى ﷺ وعهد أبى بكر الصديق، وعهد عثمان ذى النورين.

ويذكر الباعث على الجمع فى كل عهد من هذه العهود الثلاثة، وما امتاز به، ويحدد عدد المصاحف التى كتبت فى عهد عثمان - رضى الله عنه - والسبب فى تعدد المصاحف، ويرد على الشبه التى أثيرت حول هذا الجمع.

• • المبحث السابع: ترتيب آيات القرآن وسوره

يبدأ ببيان معنى الآية والسورة ثم يتكلم عن حُكْم ترتيب الآيات والسور، ويرد على الشبه الواردة حول هذا الترتيب.

• • المبحث الثامن: رسم المصحف الشريف.

يقدم بين يدى البحث فكرة عن الكتابة فى قريش والمدينة المنورة ثم يشرح الفروق بين رسم المصحف والكتابة العربية، ويسوق آراء العلماء فى حكم الالتزام برسم المصحف الشريف ويناقش الأدلة ويرد على الشبهات .

ويختم المبحث ببيان متى شكل القرآن ومتى أعجم؟ أى متى وضعت الحركات من الضم والفتح والكسر، ومتى وضعت النقاط على الحروف.

• • المبحث التاسع: القراءات والقراء

يتكلم عن ضوابط قبول القراءات وأنواعها والسبب فى اختلافها، ويذكر فوائد هذا الاختلاف ثم يترجم للقراء السبعة: أبى عمرو، والدورى، ونافع، وابن عامر، وعاصم وحمزة والكسائى، ثم يتبعهم بالكلام عن الثلاثة الذين بهم تكمل العشرة وهم أبو جعفر ويعقوب وخلف، وناقش قضية تواتر القراءات السبع..

• • المبحث العاشر: التفسير والتأويل

يذكر معنى التفسير والتأويل لغة واصطلاحا ، والعلاقة بينهما ، ويشرح أنواع التفسير ويقسمها إلى :

١ - التفسير بالمأثور.   ٢ - التفسير بالرأى.

٣ - التفسير الإشارى.



فيذكر المعنى المراد ونماذج منه وطبقات المفسرين وخصائص الكتب المؤلف فيه، وحكم كل نوع وماله أو عليه..

• • المبحث الحادى عشر: ترجمة القرآن الكريم

يقسم الترجمة إلى قسمين:

١ - ترجمة حرفية. ٢ - ترجمة تفسيرية.

ويذكر الشروط التى تتوقف عليها الترجمة، ويفرق بين الترجمة الحرفية وبين التفسير، ويرفض الترجمة الحرفية لاستحالة اجتماع الخواص العربية البلاغية فى لغة أخرى ولإخلالها بحفظ القرآن الكريم فى نظمه وأسلوبه وتعريضه للتغيير والتبديل.

ويقبل الترجمة المعنوية أو التفسيرية بشروط وضوابط خاصة لما يترتب عليها من مصالح مهمة فى الدفاع عن القرآن وحماية العقيدة وبيان منهج الله فى بناء الحياة والإنسان ولنشر دين الله فى الآفاق.

• • المبحث الثانى عشر: النسخ

يبين معنى النسخ لغة واصطلاحا، وطرق معرفة الناسخ والمنسوخ وشروط النسخ وأهمية معرفة الناسخ والمنسوخ..

ويفرق بين النسخ والبداء، وبين النسخ والتخصيص..

ثم يناقش قضية النسخ جوازا ووقوعا، ويسوق الأدلة ويرد الشبهات..

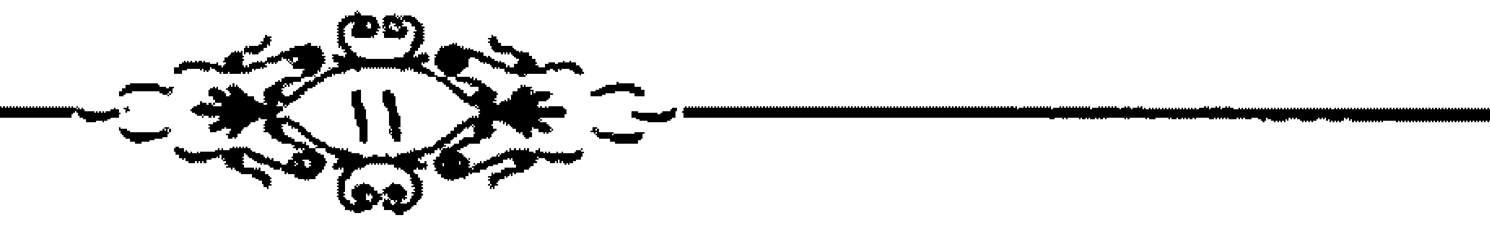
• • المبحث الثالث عشر: متشابه القرآن

ذكر أقوال العلماء فى معنى المحكم والمتشابه، وأقسام المتشابه من جهة اللفظ أو المعنى أو هما معاً، وبين مذاهب العلماء فى متشابه آيات الصفات.

• • المبحث الرابع عشر: إعجاز القرآن

وأكد فى بدايته أن أسلوب القرآن الكريم مخالف فى جملته وتفصيله لأساليب العرب فى كلامهم وليس نوعا منها مع كونه منتظما من كلماتهم التى بها ينطقون.

ثم تكلم عن وجوه الإعجاز القرآنى وأبطل القول بالصرفة، وذكر أقوال العلماء فى القدر المعجز من القرآن..



• • المبحث الخامس عشر: قصص القرآن وأمثاله

وتكلم عن المراد بالقصص القرآنى وفوائد ذكره وحكمة تكراره وأنواعه، ثم شرح معنى الأمثال وفوائد ورودها فى القرآن الكريم وقسمها إلى ثلاثة أنواع هى:

١ – الأمثال الصريحة. ٢ – الأمثال الكامنة.

٣ – الأمثال المرسلة.

وهكذا يضم الكتاب أبحاثا قيمة وموضوعات مهمة ويعالج قضايا عميقة ويحقق فائدة كبرى لأهل العلم والباحثين في الدراسات الإسلامية..

فجزى الله المؤلف خير الجزاء..

٢٨ من ذى الحجة – ١٤٢٢ هـ

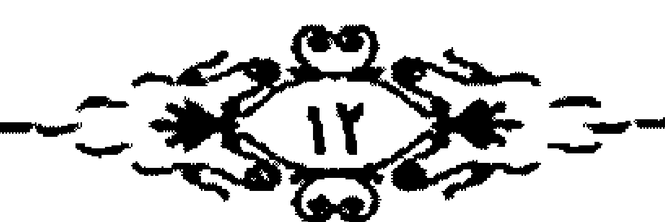
١٢ / ٣ / ٢٠٠٢ م

أبو حذيفة

د. محمد سيد أحمد المسير

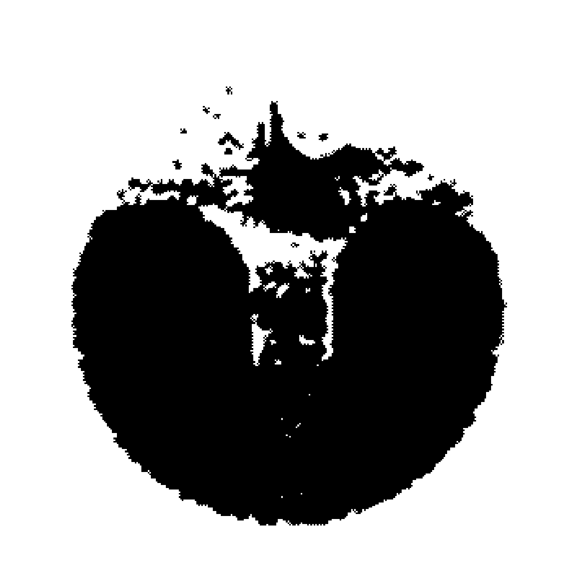
أستاذ العقيدة والفلسفة - بكلية أصول الدين

جامعة الأزهر



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف



الحمد لله الذى أنزل القرآن هدى للمتقين، وأودع فيه من الأحكام والأخلاق ما فيه السعادة للناس أجمعين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله الذى كان خلقه القرآن، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان «أما بعد».

فإن المشيخة الجليلة لكلية أصول الدين قد عهدت إلىّ بتدريس علوم القرآن لطلبة التخصص بقسم أجازة الدعوة والإرشاد. وقد سبق أن وضعت القسم الثانى من كتاب «منهج الفرقان فى علوم القرآن» وقد طلب منى الطلبة أن أضع لهم مؤلفا فى القسم الأول من علوم القرآن على نمط الكتابة فى القسم الثانى مع استيفاء المباحث التى اقتضاها المنهج، فشرعت ورائدى حسن التوكل على الله الذى عليه المعول.

وقد سميته «القسم الأول من كتاب منهج الفرقان فى علوم القرآن» والله أسأله أن يجعله خالصا لوجهه وأن ينفع به كما نفع بأصوله، إنه سميع مجيب.

وجعلت مراجعى فى ذلك (١) الإتقان فى علوم القرآن (٢) مذكرة الأستاذ الشيخ محمود أبى دقيقة (٣) البرهان للزركشى (٤) مقدمات تفاسير ابن جرير الطبرى والألوسى والقرطبى (٥) رسائل لبعض حضرات المحققين (٦) كتب علم الأصول (٧) كتب علم الكلام وغير ذلك مما يرشدنى الله للاطلاع عليه من مؤلفات ويلهمنى إياه من حسن الفهم والتوفيق وقد رتبته على مقدمة وبحوث وخاتمة.

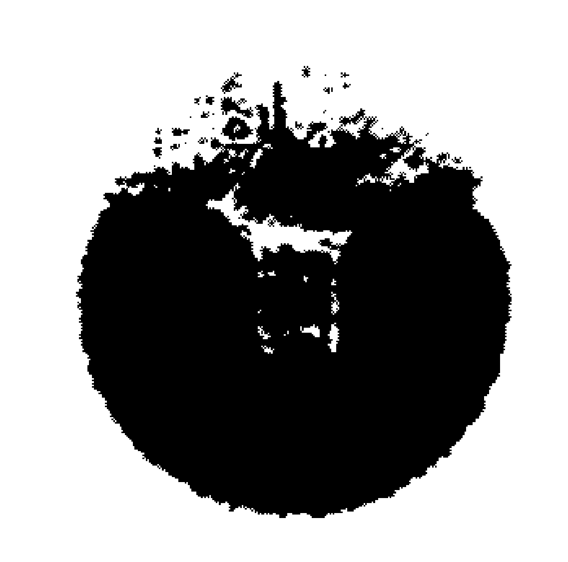
محمد على سلامة



المبحث الأول
مصطلح علوم القرآن

- المركب الإضافى
- أسماء القرآن
- تعريف القرآن
  * عند الأصوليين والفقهاء
  * عند علماء الكلام
- تاريخ ظهور هذا المصطلح
- منهج التأليف فى علوم القرآن

المركب الإضافي



«علوم القرآن» هذا مركب إضافي ينبغي معرفة كل من جزأيه بحسب الأصل ثم المراد به بعد التركيب، فنقول لفظ «القرآن» بحسب الأصل اختلف فيه من جهة الاشتقاق وعدمه والهمز والتخفيف والمصدرية والوصفية على أقوال، وبيانها ما يأتي:

«أولها» ما ذهب إليه الشافعي أن لفظ القرآن المعرف بأل ليس مهموزاً ولا مشتقا بل وضع علما على الكلام المنزل علي النبي المرسل ﷺ.

«ثانيا» ما نقل عن الأشعري وأقوام أنه مشتق من قرنت الشيء بالشيء إذا ضممته إليه، ثم جعل علما على اللفظ المنزل إلخ. وسمي بذلك لقران السور والآيات والحروف فيه بعضها ببعض.

«ثالثاً» ذهب الفراء إلي أنه مشتق من القرائن لأن الآيات فيه يصدق بعضها بعضا ويشبه بعضها بعضا، وجعل علما على اللفظ المنزل لذلك وهو على هذين غير مهموز أيضا كالذي قبلهما ونونه أصلية.

«رابعاً» قال الزجاج: هو وصف على فعلان مهموز مشتق من القرء بمعني الجمع ومنه قرأت الماء في الحوض إذا جمعته، وسمي الكلام المنزل علي النبي المرسل به لأنه جمع السور أو جمع ثمرات الكتب السابقة.

«خامساً» ما ذهب إليه اللحياني وجماعة من أنه مصدر مهموز بوزن الغفران سمي به المقروء تسمية المفعول بالمصدر.

والحق من هذه الأقوال ما ذهب إليه الزجاج واللحياني من أنه مهموز وصف أو مصدر وأما ترك الهمز فيه في بعض القراءات فهو من باب التخفيف ونقل حركتها إلى ما قبلها وهو كثير شائع ثم نقل من المصدرية أو الوصفية وجعل علما شخصيا كما ذهب إليه محققو الأصوليين ويطلق القرآن على القراءة ومنه قوله تعالى:

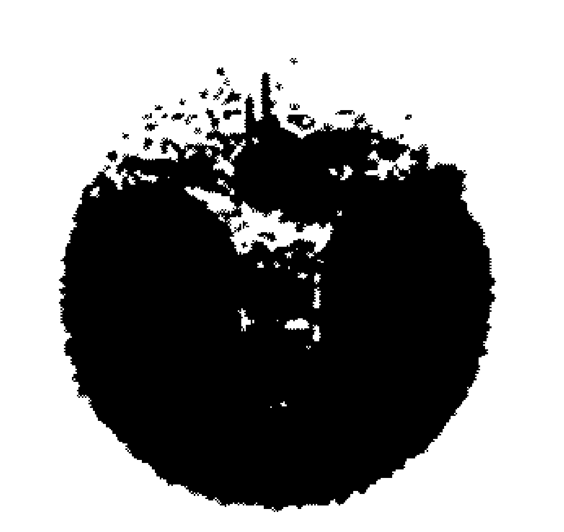
﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾[1]

---

١ - سورة القيامة (الآية ١٧، ١٨).



أسماء القرآن



اعلم أن الله تعالى كما جعل كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه مخالفا لكلام العرب في أسلوبه ونظمه وكمال بلاغته وفصاحته جعل أشهر أسمائه مخالفا لما سمت العرب به كلامها، فقد سمت العرب جملة كلامها ديوانا وسمي الله جملة كلامه قرآنا، وسمت العرب بعض الديوان قصيدة وسمي الله بعض القرآن سورة، وسمت العرب بعض القصيدة بيتا وسمي الله بعض السورة آية، وسمت العرب آخر البيت قافية وسمى الله آخر الآية فاصلة.

وقد قال في البرهان اعلم أن الله سمي القرآن بخمسة وخمسين اسما، سماه كتابا ومبينا في قوله: ﴿حمٓ ۝١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾[1] وقرآنا وكريما في قوله: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾[2] وكلاما ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ﴾[3] ونورا ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾[4] وهدي ورحمة ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[5] وفرقانا ﴿نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾[6] وشفاء ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ﴾[7] وموعظة ﴿قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾[8] وذكرا ومباركا ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ﴾[9] وعليا ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[10] وحكمة ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ﴾[11] وحكيما ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾[12] ومهيمنا ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾[13] وحبلا ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾[14] وصراطا

---

١ – سورة الدخان (الآية ١، ٢).

٢ – سورة الواقعة (الآية ٧٧).

٣ – سورة التوبة (الآية ٦).

٤ – سورة النساء (الآية ١٧٤)

٥ – سورة يونس (الآية ٥٧).

٦ – سورة الفرقان (الآية ١)

٧ – سورة الإسراء (الآية ٨٢).

٨ – سورة يونس (الآية ٥٧)

٩ – سورة الأنبياء (الآية ٥٠).

١٠ – سورة الزخرف (الآية ٤)

١١ – سورة القمر (الآية ٥).

١٢– سورة لقمان (الآية ٢)

١٣ – سورة المائدة (الآية ٤٨).

١٤– سورة آل عمران (الآية ١٠٣).

مستقيما ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا ﴾[1] وقيما ﴿ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ ﴾[2] وقولا وفصلا ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴾[3] ونبأ عظيما ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ① عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴾[4] وأحسن الحديث ومثاني ومتشابها ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ ﴾[5] وتنزيلا ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[6] وروحا ﴿ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾[7] ووحيا ﴿ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ ﴾[8] وعربيا ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾[9] وبصائر ﴿ هَذَا بَصَائِرُ ﴾[10] وبيانا ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ ﴾[11] وعلما ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾[12] وحقا ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ﴾[13] وهاديا ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي ﴾[14] وعجبا ﴿ قُرْآنًا عَجَبًا ﴾[15] وتذكرة ﴿ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ ﴾[16] والعروة الوثقي ﴿ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ﴾[17] وصدقا ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ ﴾[18] وعدلا ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾[19] وأمرا ﴿ ذَٰلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ ﴾[20] ومناديا ﴿ رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ ﴾[21] وبشري ﴿ هُدًى وَبُشْرَىٰ ﴾[22] ومجيدا ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴾[23] وزبورا ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ ﴾[24] وبشيرا ونذيرا ﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ③ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾[25]

١- سورة الأنعام (الآية ١٥٣).
٢- سورة الكهف (الآية ٢).
٣- سورة الطارق (الآية ١٣).
٤- سورة النبأ (الآية ٢)
٥- سورة الزمر (الآية ٢٣).
٦- سورة الشعراء (الآية ١٩٢)
٧- سورة الشوري (الآية ٥٢).
٨- سورة الأنبياء (الآية ٤٥).
٩- سورة الزخرف (الآية ٣).
١٠- سورة الأعراف (الآية ٢٠٣)
١١- سورة آل عمران (الآية ١٣٨)
١٢- سورة البقرة (الآية ١٤٥)
١٣- سورة آل عمران (الآية ٦٢)
١٤- سورة الإسراء (الآية ٩)
١٥- سورة الجن (الآية ١)
١٦- سورة الحاقة (الآية ٤٨)
١٧- سورة لقمان (الآية ٢٢)
١٨- سورة الزمر (الآية ٣٣)
١٩- سورة الأنعام (الآية ١١٥)
٢٠- سورة الطلاق (الآية ٥)
٢١- سورة آل عمران (الآية ١٩٣)
٢٢- سورة النمل (الآية ٢)
٢٣- سورة البروج (الآية ٢١)
٢٤- سورة الأنبياء (الآية ١٠٥) وفي إطلاق الزبور على القرآن نظر.
٢٥- سورة فصلت (الآيتان ٣، ٤)



وعـــزيزا ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَـــابٌ عَـــزِيزٌ ﴾[1] وبلاغــــا ﴿ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ ﴾[2] وقصصا ﴿ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾[3] وسماه أربعة أسماء في آية واحدة ﴿ فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ ﴾[4] نقله في الاتقان وبعد ذلك وجه تسميته ببعض هذه الأسماء مثل وجه تسميته «بالمتشابه» لأنه يشبه بعضه بعضا في الحسن، «وبالعزيز» لأنه يعز علي من يروم معارضته «وبالفرقان» لأنه فرق بين الحق والباطل، «وبالحكيم» لأنه أحكمت آياته بعجيب النظم وبديع المعاني وأحكمت عن تطرق التبديل والتغيير والتحريف والاختلاف والتباين، «وبالنور» لأنه يدرك به غوامض الحلال والحرام، «وبالشفاء» لأنه يشفي من الأمراض القلبية كالكفر والجهل والغل والحقد والحسد ومن الأمراض البدنية أيضا، «وبالذكر» لما فيه من المواعظ وأخبار الأمم الماضية، والذكر أيضا الشرف قال الله تعالى: «وإنه لذكر لك ولقومك» أي شرف لهم لأنه نزل بلغتهم، «وبالمهيمن» لأنه شاهد علي جميع الكتب والأمم السابقة، «وبالروح» لأنه تحيا به القلوب والأنفس، «والبلاغ» لأنه أبلغ الناس ما أمروا به ونهوا عنه أو لأن فيه بلاغة وكفاية عن غيره ا هـ ملخصا.

والذى اشتهر من هذه الأسماء كلها ثلاثة: القرآن والفرقان والكتاب، وأشهرها «القرآن» وقد علمت أنه نقل من المصدرية أو الوصفية على ما تقدم إلي كونه علما شخصيا علي الكلام المنزل علي محمد ﷺ المبدوء بسورة الحمد وآخره سورة الناس عند علماء الأصول والفقه العربية المحتجين بأبعاضه وأجزائه «وعلميته» إما باعتبار تشخصه بأول محل وجد فيه ولا عبرة بتعدده بتعدد المحال الطارئ بعد ذلك فهو واحد أينما حل.

وإما باعتبار وضعه للمؤلف المخصوص الذي لا يختلف باختلاف المتلفظين به للقطع بأن ما يقرأه كل واحد منا هو القرآن المنزل على محمد ﷺ بلسان جبريل عليه السلام.

«وقيل أنه علم جنس» نظراً لتعدده بتعدد المحال «وقيل هو موضوع للقدر المشترك» بين المجموع وبين أجزائه فمسماه كلي كالمشترك المعنوي «وقيل هو

١- سورة فصلت (الآية ٤١).
٢- سورة إبراهيم (الآية ٥٢).
٣- سورة يوسف (الآية ٣)
٤- سورة عبس (الآيتان ١٣، ١٤).



مشترك لفظي بين المجموع وبين أجزائه فيكون موضوعا لكل منهما بوضع. ووجه هذين القولين أن القرآن عند من ذكرنا من العلماء يبحث فيه من حيث إنه دليل علي الحكم وذلك يكون بآياته لا بمجموع القرآن.

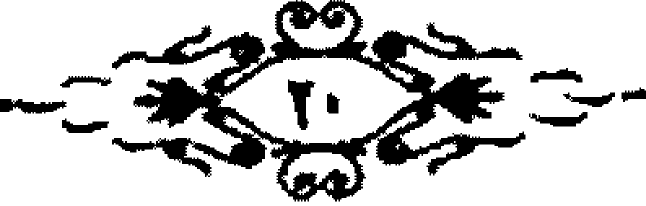
والحق أنه علم شخصي ومشترك لفظي يطلق علي المجموع وعلي الأجزاء وهذا هو الذي يفيده كلام الفقهاء في قولهم: يحرم قراءة القرآن للجنب أو مس القرآن ونحو ذلك فإن غرضهم بذلك المجموع أو الابعاض.

تعريف القرآن عند الأصوليين والفقهاء وأهل العربية

قد علمت أن لفظ القرآن علم شخصى على اللفظ المنزل المبدوء بسورة الفاتحة المختوم بسورة الناس وعلي أبعاض ذلك، والعلم الشخصي لا يحد مسماه لأن تشخصه يغنى عن حده، إذلا يقع معه فيه اشتباه ولكن الأصوليين ومن معهم حدوه لضبط أجزائه وتميزه عما لا يسمي باسمه من الكلام كالتوراة والإنجيل والأحاديث القدسية وما نسخت تلاوته مما هو كلام الله وليس قرآنا.

ويمكن أن يقال إن الشخص يمكن أن يحد بما يفيد امتيازه من جميع ما عداه بحسب الوجود لا بما يفيد تعينه وتشخصه بحيث لا يمكن اشتراكه بين كثيرين بحسب العقل فإن ذلك إنما يحصل بالإشارة الحسية لا غير، ولما أرادوا تحديده نظروا في الصفات المشتركة بين الكل والأجزاء المختصة بهما ككونه معجزا منزلا علي الرسول صلي الله عليه وسلم منقولا بالتواتر مكتوبا في المصاحف فاعتبر بعضهم في تفسيره جميع الصفات لزيادة الإيضاح واعتبر بعضهم الإنزال والإعجاز لأن الكتابة والنقل ليسا من اللوازم لتحقيق القرآن بدونهما في زمن النبى ﷺ.

واعتبر بعضهم الإنزال والكتابة والنقل لأن المقصود تعريف القرآن لمن لم يشاهد الوحي ولم يدرك زمن النبوة وهم إنما يعرفونه بالنقل تواترا والكتابة في المصاحف، وهما من أبين اللوازم وأوضحها دلالة علي المقصود بخلاف الإعجاز فإنه ليس من اللوازم البينة لأنه لا يعرفه إلا الخواص، ولا الشاملة لكل جزء إذ المعجز هو أقصر سورة أو مقدارها، وبعضهم اعتبر الإعجاز وحده نظرا إلي أنه الآية المصدقة للرسول المثبتة لرسالته ﷺ وإلى أنه الوصف الذاتى للقرآن وان كان لا يقع بجميع أبعاضه بل بأقصر سورة منه أو بمقدارها.



والذي يناسب غرض الأصوليين والفقهاء من ذلك هو اللفظ المنزل على محمد ﷺ المنقول عنه تواتراً المتعبد بتلاوته لأن غرضهم الاستدلال علي الأحكام وهو يكون باللفظ مركبا أو مفردا. فخرج بالمنزل على محمد ﷺ المنزل علي غيره كالانجيل والتوراة، وخرج بالمنقول إلينا تواترا غير المتواتر سواء كان مشهورا، مثل: «فَصِيَام ثلاثة أيام متتابعات» أو لم ينقل أصلا مثل المنسوخ تلاوته فإن هذا لا يسمى قرآنا، وخرج بالمتعبد بتلاوته الأحاديث القدسية فإنها لا يتعبد بتلاوتها فلا تسمى قرآنا وإن كانت متواترة وأما الأحاديث النبوية فهي خارجة عن التعريف لأن ألفاظها ليست منزلة وإن كان معناها منزلا وعلماء العربية يزيدون الإعجاز أو التحدى لأنهم يبحثون عن بلاغته وفصاحته ومثلهم علماء الكلام فى أحد إطلاقيه عندهم.

(تعريف القرآن عند علماء الكلام)

علماء الكلام تارة يبحثون عن القرآن من حيث إنه كلام الله وهو صفة من صفاته. وتارة يبحثون عنه من حيث إثبات نبوة سيدنا محمد ﷺ. فعرفوه من الجهة الأولي بأنه الصفة القديمة القائمة بذاته تعالى المتعلقة بالكلمات الغيبية الأزلية من أول سورة الفاتحة إلى آخر سورة الناس. والكلمات الغيبية هي ألفاظ حكمية مجردة عن المواد مطلقا حسية كانت أو خيالية أو روحانية وتلك الكلمات أزلية مترتبة من غير تعاقب فى الوضع العلمى الغيبى.

وكونها مترتبة غير متعاقبة ظاهر فإن ذلك كما يقع البصر علي صفحة مكتوبة دفعة واحدة فإنه لا تعاقب في رؤيتها وإن كانت مترتبة في ذاتها وكما يقع انطباع صورة فى المرآه فإنها وإن كانت مترتبة الأجزاء إلا أنه لا تعاقب بين أجزائها في الانطباع. ولله المثل الأعلي فجميع معلومات الله مكشوفة له أزلا كما هي مكشوفة له فيما لا يزال، وهذه الكلمات الغيبية التي لا تعاقب بينها أزلا يقدر بينها التعاقب فيما لا يزال أي عند إظهار صورها فى المواد الروحانية والخيالية والحسية من الألفاظ المسموعة والذهنية والمكتوبة وعرفوه أيضا بالكلمات الغيبية المذكورة فى متعلق الصفة القديمة، وأما من الجهة الثانية فقد عرفوه كما عرفه أهل العربية بأنه اللفظ المنزل على سيدنا محمد ﷺ للإعجاز إلخ.



فالقرآن عندهم يطلق بالاشتراك اللفظي على الصفة القديمة ومتعلقها وعلي اللفظ المذكور.

فهو مشترك بين الكلام النفسي والكلام اللفظي ويطلق على كل منهما حقيقة عرفية.

هذا ما يتعلق بلفظ القرآن لغة واصطلاحا.

وأما لفظ علوم فهو جمع علم والمراد به المسائل أو إدراكها، وإذ قد عرفت هذا المركب الاضافي بحسب الأصل قبل التركيب فلنبين معناه بعد التركيب وجعله علما علي الأبحاث المخصوصة.

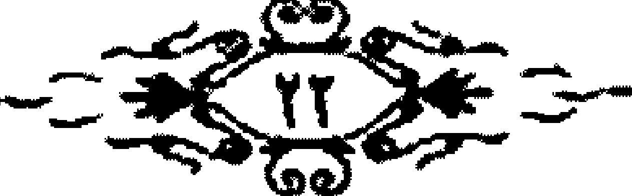
معنى علوم القرآن

أنواع من المسائل يبحث فيها عن أحوال القرآن الكريم من حيث نزوله وكيفية النطق به وأدائه وكتابته وجمعه وترتيبه في المصاحف وبيان ألفاظه وما يتعلق بكل من معانيه وألفاظه من الأحكام وقد شمل ذلك علوم التفسير والقراءات والرسم وأسباب النزول والناسخ والمنسوخ والمتشابه والإعجاز والمجاز وغير ذلك مما له تعلق بالقرآن الكريم من المسائل والمباحث.

تاريخ ظهور هذا الاصطلاح

نزل القرآن الكريم بلغة العرب وعلى أساليبهم وكلهم كانوا يفهمون ويعلمون معانيه إفرادا وتركيبا وناسخاً ومنسوخا وأسباب نزول الآيات كما عرفوا ألفاظه وكيفية النطق به وجمعه وترتيبه وكتابته ونقلت هذه الأبحاث بطريق الرواية عن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين وتداول ذلك التابعون ومن بعدهم ولم تزل رواية السلف عن الخلف هي المحور الذي تدور عليه الأبحاث المتعلقة بالقرآن حتي صارت المعارف علوما ودونت الكتب في أنواع علوم القرآن.

وقد كان كل نوع من هذه الأنواع علما مستقلا يكتب فيه العلماء كتبا فمن ذلك أسباب النزول لعلي بن المدني، والناسخ والمنسوخ لأحد علماء القرن الثالث الإمام أبي عبيد القاسم بن سلام، ومجاز القرآن لابن عبد السلام، وإعجاز القرآن للخطابي، والرماني والباقلاني وغيرهم، والناسخ والمنسوخ لأبي جعفر النحاس، وأمثال القرآن للماوردي وأقسام القرآن لابن القيم، وفي الرسم المقنع



للداني، والبرهان في متشابه القرآن للكرماني وغير ذلك مما يطول حصره من الكتب والأنواع التى ألفت فيها.

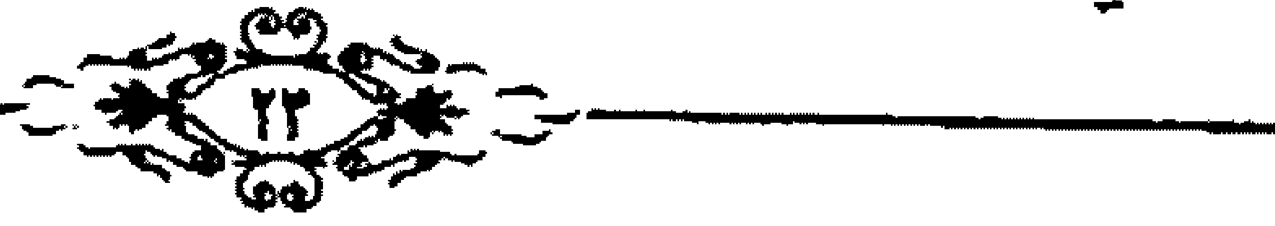
وقد كان بحثهم يدور حول استقصاء أجزاء القرآن التى اشتركت فى جهة واحدة، فمن يكتب في الناسخ والمنسوخ يستقصي آيات القرآن وسوره مبينا الناسخ والمنسوخ، ومن يكتب فى مجاز القرآن يتحري ألفاظه المجازية مع بيان أنواع المجازات، ومن يكتب في أقسام القرآن يتعرض لذكر أنواع القسم في القرآن وذكر جزئياتها، ومن يكتب فى أسباب النزول يذكر الروايات فى أسباب نزول الآيات التى نزلت على أسباب خاصة، وهكذا كان الباحثون يكتبون فى نوع أو أكثر مع استيعاب الجزئيات التى فى القرآن المشتركة فى جهة واحدة من البحث كجهة النسخ أو أسباب النزول أو المجازية أو غير ذلك، كما انفردت كتب التفسير والمفردات بنواح أخر.

ولم تجمع الأنواع المتعلقة بالقرآن فى مؤلف خاص إلى أن جاء القرن السابع وفيه وضع ابن الجزرى كتابا سماه الافنان فى علوم القرآن، وفيه أيضا وضع أبو شامة كتابا سماه الوجيز فى علوم تتعلق بالقرآن العزيز، وكل من هذين الكتابين اشتمل على طائفة يسيرة ونبذة قصيرة بالنسبة لما وجد بعد ذلك من المؤلفات في علوم القرآن وإن كان لهما الفضل في وضع الأساس وابتداء الاصطلاح لعلوم القرآن على مثال ما ألف فى علوم الحديث.

وقد كان القرن الثامن الهجرى هو الذى ازدهر فيه التأليف فى علوم القرآن من جماعة من فحول العلماء وإن اختلفوا في التأليف قلة وكثرة فى ذكر الأنواع وممن ألف في هذا القرن:

١- الإمام أبو عبد الله محيى الدين الكافيجى فقد ألف كتابا فى علوم القرآن اشتمل على بابين أحدهما فى معنى التفسير والتأويل والسورة والآية، والثانى فى شروط القول بالرأى وأتمه بخاتمة اشتملت على آداب المعلم والمتعلم.

٢- قاضى القضاة جلال الدين البلقينى ألف كتابه مواقع العلوم من مواقع النجوم قال في خطبته: قد اشتهرت عن الأمام الشافعي رضي الله عنه مخاطبة لبعض خلفاء بني العباس فيها ذكر بعض أنواع القرآن يحصل منها لمقصدنا



الاقتباس، وقد صنف في علوم الحديث جماعة في القديم والحديث وتلك الأنواع في سنده دون متنه أو في مسنديه وأهل فنه، وأنواع القرآن شاملة وعلومه كاملة فأردت أن أذكر في هذا التصنيف ما وصل إلي علمي مما حواه القرآن الشريف من أنواع علمه المنيف، وينحصر في أمور:

«الأول»، مواطن النزول وأوقاته ووقائعه وفي ذلك اثنا عشر نوعا: المكى، المدنى، السفرى، الحضرى، الليلى، النهارى، الصيفى، الشتائى، الفراشى، أسباب النزول، أول ما نزل، آخر ما نزل.

«الأمر الثاني»: السند وهو ستة أنواع: المتواتر، الآحاد، الشاذ، قراءات النبى ﷺ، الرواة، الحفاظ.

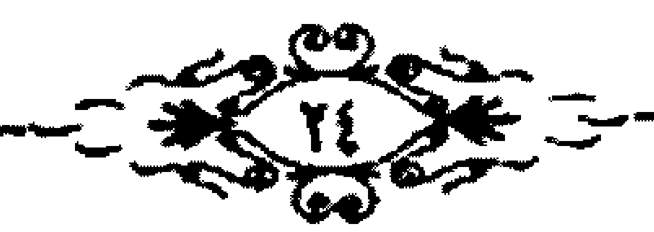
«الأمر الثالث»: الأداء وهو ستة أنواع: الوقف، الابتداء، الإمالة، المد، تخفيف الهمزة، الإدغام.

«الأمر الرابع»: الألفاظ وهو سبعة أنواع: الغريب، المعرب، المجاز، المشترك، المترادف، الاستعارة، التشبيه.

«الأمر الخامس»: المعانى المتعلقة بالأحكام وهو أربعة عشر نوعا: العام، الباقى على عمومه، العام المخصوص، العام الذى أريد به الخصوص، ما خص فيه الكتاب السنة، ما خصت فيه السنة الكتاب، المجمل، المبين، المؤول، المفهوم، المطلق، المقيد، الناسخ، المنسوخ، نوع من الناسخ والمنسوخ وهو ما عمل به من الأحكام مدة معينة والعامل به واحد من المكلفين.

«الأمر السادس»: المعاني المتعلقة بالألفاظ وهو خمسة أنواع: الفصل، الوصل، الايجاز، الإطناب، القصر وبذلك تكملت الأنواع خمسين ومن الأنواع مالا يدخل تحت الحصر: الأسماء، الكنى، الألقاب، المبهمات ا هـ من الإتقان للسيوطى.

٢- بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي الشافعي ألف كتابا سماه البرهان في علوم القرآن قال فى خطبته: لما كانت علوم القرآن لا تحصى ومعانيه لا تستقصى وجبت العناية بالقدر الممكن، ومما فات المتقدمين وضع يشتمل على أنواع علومه كما وضع الناس ذلك بالنسبة إلى علم



الحديث فاستخرت الله تعالى وله الحمد، إلى آخر ما قال.

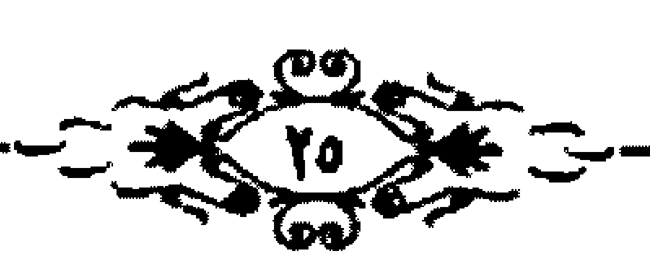
ثم ذكر أنواعه التي بلغت سبعة وأربعين وقد أبدع فيه وأغرب وأتى بالعجب.

وفي القرن التاسع الهجرى تحركت من الامام جلال الدين السيوطي همته العالية وقويت عزيمته الماضية علي إبراز مؤلف في علوم القرآن ليحاكى بذلك من ألفوا في علوم الحديث وكان لم يطلع على ما تقدم من المؤلفات الجامعة وإن كان قد اطلع على مؤلفات كثيرة في أنواع مفردة وفي أثناء ابتدائه التأليف اطلع عليها، فقال في خطبة الإتقان بعد أن نقل خطبة البرهان للزركشي: ولما وقفت على هذا الكتاب ازددت به سرورا وحمدت الله كثيرا وقوى العزم على إبراز ما اضمرته وشددت الحزم في إنشاء التصنيف الذي قصدته فوضعت هذا الكتاب العلى الشأن الجلى البرهان، إلى أن قال «وسميته الإتقان في علوم القرآن» ثم، ذكر ما حواه من الأنواع فبلغت ثمانين نوعا.

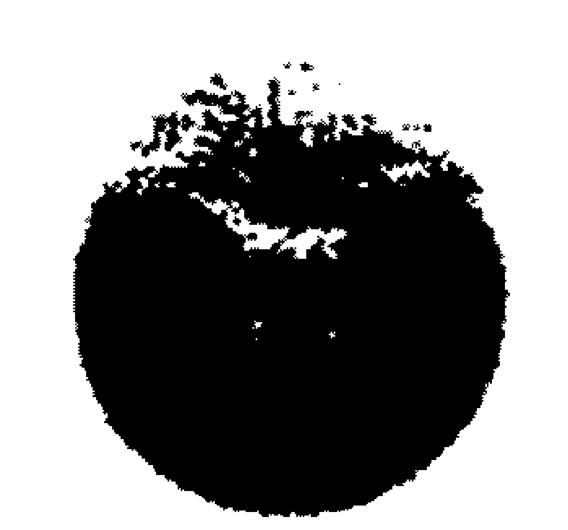
فقد تدرج التأليف في علوم القرآن من تأليف مفردات إلي مجموعات إلي أن استوعبه الإمام السيوطي ولو أعدنا النظر في المنهج المقرر الآن لوجدنا أنواعا كثيرة قد ضمت إلى علوم القرآن لم تكن من قبل كأبحاث ترجمة القرآن وذكر الشبه الواردة علي القرآن وردها وغير ذلك، سنة الله التي جرت في نشأة العلوم فإنها تنشأ ضيقة الدائرة ثم تأخذ في الاتساع شيئا فشيئا وبخاصة العلوم الخاصة بالقرآن الكريم فإنها لا تقف عند حد ولا تصل العقول فيها إلي غاية. نسأل الله تعالي أن يعلمنا من علوم كتابه ما يقربنا إليه زلفى وننال به السعادة وكمال الهداية.

هذا وإن المواضع المختارة للدراسة من المواضيع المهمة التي تدور عليها أبحاث المفسرين والأصوليين وعلماء الكلام والبلاغة استمدوها من القرآن الكريم ولنتكلم عليها مرتبة طبق المنهج المرسوم.

* * *



منهج التأليف فى علوم القرآن



قد علمت من ثنايا ما تقدم أن التأليف في أنواع القرآن كان الغرض منه استيعاب الجزئيات المتناسبة فى موضوع واحد، مثال ذلك من يتكلم في أسباب النزول كان تأليفه يدور على ذكر أسباب الآيات التي وردت على سبب ويتكلم على روايتها، ومن يؤلف في المكى والمدنى يذكر الآيات والسور المكية والمدنية ومن يتكلم في النسخ يستوعب القرآن كله لبيان ما فيه نسخ وما ليس فيه نسخ وكذا فى مجاز القرآن، وهكذا ولذلك كانت الأبحاث مطولة.

أما منهجنا في هذا المؤلف فهو ذكر أحكام كلية للجزئيات المتناسبة وليس غرضنا استيعاب الجزئيات وإن اقتضى الحال ذكرها ذكرت بقدر الإيضاح مثال ذلك أننا نتكلم فى بيان المكي والمدني علي بيان المزايا التي اختص بها كل وذكر الشبه عليه وردها، وفي أسباب النزول نتكلم على الأحكام التى تخص السبب وما نزل على سبب خاص أو عام وهكذا والله المستعان.

* * *



المبحث الثانى

نزول القرآن

- معنى نزول القرآن.
- كيفية نزول القرآن.
- حكمة إنزال القرآن مفرقا.
- أول ما نزل من القرآن وآخر ما نزل.

معنى نزول القرآن

النزول مصدر نزل ومعناه لغة الإيواء، ومنه نزل الأمير المدينة أى آوي إليها، وقوله تعالى﴿ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكًا ﴾[1] ويطلق لغة أيضا على تحريك الشيء من علو إلي سفل ومنه ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾[2] وكلا المعنيين اللغوين لا يتحقق في إنزال القرآن لاستدعائهما المكانية والجسمية فيكون معنى مجازيا.

فإنزل القرآن بمعنى الكلام القائم بذات الله تعالى معناه إثبات الألفاظ الدالة عليه في اللوح المحفوظ، وبمعنى اللفظ إثباته في اللوح المحفوظ أو فى سماء الدنيا بعد إثباته فيه وهو معنى نزوله فى ليلة القدر، ومعنى نزول القرآن على النبى ﷺ نزول حامله وهو الملك وهو حامل حروفه الملفوظة أو صورها المحفوظة أو المكتوبة من باب إطلاق اسم الحال على المحل وهو مجاز متعارف مثل قولك أرسلت هذا الكلام إلى فلان بمعنى أرسلت من يحمله.

وعلى هذا فالملك كان يتلقف القرآن من الله تعالى تلقفا روحانيا أو يحفظه من اللوح المحفوظ ثم ينزل به فيلقيه على الرسول ﷺ وكيفية تلقيه ﷺ، عن جبريل بأحد طريقين (أحدهما) أن النبي ﷺ انخلع من الصورة البشرية إلى الصورة الملكية وأخذه عن جبريل (الثانى) أن الملك انخلع من الصورة الملكية إلى الصورة البشرية فأخذه الرسول عنه والأول أشد.

والذى نزل به جبريل وألقاه على النبى ﷺ هو اللفظ والمعنى معاً ولا عبرة بزعم بعضهم أنه نزل بالمعنى ثم عبر عنه ﷺ بلغة العرب مستندا إلى قوله تعالى ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾[3] فإنه لا يشهد له لأن القلب كما ينزل عليه المعنى ينزل عليه اللفظ ومنه ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾[4] أى جمعه فى قلبك

---

١ - سورة المؤمنون (الآية ٢٩).
٢- سورة الرعد (الآية ١٧).
٣- سورة الشعراء (الآية ١٩٣).
٤- سورة القيامة (الآية ١٧).



وقراءته على لسانك، وفضلا عن ذلك فإن القائل يلزمه أمور مخالفة لصريح القرآن والسنة والإجماع، منها أنه لا يكون لفظه معجزا ومنها أنه لا يكون متعبدا بتلاوته وغير ذلك، لذا كان هذا الزعم ساقطا عن الاعتبار.

قال الجويني كلام الله المنزل قسمان، قسم: قال الله لجبريل قل للنبي الذي أنت مرسل إليه إن الله يقول افعل كذا وكذا وأمر بكذا وكذا ففهم جبريل ما قاله ربه ثم نزل علي ذلك النبي وقال له ما قاله ربه ولم تكن العبارة تلك العبارة كما يقول الملك لمن يثق به قل لفلان يقول لك الملك اجتهد في الخدمة واجمع جندك للقتال فإن قال الرسول يقول لك الملك لا تتهاون في خدمتي ولا تترك الجند يتفرق وحثهم على المقاتلة لا ينسب إلى كذب ولا تقصير في أداء الرسالة.

(وقسم آخر) قال الله لجبريل اقرأ على النبي هذا الكتاب، فنزل جبريل به من الله من غير تغيير كما يكتب الملك كتابا ويسلمه إلى أمين ويقول اقرأه على فلان فهو لا يغير منه كلمة ولا حرفا اهـ .

(فالقسم الثاني هو القرآن والقسم الأول هو السنة وقد ورد أن جبريل كان ينزل بالسنة كما ينزل بالقرآن وقد تبين بما ذكر حكمة جواز رواية السنة بالمعنى للعارف الضابط وعدم جواز راوية القرآن بالمعنى وذلك لأن السنة أداها جبريل بالمعنى، وأما القرآن فإنه أداه باللفظ وقد كان ذلك من تيسير الله على الأمة حيث جعل المنزل إليهم علي قسمين: قسم يروونه بلفظه الموحى به، وقسم يروونه بالمعنى ولو جعل كله مما يروى باللفظ لشق ذلك عليهم ولو جعل كله مما يروى بالمعنى لم يؤمن فيه التبديل والتحريف.

ويؤيد ذلك (أولا) أن نزول القرآن إذا ذكر في القرآن مقيداً لم يقيد إلا بأنه من عند الله، قال تعالي ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾[1] وقال تعالي ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾[2] فهذا يدل على أن القرآن منزل من عند الله وهو كلامه كما قال تعالى ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾[3] وليس كلام غيره ولا يجوز أن يقال إن القرآن عبارة عن كلام

١- سورة الجاثية (الآيتان ١، ٢).

٢- سورة الأنعام (الآية ١١٤)

٣- سورة التوبة (الآية ٦)



الله لأن الكلام يضاف حقيقة إلي من قاله مبتدئا لا إلي من قاله مبلغا مؤديا أو متعبدا تاليا (ثانيا) ما أخرجه الطبراني مرفوعا من حديث النواس بن سمعان مرفوعا (إذا تكلم الله بالوحي أخذت السماء رجفة شديدة من خوف الله، فإذا سمع بذلك أهل السماء صعقوا وخروا سجدا فيكون أولهم يرفع رأسه جبريل فيكلمه الله بوحيه بما أراد فينتهي به علي الملائكة فكلما مر بسماء سأله اهلها: ماذا قال ربنا؟ قال: الحق. فينتهي به حيث أمر) فهذا الحديث أيضا يدل علي أن جبريل كان يسمع القرآن ويكلمه الله به وهو يؤديه كما سمع، كيف وقد وصفه الله بأنه أمين.

كيفية نزول القرآن

«**المقام الأول**» في كيفية نزوله من اللوح المحفوظ الذي هو الذكر وأم الكتاب، قال الله تعالى ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾[1] دل ذلك على أن القرآن مثبت في اللوح المحفوظ ولم يذكر كيفية ذلك وحقيقته فوجب الايمان به مع تفويض علم حقيقته وكيفيته إلى الله تعالى.

وقال الله تعالي ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ﴾[2] وقال تعالي ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ﴾[3] وقال تعالي ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾[4] وقد ثبت في الروايات الصحيحة أن أول ما نزل من القرآن «اقرأ» ولم ينزل معها غيرها ثم فتر الوحى بعد ذلك، والمشهور أن ذلك كان في رمضان كما أنه من الثابت الواقع أن القرآن نزل في غير رمضان من أشهر السنة.

فكيف يكون التوفيق بين ما ذكر من الآيات مع بعضها وبينها وبين الواقع الثابت.

وبيان ذلك أن الآيات الثلاث أفادت إنزاله جملة واحدة وأن ذلك كان في شهر رمضان في ليلة القدر وهي الليلة المباركة وأن هذا الإنزال كان من اللوح المحفوظ

١- سورة البروج (الآيتان ٢١، ٢٢).
٢- سورة البقرة (الآية ١٨٥).
٣- سورة الدخان (الآية ٣).
٤- سورة القدر (الآية ١).



إلى سماء الدنيا، يدل على ذلك ما أخرجه الحاكم والبيهقى وغيرهما من طريق منصور عن ابن عباس (قال أنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا وكان بمواقع النجوم وكان الله ينزله على رسوله ﷺ بعضه فى أثر بعض).

وقد ذكر في الإتقان روايات أخرى عن ابن عباس بهذا المعنى، وقال أسانيدها كلها صحيحة وهذا لا يقوله ابن عباس بمحض الرأى والاجتهاد بل له حكم المرفوع وإذا كانت هذه الآيات لا تنافي بينها فهى لا تنافى الواقع الثابت من أنه نزل على النبي ﷺ فى غير شهر رمضان وليلة القدر، لأن ذلك فى نزوله إلى سماء الدنيا كما علمت، وهذا فى نزوله علي النبى ﷺ منجما بحسب الوقائع والأحوال وجواب الأسئلة والأمثال فى عشرين سنة، أو ثلاث وعشرين سنة، أو خمس وعشرين سنة على الخلاف فى مدة إقامته فى مكة بعد البعثة هل هى عشر سنين أو ثلاث عشرة سنة، أو خمس عشرة سنة وأما إقامته بالمدينة فهى عشر سنين اتفاقا.

وهذا البيان الذى ذكرناه فى المراد من الآيات المذكورة وطريق الجمع بينها هو الصحيح المعتمد، حتى حكي بعضهم الاجماع عليه[1] و(الحكمة) فى إنزاله جملة واحدة إلي سماء الدنيا تفخيم أمره وأمر من نزل عليه بإعلام سكان السموات السبع بأن هذا آخر الكتب المنزلة علي خاتم الرسل لأشرف الأمم وفى ذلك تكريم لبنى آدم وإظهار شأنهم عند الملائكة ولهذا المعنى قد أمر الله سبعين ألف ملك أن يشيعوا سورة الأنعام وقت نزولها كما دلت علي ذلك الروايات الصحيحة.

(المقام الثانى) في كيفية إنزاله على النبي ﷺ.

اختص القرآن الكريم من بين الكتب السماوية بأنه نزل علي النبى ﷺ منجما مفرقا حسب الوقائع والحوادث وإجابات السائلين وقد دل على ذلك

١- إنزال القرآن إلى اللوح المحفوظ ليس خاصا به فاللوح المحفوظ يشمل كل ما علمه الله تعالى، وإنزال القرآن إلى السماء الدنيا ليس فيه يقين، وما سيق من أدلة لا ترقى به إلي مستوى الاعتقاد الواجب، فلا يبقى إلا النزول على قلب سيدنا محمد ﷺ على مدى سنوات الدعوة، ويكون معنى قوله تعالى «أنزل فيه القرآن» وقوله تعالي «إنا أنزلناه» أى بدأنا إنزال القرآن فى ليلة مباركة هى ليلة القدر من شهر رمضان.. والله أعلم.



القرآن الكريم والسنة الصحيحة قال تعالى ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً ﴾[1] كما ورد فى نزول القرآن فى السنة الصحيحة أن أول ما نزل (اقرأ) ثم (المدثر) وأن الآيات المفتتحة بقوله تعالى (يسألونك) مثل ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ﴾[2]﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ ﴾[3]﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ ﴾[4] وهكذا كانت تنزل جوابا للأسئلة التى توجه إلى ﷺ إما لبيان حكم أو للتثبت من نبوته وغير ذلك مما يدل على أن القرآن نزل مفرقا.

«أما الكتب السماوية السابقة» فالمشهور بين العلماء أنها نزلت جملة واحدة حتي كاد ذلك الرأى يكون إجماعا وهو الصواب، والدليل عليه قوله تعالى حكاية عن اليهود أو المشركين وردا عليهم ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾[5] ووجه دلالة هذه الآية على أن الكتب السابقة نزلت جملة واحدة أنها لو كانت قد نزلت مفرقة لكان رد الله عليهم بأن ذلك سنة الله فى الكتب التي أنزلها علي أنبيائه السابقة، كما رد عليهم فى قولهم ﴿ وَقَالُوا مَا لِهَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ﴾[6] بقوله ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ﴾[7] وكما رد علي قولهم ﴿ أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً ﴾[8] بقوله ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ ﴾[9]

وهنا لم يرد الله عليهم بأن ذلك سنته فى إنزال الكتب بل أجابهم ببيان الحكمة فى إنزاله مفرقا بقوله «كذلك لنثبت به فؤادك» أى لنقوى به قلبك فإن الوحى إذا كان يتجدد فى كل حادثة كان ذاك أقوى بالقلب وأشد عناية بالمرسل إليه، ويستلزم ذلك كثرة نزول الملك إليه وتجدد العهد به وبما معه من الرسالة

١- سورة الإسراء (الآية ١٠٦)
٢- سورة الإسراء (الآية ٨٥)
٣- سورة النازعات (الآية ٤٢)
٤- سورة البقرة (الآية ٢١٩)
٥- سورة الفرقان (الآية ٣٢)
٦- سورة الفرقان (الآية ٧)
٧- سورة الفرقان (الآية ٢٠)
٨- سورة الإسراء (الآية ٩٤)
٩- سورة الأنبياء (الآية ٧)



الواردة من جناب الحق فيحصل له من السرور ما تقصر عنه العبارة فكان ذلك دليلاً على أن تفريق نزول القرآن مختص به ﷺ.

ومما يدل أيضا على أن التوراة نزلت جملة واحدة قوله تعالى ﴿ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ ﴾[1] وقوله ﴿ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ ﴾[2] وقد علمت مما تقدم أن الله تعالي قد جمع في القرآن الأمرين: إنزاله جملة إلى سماء الدنيا للحكمة التى تقدمت، وإنزاله مفرقا على النبى ﷺ لما سنذكره من حكم ذلك.

حكمة إنزال القرآن مفرقا

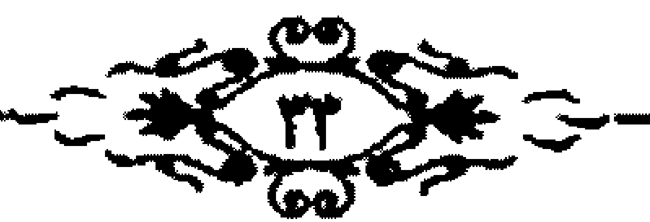
١- تثبيت فؤاد النبى ﷺ بسبب توالى نزول الوحى عليه وذلك من كمال عناية الله تعالى به وقد ذكر الله هذه الحكمة بقوله ﴿ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾[3] وقد ثبت الله تعالى فؤاده في أشد المواقف وأحرجها، انظر إلى قوله لأبى بكر فيما حكاه عنه الله تعالى ﴿ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾[4] وما ذلك إلا من قوة يقينه ووثوقه بنصر الله مع ما يحيط به من الأعداء.

وانظر إلى حالته ﷺ فى غزوتى أحد وحنين وقد انهزم عنه أصحابه وهو ﷺ لم يزدد إلا قوة وتثبيتاً وذلك كله بما كان يواليه الله به من تتابع الوحى وذكر قصص الأنبياء وأممهم، وكيف كانت عاقبة الصبر يضاف إلى ذلك تتابع الوحى بالوعد والوعيد والبشارة والنذارة مما كان له أكبر الأثر فى تثبيت فؤاده ﷺ.

ولا غرو فقد كانت هذه الحكمة من أعظم الحكم التى من أجلها نزل القرآن منجما لذا جعلها الله خير رد على من اعترض بعدم نزول القرآن على النبى ﷺ جملة واحدة وأنه خالف بذلك سنن الكتب السابقة.

٢- قال الله تعالى ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً ﴾[5] أى لتقرأه علي تؤدة وتمهل. وهذه الحكمة التي ذكرها الله تعالى

١- سورة الاعراف (الآية ١٤٥)
٢- سورة الأعراف (الآية ١٧١)
٣- سورة الفرقان (الآية ٣٢)
٤- سورة التوبة (الآية ٤٠)
٥- سورة الاسراء (الآية ١٠٦)



لإنزال القرآن مفرقا وهي قراءة النبي ﷺ له على الناس على مكث وقد اشتملت هذه الحكمة العظيمة على مصالح عظيمة للعباد وهي:

(أولا) انتزاع العقائد الفاسدة والعادات الضارة من نفوسهم شيئا فشيئا لما كان متأصلا في نفوسهم من عبادة الأوثان والاستقسام بالأنصاب والأزلام ووأد البنات ونكاح نساء الآباء وإكراه الفتيات على البغاء وقتل الأولاد خشية الإملاق وشن الحروب والغارات لأوهى الأسباب والتعامل بالربا وفشو الزنا وشرب الخمور وغير ذلك من الأخلاق السيئة.

فنزل القرآن على التدريج ليكون ذلك ملائما للطبائع البشرية التي يشق عليها ترك ما تعودته دفعة واحدة لذلك خاطبهم أولا بإصلاح العقيدة وبتوحيد الله حتى إذا أقروا بوجود الله ووحدوه خاطبهم بما ينهى عنه الإله وبما يأمر به.

(ثانيا) التدرج في نشر العقائد الصحيحة والأخلاق الفاضلة والأحكام التي بها تصح العبادة والمعاملة.

(ثالثا) تفهم القرآن وتدبر معانيه والوقوف على أسراره ودقائقه حتى يتمكنوا من العمل به على الوجه الأتم الأكمل فتتربى في الأمة القوتان النظرية والعملية ولذا ورد عن ابن مسعود أنه قال «كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن».

(رابعا) تيسير حفظه على المسلمين فإنهم قد ابتلوا في حياة الرسول ﷺ بالاضطهاد والأذى من كفار قريش قبل الهجرة حتى اضطر كثير منهم إلى ترك أهله وماله ووطنه فرارا بدينه، وبعد الهجرة ابتلوا كثيرا بمعاداة اليهود والمنافقين وبالحروب التي قامت بينهم وبين قريش وكانت سببا في تمكين الإسلام ونشره.

فلو أن القرآن نزل جملة واحدة لما وسعهم حفظه مع هذه الأحوال التي يعتبر حفظهم للقرآن مع نزوله مفرقا وقيامها من أعظم الأدلة على تصديق وعد الله في قوله ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[1] فانظر إلى هذه الحكمة التي ذكرها الله تعالى بقوله «لتقرأه على الناس على مكث» قد انتظمت أربع حكم

١- سورة الحجر (الآية ٩)



وهى التدرج فى تطهير الأمة من العقائد الفاسدة والعادات السيئة والتدرج فى تعليمها الأخلاق الفاضلة والعبادات النافعة والتمكين لها فى فهم القرآن ومعرفة أسراره والتيسير عليها فى حفظه واستظهاره حتى صارت الأمة حاملة لواء الدين حامية لذماره، وبهذا كله أمكن لهؤلاء السلف أن يبلغوا القرآن للأمم التى لم تكن عربية ولمن بعدهم مع تمام العناية فى حفظه وضبطه وفهم معانيه وتدبر أحكامه وذلك بفضل وعد الله بأن يتم نوره ولو كره الكافرون.

٣- مجاراة الحوادث في تجددها فقد شاءت إرادة الله تعالى أنه كلما وقعت حادثة لم يكن حكمها معروفا عند المسلمين أن تنزل آية مبينة لحكمها عقب وقوعها ومن البدهى أن هذه الحوادث لم تقع جملة واحدة حتى تنزل آيات بأحكامها دفعة واحدة فكانت الحكمة والمصلحة فى تفريق الآيات الخاصة بأحكام الحوادث التى تقع، ومن تلك الحوادث:

حادثة هلال بن أمية مع زوجته التي نزلت فيها آية اللعان وحكمه.

حادثة خولة بنت ثعلبة التى ظاهر منها زوجها ونزلت فيها آية الظهار وحكمه.

حادثة الإفك التي نزلت فيها آيات ببراءة السيدة عائشة وحكم الإفك وأهله.

حادثة زيد مولي رسول الله صلي الله عليه وسلم التي أنزل فيها حكم التبنى فى الاسلام وأثره وغير ذلك من الجزئيات التى لو تتبعناها لطال بنا المقال.

٤ – إجابات السائلين الذين كانوا يوجهون إلى رسول الله ﷺ أسئلة إما بقصد معرفة الحكم أو بقصد التثبت من رسالته ﷺ ومن النوع الأول ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ﴾[1] ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾[2] ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾[3] ومن النوع الثاني ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾[4] ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾[5] الخ ومن المعلوم أن هذه الأسئلة لم تقع جملة فى وقت واحد، بل وقعت متفرقة فى أوقات مختلفة لأغراض متنوعة فكان نزول

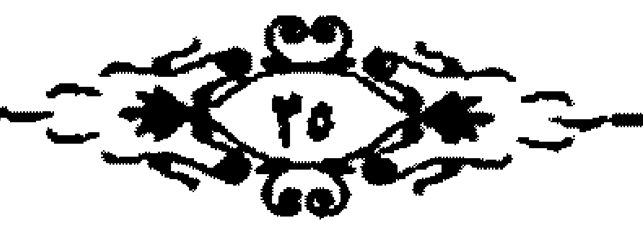
١- سورة البقرة (الآية ١٨٩)

٢- سورة البقرة (الآية ٢١٩)

٣- سورة البقرة (الآية ٢١٩)

٤- سورة الإسراء (الآية ٨٥)

٥- سورة الكهف (الآية ٨٣)



القرآن مفرقا بإجاباتها طبق وقوعها وفي ذلك الدليل الواضح على أنه ﷺ ما كان يشرع الأحكام من تلقاء نفسه وما كان يخبر عما غاب عنه ولم يكن حاضرا له بمقتضى علم عنده، وإنما ذلك كله من لدن الحكيم الخبير الذى أرسله رحمة للعالمين ولكون ذلك من علامات صدقه ﷺ فقد حملت الكثيرين من أهل الكتاب والمعاندين على تصديقه والاستجابة لدعوته.

٥- كشف حال المنافقين وإبراز مكنون أسرارهم فيما كانوا يخفونه على النبى ﷺ ومن آمن معه وما كانوا يظاهرون به الكفار وأهل الكتاب ليأمن النبى ﷺ شرهم ويقف المؤمنون علي أحوالهم فلا يغتروا بأقوالهم وأفعالهم سيما وقد كان المنافقون متظاهرين بالإسلام وهم مختلطون بالمسلمين واقفون علي أسرارهم وأحوالهم فكانوا كلما عزموا أمراً نقضه الله أو بيتوا كيدا أظهره الله فأظهر فضائحهم وجعل مكنون أسرارهم معلوما لرسوله ولمن آمن معه من المؤمنين وذلك بإنزال القرآن فى شأنهم كلما فعلوا ذلك حتى بطل كيدهم ومكن الله بنصره للنبى والمؤمنين.

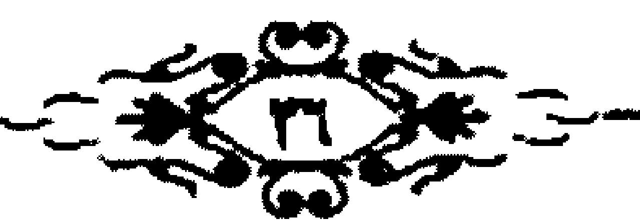
وإن شئت أن تقف علي نموذج مما ورد فى شأنهم فاقرأ قوله تعالى:

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ -الآيات حتى قوله- إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[1] فى سورة البقرة، وقوله تعالى فى سورة النساء: ﴿ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ- الآيات حتى قوله- وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً ﴾[2] وقوله تعالى فى سورة الحشر ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾[3] -إلى آخر الآيات- وقوله تعالى فى سورة المنافقين ﴿ إِذَا

١- سورة البقرة (الآيات ٨:٢٠)


٢- سورة النساء (الآيات ١٤١:١٤٣)

٣- سورة الحشر (الآية ١١)



جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ -الآيات حتى قوله- وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾[1] وغير ذلك من الآيات التي كانت تنزل تنبيها للنبي ﷺ وتحذيرا للمؤمنين حتي يكونوا دائما بمأمن من كيدهم فإن العدو الخفي المخالط أضر وأنكى من العدو الظاهر المباين فلله الحمد لا نحصي ثناء عليه.

٦ - تنبيه المؤمنين من وقت لآخر على ما كان يحصل منهم من خطأ في غزواتهم مع النبي ﷺ وتحذيرهم من عواقب المخالفة وبيان الامتنان عليهم بالنصر مع القلة وفي ذلك من كمال التأديب والتهذيب ما بلغوا بسببه أسباب النصر. انظر إلى ما قصه الله في سورة آل عمران بشأن غزوتي بدر وأحد من الامتنان والتنبيه والتحذير، وما قصه الله بشأن غزوات حنين والأحزاب وغير ذلك.

وبدهي أن تلك الغزوات وما وقع فيها لم تكن جملة واحدة فكان ما يقصه الله تعالى بشأنها مفرقا بمنزلة تعهد السيد الرحيم بعبيده من وقت لآخر كلما حدثت منهم مخالفة ذكرهم بالنعمة حتي يكونوا دائما قائمين عند أمره ونهيه ولله المثل الأعلي فهو أبر بالمؤمنين من السيد بعبيده بل أرحم بهم من أنفسهم.

٧ - تثبيت المؤمنين بما كان يقصه القرآن من وقت لآخر من أحوال الأمم الماضية وكيف كانت عاقبة من آمن واتبع رسوله وأن النصر مع الصبر وأن الفوز باتباع أوامر الله واجتناب نواهيه وأن عاقبة المكذبين الهلاك والدمار وقد تكرر ذلك في القرآن في غير ما آية مما لو تتبعناه لخرجنا عن حد الاختصار وقد كان لذلك أعظم الأثر في ثبات المسلمين وتثبيتهم وفي هذا الذى ذكرناه كفاية لمن أراد تعرف حكمة نزول القرآن مفرقا وفيه أبلغ رد على من حاول الاعتراض على نزول القرآن مفرقا وهناك حكم كثيرة يطول المقام بذكرها وقد اقتصرنا على الأهم منها.

١- سورة المنافقون (الآية ١:٨)



أول ما نزل وآخر ما نزل

هذا البحث من المباحث العظيمة يتعلق به فوائد مهمة:

«منها» معرفة الناسخ من المنسوخ عند التعارض «ومنها» معرفة التدرج فى التشريع كمعرفة الآيات التى وردت فى شأن الخمر «ومنها» معرفة تاريخ التشريع الاسلامي إذا علم أن الآيات



الدالة علي وجوب شهر رمضان نزلت فى مكان كذا في سنة كذا مثلا.

وهذا البحث عمدته النقل ولا طريق فيه للعقل، ثم أولية النزول وآخريته تارة تكون علي الإطلاق يعنى أولية النزول على الإطلاق وآخريته على الإطلاق وتارة تكون بالنسبة إلى موضوع معين وتسمى أولية مقيدة وآخرية مقيدة كأول ما نزل فى الخمر وآخر ما نزل فيه، وأول ما نزل فى القتال وآخر ما نزل فيه، وأول ما نزل فى الربا وآخر ما نزل فيه، وأول ما نزل فى الميراث وآخر ما نزل فيه وهكذا.

وكلامنا الآن فى أول ما نزل على الإطلاق وآخره على الإطلاق وأما الأوائل والأواخر المقيدة بموضوع معين فهى كثيرة يستلزم ذكرها استقراء تاما مع ذكر جميع الروايات الصحيحة فى ذلك، وذلك مما يحتاج إلى مؤلف مطول خاص لذا اقتصرنا على بيان أول ما نزل على الإطلاق وآخره وذكر الروايات فى ذلك وطرق الجمع بينها فنقول:

(أول ما نزل)

وفيه أربعة أقوال: «أولها» أن أول ما نزل «اقرأ» وهو مروي عن عائشة رضى الله عنها وبه قال قتادة وأبو صالح ويؤيده ما رواه الشيخان وغيرهما عن عائشة قالت «أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءته مثل فلق الصبح ثم حبب إليه الخلاء فكان



يأتى حراء فيتحنث فيه الليالي ذوات العدد ويتزود لذلك ثم يرجع إلي خديجة رضي الله عنها فتزوده لمثلها حتي جاءه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فيه فقال: اقرأ، قال رسول الله صلي الله عليه وسلم: فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني حتي بلغ مني الجهد ثم ارسلني فقال: اقرأ فقلت ما أنا بقارئ فغطني الثانية حتي بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ فقلت ما أنا بقارئ فغطني الثالثة حتي بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال، «اقرأ باسم ربك الذى خلق» حتى بلغ «ما لم يعلم» فرجع بها رسول الله ﷺ ترجف بوادره» إلى آخر الحديث.

وأخرج الحاكم فى المستدرك والبيهقى فى الدلائل وصححاه عن عائشة «قالت أول سورة نزلت من القرآن اقرأ باسم ربك» وأخرج الطبرانى فى الكبير بسند على شرط الصحيح عن أبى رجاء العطاردي قال: كان أبو موسى يقرئنا فيجلسنا حلقا، عليه ثوبان أبيضان فإذا تلا هذه السورة «اقرأ باسم ربك الذى خلق» قال هذه أول سورة نزلت على محمد ﷺ» وقد وردت روايات كثيرة أخرى تؤيد هذا القول وهو الصحيح المشهور عند الرواة .

(القول الثانى أن أول ما نزل (يا أيها المدثر) وروى هذا القول عن جابر، روى الشيخان عن أبى سلمة بن عبد الرحمن قال سألت جابر بن عبد الله أى القرآن أنزل قبل قال يا أيها المدثر قلت أو اقرأ باسم ربك قال أحدثكم ما حدثنا به رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ إنى جاورت بحراء فلما قضيت جوارى نزلت فاستبطنت الوادى فنظرت أمامي وخلفي وعن يمينى وشمالي ثم نظرت إلى السماء فاذا هو - يعني جبريل - فأخذتني رجفة فأتيت خديجة فأمرتهم فدثرونى فأنزل الله «يا أيها المدثر قم فأنذر».

وقد علمت أن القول الأول هو الصحيح ويجاب عن حديث جابر بأمور:

«أولها» أن كلام جابر في أول سورة نزلت بكمالها وسورة المدثر نزلت بكمالها قبل تمام سورة اقرأ، ويؤيد ذلك ما رواه الشيخان عن جابر نفسه قال سمعت رسول الله ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحى فقال فى حديثه «بينا أنا أمشى سمعت صوتا من السماء فرفعت رأسى فإذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض فرجعت فقلت زملوني زملونى فدثرونى

فأنزل الله يأيها المدثر» ولاشك أن قوله في هذه الرواية فإذا الملك الذى جاءني بحراء يدل على أن هذه القصة متأخرة عن قصة حراء التى نزل فيها اقرأ: ويدل بالأولى على تأخير نزول المدثر عن نزول اقرأ إلا أن تحمل رواية جابر الأولى علي ما قدمنا فتكون أولية المدثر مقيدة بالسورة الكاملة وليس المراد بها الأولية المطلقة.

(ثانيهما) أن مراد جابر بأولية المدثر أولية مقيدة أيضا بما بعد فترة الوحى لا الأولية المطلقة.

(ثالثهما) أن المراد بها أولية مقيدة بالإنذار لا أولية مطلقة، وعلى كل فما قاله على أحد هذه الأجوبة لا يعارض الصحيح الذى روى عن عائشة.

(القول الثالث) أن أول ما نزل سورة فاتحة الكتاب وقد استند صاحب هذا القول إلي ما أخرجه البيهقي في الدلائل والواحدي من طريق يونس بن بكير عن يونس بن عمرو عن أبيه عن أبي ميسرة عمر بن شرحبيل أن رسول الله ﷺ قال لخديجة وإني إذا خلوت وحدي سمعت نداء فقد والله خشيت علي نفسي أن يكون هذا أمرا فقالت معاذ الله ما كان الله ليفعل بك فوالله إنك لتؤدي الأمانة وتصل الرحم وتصدق الحديث، فلما دخل أبو بكر ذكرت خديجة حديثه له وقالت اذهب مع محمد إلي ورقة فانطلقا فقصا عليه فقال إذا خلوت وحدي سمعت نداء خلفي يا محمد يا محمد فانطلق هاربا في الأفق فقال لا تفعل إذا أتاك فاثبت حتي تسمع ما يقول ثم ائتنى فأخبرني فلما خلا ناداه يا محمد قل «بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين «حتي بلغ» ولا الضالين» وهذا الحديث مرسل وإن كان رجاله ثقات فلا يعارض حديث عائشة المرفوع.

(القول الرابع) أن أول ما نزل «بسم الله الرحمن الرحيم» حكاه ابن النقيب في مقدمة تفسيره، أخرج الواحدى بإسناده عن عكرمة والحسن قالا: أول ما نزل من القرآن بسم الله الرحمن الرحيم وأول سورة «إقرأ»، وهذا لا ينبغي أن يعد قولا برأسه فإنه من ضرورة نزول السورة نزول البسملة معها وعلى ذلك فتكون البسملة أول آية على الإطلاق وقد نزلت مع اقرأ وبهذا قد تبين أن القول الأول هو الحق والله أعلم.



آخر ما نزل



قد اختلف في بيان آخر ما نزل من القرآن علي أقوال كثيرة كلها مستندة إلي آثار ليس فيها شئ مرفوع وإليك الأقوال مع ذكر ما استند إليه كل قول من الروايات :

«أولها» أن آخر ما نزل قوله تعالي ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا ﴾[1] أخرجه البخارى عن ابن عباس أن آخر آية نزلت آية الربا وروى البيهقى عن عمر مثله.

(ثانيها) أن آخر ما نزل ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ﴾[2] الآية، أخرجه النسائي من طريق عكرمة عن ابن عباس وروى عن سعيد بن جبير أنه قال آخر ما نزل من القرآن كله «واتقوا يوما ترجعون فيه إلي الله» الآية وعاش النبى ﷺ بعد نزول هذه الآية تسع ليالي ثم مات ليلة الاثنين لليلتين خلتا من ربيع الأول.

(ثالثها) أن آخر القرآن نزولا آية الدين[3] . أخرج أبو عبيد في الفضائل عن ابن شهاب قال: آخر القرآن عهدا بالعرش آية الربا وآية الدين.

وأخرج ابن جرير من طريق ابن شهاب عن سعيد بن المسيب أنه بلغه أن أحدث القرآن عهدا بالعرش آية الدين» مرسل صحيح الإسناد وبالنظر في هذه الأقوال الثلاثة يظهر أنه لا تنافى بينها لأن الظاهر أنها نزلت دفعة واحدة طبق ترتيبها فى المصحف ولأنها في قصة واحدة فأخبر كل عن بعض ما نزل بأنه آخر ما نزل وعلي ذلك فهذه الأقوال الثلاثة تعتبر قولا واحدا وهو الصواب.

(القول الرابع) أن آخر آية نزلت ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ﴾[4] وآخر سورة نزلت براءة روى ذلك البخارى ومسلم عن البراء بن عازب.

١- سورة البقرة (الآية ٢٧٨)
٢- سورة البقرة (الآية ٢٨١)
٣- سورة البقرة (الآية ٢٨٢)
٤- سورة النساء (الآية ١٧٦)



(القول الخامس) آخر سورة نزلت (إذا جاء نصر الله والفتح) أخرجه مسلم عن ابن عباس.

(القول السادس) آخر ما نزل سورة المائدة أخرجه الترمذي والحاكم عن عائشة.

(القول السابع) آخر آية ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾[1] أخرجه البخاري عن ابن عباس.

(القول الثامن) آخر ما نزل آية ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ﴾[2] - إلى آخر الآية- وهو مروي عن أم سلمة.

(القول التاسع) آخر آية نزلت ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾[3] -إلي آخر السورة- وهو مروي عن أبي بن كعب.

هذه هي الأقوال والآثار التي وردت مؤيدة لها، وهي بحسب الظاهر متعارضة، ولبيان الجمع بينها نقول: قد علمت مما سبق أن ما ورد في آية الربا والدين لا تنافي فيه، لأنها نزلت دفعة واحدة طبق ترتيبها في المصحف، والظاهر أنها آخر ما نزل علي الاطلاق، لكثرة الآثار الواردة فيها وقوتها، وأما الأقوال الأخري فيحمل كل قول منها علي آخرية مخصوصة مقيدة.

فيقال: إن آية (ويستفتونك) آخر ما نزل في شأن المواريث، وآية (ومن يقتل مؤمنا متعمدا) آخر ما نزل في شأن القتل، وآية (فاستجاب لهم) آخر ما نزل فيه تصريح بذكر النساء، وسورة «إذا جاء نصر الله والفتح» آخر ما نزل مشيرا إلي وفاة النبى ﷺ، وآية «لقد جاءكم رسول من أنفسكم» آخر ما نزل من سورة براءة «وسورة براءة» آخر ما نزل في شأن القتال ولم يطرأ عليه نسخ، وسورة المائدة اخر ما نزل من الحلال والحرام ولم يطرأ عليه نسخ، بدليل قول السيدة عائشة فما وجدتم فيها من حلال فأحلوه، هذه طريقة الجمع والتوفيق بين ما رجحناه من أن آخر ما نزل آية الربا والدين وبين ما ورد من الآثار الأخرى.

١- سورة النساء (الآية ٩٣)

٢- سورة آل عمران (الآية ١٩٥)

٣- سورة التوبة (الآية ١٢٨:١٢٩)



وقال القاضي أبو بكر في الانتصار: هذه الأقوال ليس فيها شئ مرفوع إلي النبي ﷺ وكل قاله بضرب من الاجتهاد وغلبة الظن ويحتمل أن كلا منهم أخبر عن آخر ما سمعه عن النبي ﷺ في اليوم الذي مات فيه، أو قبل مرضه بقليل وغيره سمع منه بعد ذلك، وإن لم يسمعه هو... ويحتمل أيضا أن تنزل هذه الآية التي هي آخر آية تلاها الرسول صلي الله عليه وسلم مع آيات نزلت معها فيؤمر برسم ما نزل معها فيظن أنه آخر ما نزل في الترتيب . اهـ نقله فى الاتقان.

وقد استشكل علي جميع الأقوال السابقة بأن قوله تعالي ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾[1] نزل بعرفة عام حجة الوداع، وظاهره إتمام جميع الفرائض والأحكام والحلال والحرام قبلها فيكون ذلك آخر ما نزل مع أن أكثر الأقوال السابقة يقتضي نزول أحكام وحلال وحرام بعدها مثل ما ورد في آية الربا والدين وآية الكلالة، وآية القتل وسورة المائدة وسورة براءة وقد أجاب عن هذا الإشكال ابن جرير وقال: الأولي أن يتأول - يعني قوله تعالي: «اليوم أكملت لكم دينكم» - علي أنه أكمل لهم دينهم بإقرارهم في البلد الحرام وإجلاء المشركين عنه حتي حجه المسلمون لا يخالطهم المشركون.

ثم أيده بما أخرجه من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس قال: كان المشركون والمسلمون يحجون جميعا فلما نزلت براءة نفي المشركون عن البيت وحج المسلمون لا يشاركهم في البيت الحرام أحد من المشركين فكان ذلك من تمام النعمة «وأتممت عليكم نعمتي»، اهـ وعلي هذا فلا تكون هذه الآية منافية لما قيل إنه آخر ما نزل.

* * *

١- سورة المائدة (الآية ٣)

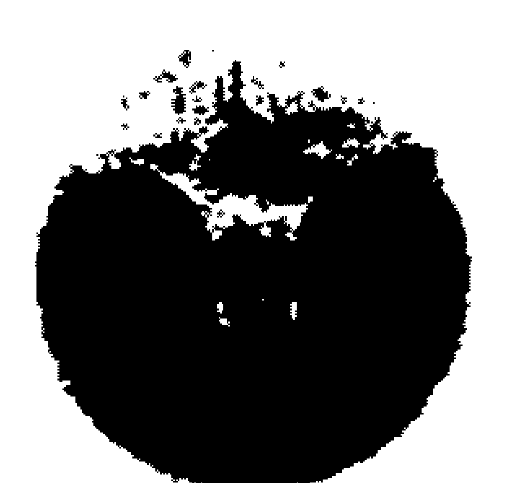


المبحث الثالث

أسباب النزول

- فائدة معرفة أسباب النزول
- طريق معرفة سبب النزول
- تعدد الروايات في سبب النزول
- تعدد المنزل مع كون السبب واحدا
- عموم اللفظ وخصوص السبب

أسباب النزول



«سبب النزول» معناه هو ما نزلت الآية أيام وقوعه متضمنة له أو مبينة لحكمه.

قولنا «ما نزلت الآية» أي حادثة أو واقعة، أو سؤال، مثل: آيات الظهار واللعان والخمر، وآيات الروح، والساعة وذي القرنين وغيرها، فإن آياتها نزلت «متضمنة» أي مشتملة» عليها أيام وقوعه، أي في إبان حدوثها.

فخرج بذلك ما تضمنته الآية بعد أيام وقوعه، كالآيات المشتملة على قصص الأنبياء السابقين وأممهم فإن هذه القصص لا تعتبر أسباب نزول وإنما هي أخبار عن حوادث سابقة، دعا إلى ذكرها مقامات وكذا الآيات المتضمنة لأمور مستقبلية كالآيات المتضمنة لاحوال اليوم الآخر وما فيه فإن ما تضمنته لا يعتبر سبب نزول، وكذلك الآيات الإخبارية، أو المتضمنة لأحكام إنشائية فليس لها أيضا سبب نزول، وعلى هذا فالقرآن الكريم من حيث نزوله على قسمين:

(أولهما) ما نزل ابتداء غير مبني على سبب من سؤال أو حادثة

(ثانيهما) ما نزل مبنيا على سبب من سؤال أو حادثة، والسؤال أو الحادثة التي نزلت الآية متضمنة له أيام وقوعه، هو المعبر عنه بسبب النزول وقد عرفت معناه.

فائدة معرفة سبب النزول

الفائدة الأولى: الوقوف على معنى الآية وإزالة الإشكال وقد قال الواحدي لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها، وقال ابن دقيق العيد: بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن، وقال ابن تيمية معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب ولنذكر أمثلة كان معرفة السبب فيها عونا على فهم المراد من القرآن وزوال الإشكال.



منها- أن مروان ابن الحكم قد أشكل عليه معنى قوله تعالى ﴿لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا﴾[1] الآية وقال لئن كان كل امرئ فرح بما أوتى وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذبا، لنعذبن أجمعين، حتى بين له ابن عباس أن الآية نزلت فى أهل الكتاب، حين سألهم النبى ﷺ عن شئ فكتموه إياه وأخبروه بغيره، وأروه أنهم أخبروه بما سألهم عنه، واستحمدوا بذلك إليه أخرجه الشيخان.

«ومنها» أنه أشكل على بعض الأئمة معنى الشرط فى قوله تعالى ﴿وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ﴾[2] وتوهم أن اليائسة لا عدة عليها فلما عرف السبب وهو أنه لما نزلت الآية التى فى سورة البقرة في عدد النساء قالوا قد بقي عدد من عدد النساء لم يذكرن، الصغار والكبار، فنزلت أخرجه الحاكم عن أبى فعلم بذلك أن الآية خطاب لمن لم يعلم حكم عدة اليائسات من النساء وارتاب هل عليهن عدة أولا، وهل عدتهن كما ذكر فى سورة البقرة أولا، فمعنى الشرط «وهو إن ارتبتم» إن أشكل عليكم حكمهن وجهلتم كيف يعتدون فهذا حكمهن.

(ومنها) أن عروة بن الزبير فهم عدم فرضية السعى بين الصفا والمروة فهما من ظاهر قوله تعالى ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾[3] فإن الآية نفت الجناح (الإثم) وهذا لا يقتضى الفرضية بظاهره حتى ردت عليه السيدة عائشة رضى الله عنها وبينت له سبب نزولها وهو أن الصحابة تأثموا من السعى بينهما لأنه من عمل الجاهلية ا هـ.

أى فقد نزلت الآية لنفى ما توهموا وهو الإثم على من سعى بينهما.

فهذه الأمثلة وكثير غيرها تدل على أن لمعرفة سبب النزول أثرا كبيرا فى معرفة المعنى وبذلك ترتفع إشكالات كثيرة وتزول أوهام باطلة ولولا معرفة السبب لظلت راسخة ومن هنا كانت عناية السلف بمعرفة أسباب النزول عظيمة.

١- سورة آل عمران (الآية ١٨٨)

٢- سورة الطلاق (الآية ٤)

٣- سورة البقرة (الآية ١٥٨)



(الفائدة الثانية) معرفة وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم فإن ذلك قد يعرف من سبب النزول وذلك مثل سبب نزول قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾[1] وسبب نزول قوله تعالى في سورة الأحزاب ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً ﴾[2] فإن الحكمة في الأولى دفع التخليط في الصلاة قراءة وأفعالا، والحكمة في الثانية ذكرها الله بقوله «لكي لا يكون على المؤمنين حرج» إلخ.

(الفائدة الثالثة) تخصيص الحكم بصورة السبب عند من لا يلتفت إلى عموم اللفظ، فهذا لابد له من معرفة السبب، حتى يجعل الحكم مقصوراً عليه، أي المستفاد من الآية وأما حكم غيره فهو ثابت بالقياس عنده، فلو لم يعرف السبب لا يخص به الحكم ولا يمكنه أن يقيس عليه مثل آية الظهار وغيرها.

(الفائدة الرابعة) معرفة بقاء صورة السبب قطعا وعدم إخراجها من العام بالتخصيص في حالة ما إذا قام الدليل على تخصيص العام فإنه متى عرف السبب علم أن حكمه باق قطعا، وأن التخصيص لم يتناوله، وأن الذى خرج من العام هو ماعداه ولو لم يعرف سبب النزول لتوهم أنه ضمن ما خرج بالتخصيص مع أن ذلك مخالف للاجماع.

(الفائدة الخامسة) معرفة من نزلت فيه الآية وتعيين المبهم فيها ولذلك أمثلة فى القرآن كثيرة.

* * *

١- سورة النساء (الآية ٤٣)

٢- سورة الأحزاب (الآية ٣٧)



طريق معرفة سبب النزول



طريق العلم بسبب النزول الرواية الصحيحة، قال الواحدى فى كتابه أسباب النزول: ولا يحل القول فى أسباب نزول الكتاب إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل ووقفوا على الأسباب وبحثوا عن عللها وجدوا فى الطلب. ا هـ

ومعرفة سبب النزول أمر يحصل للصحابة بقرائن تحتف بالقضايا وربما لم يجزم بعضهم فقال أحسب هذه الآية نزلت فى كذا.

وقد قرر ابن الصلاح والحاكم وغيرهما فى علوم الحديث أن الصحابى الذى شهد الوحى والتنزيل إذا أخبر عن آية أنها نزلت فى كذا فإنه حديث مسند أى لأن قول الصحابى فيما لا مجال للرأى والاجتهاد فيه، بل عمدته النقل والسماع محمول على سماعه من النبى ﷺ لأنه يبعد جدا أن يقول ذلك من تلقاء نفسه لذا قرروا: إن رواية الصحابى فيما كان من هذا النوع كأسباب النزول والناسخ والمنسوخ وتعيين بعض مبهمات القرآن، لها حكم المرفوع.

وأما قول التابعى فى ذلك فهو مرسل، فإذا اعتضد بمرسل آخر، وكان الراوى له من أئمة التفسير قبل، وقد ذكرنا مثل ذلك فى بحث التفسير بالمأثور، ولا يجوز القول فى سبب النزول بغير علم، روى الواحدى بسنده عن ابن عباس قال.. قال رسول الله ﷺ «اتقوا الحديث إلا ما علمتم فإنه من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار ومن كذب على القرآن من غير علم فليتبوأ مقعده من النار» ثم قال: والسلف الماضون رحمهم الله كانوا من أبعد الغاية احترازاً عن القول فى نزول الآية وروى أيضا عن محمد بن سيرين قال: سألت عبيدة عن آية من القرآن فقال اتق الله وقل سدادا، ذهب الذين يعلمون فيم أنزل القرآن.

فهذا كله وعيد لمن يقول فى أسباب النزول وهو غير واثق مما يقول.



عبارات الرواة فى سبب النزول على ضربين

(أحدهما) قولهم «سبب نزول هذه الآية كذا» وهذه العبارة نص فى بيان السبب.

(الثانية) قولهم «نزلت هذه الآية فى كذا» وهذه ليست نصا فى بيان السبب بل هى محتملة لأن يكون المراد بها بيان ما تضمنته الآية من الحكم ولأن يكون المراد بها بيان سبب النزول

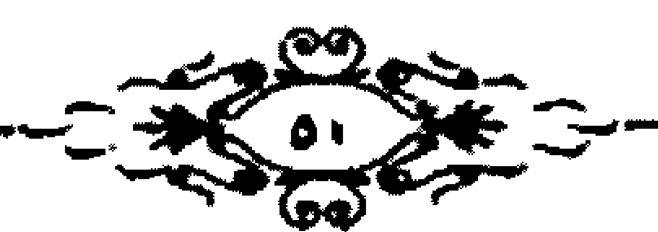
بيان تعدد الرويات فى سبب النزول

لتعدد الروايات فى أسباب النزول أحوال:

(أحدها) أن يقول راويان أو أكثر نزلت هذه الآية فى كذا، وكل يقول غير ما يقوله الآخر، وقد تقدم أن هذه العبارة ليست نصا فى بيان السبب فيراد بها التفسير وبيان الحكم فإذا كان اللفظ يحتمل قول كلٍ حمل على الجميع ولا منافاة وإلا تعين ما يقتضيه اللفظ أو تؤيده الأدلة.

(ثانيها) أن يقول أحدهما نزلت فى كذا، ويقول الآخر سبب نزول هذه الآية كذا، فالعبارة الثانية نص فى بيان السبب عليها المعتمد فى ذلك، وأما الأولى فلا يعول عليها حينئذ فى بيان السبب، ومثال ذلك ما رواه البخارى عن ابن عمر قال: أنزلت ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾[1] فى اتيان النساء فى أدبارهن» أى فى تحريم ذلك ولاشك أن هذا من ابن عمر استنباط لبيان الحكم وأما ما رواه مسلم عن جابر قال (كانت اليهود تقول من أتى امرأة من دبرها فى قبلها جاء الولد أحول) فأنزل الله (نساؤكم حرث لكم) الآية فإنه صريح فى ذكر السبب فكان هو المعتمد فى ذلك وهاتان الحالتان لم يصرح فيهما كل منهما أو أحدهما بالسببية.

١- سورة البقرة (الآية ٢٢٣)



أما أن يذكر كل من الراويين أو أكثر سببا غير الذى يذكره الآخر ويصرح بذكر السببية ففى هذه الحالة إما أن يستوى الإسنادان فى الصحة أو لا، وفى حالة الاستواء إما أن يمكن الترجيح بينهما أو لا، وفى حالة عدم إمكان الترجيح إما أن يمكن نزول الآية عقب السببين أو لا. فههنا أربعة أحوال:

١- عدم استواء الإسنادين فى الصحة.

٢- استواؤهما مع إمكان الترجيح بينهما.

٣- استواؤهما مع عدم إمكان الترجيح بينهما ومع إمكان نزول الآية عقب كل منهما

٤- استواؤهما مع عدم إمكان الترجيح وعدم إمكان نزول الآية عقب كل منهما فهذه أربع حالات نبين حكم كل منها مع التمثيل لها:

الأولى أن يذكر راوٍ سببا ويذكر الآخر سببا غيره وإسناد أحدهما صحيح والآخر ليس صحيحا فالصحيح هو المعتمد فى بيان السبب «مثاله» ما أخرجه الشيخان وغيرهما عن جندب «اشتكى النبى ﷺ فلم يقم ليلة أو ليلتين فأتته امرأة فقالت يا محمد ما أرى شيطانك إلا قد تركك فأنزل الله «والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى» وما أخرجه الطبرانى وابن أبى شيبة عن حفص بن ميسرة عن أمه عن أمها وكانت خادمة رسول الله صلى الله عليه وسلم «أن جرواً دخل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل تحت السرير فمات فمكث رسول الله ﷺ أربعة أيام لا ينزل عليه الوحى فقال يا خولة ما حدث فى بيت رسول الله ﷺ.. جبريل لا يأتينى.. فقلت فى نفسى لو هيأت البيت وكنسته.. فأهويت بالمكنسة تحت السرير فأخرجت الجرو.

فجاء النبى ﷺ ترعد لحيته وكان إذا نزل عليه الوحى أخذته، الرعدة فأنزل الله «والضحى» إلى قوله «فترضى» فهذان إسنادان كل منهما ذكر سببا للنزول غير ما ذكره الآخر والإسناد الأول هو الصحيح لذا كان هو المعتمد، وقد قال ابن حجر فى شرح البخارى قصة إبطاء جبريل بسبب الجرو مشهورة لكن كونها سبب نزول الآية غريب وفى إسناده من لا يعرف فالمعتمد ما فى الصحيح.

(الحالة الثانية) أن يستوى الإسنادان فى الصحة مع تعدد السبب ويمكن ترجيح أحدهما على الآخر بوجه من وجوه الترجيح فالراجح هو السبب «مثاله»

ما أخرجه البخارى عن ابن مسعود قال «كنت أمشى مع النبى ﷺ وهو يتوكأ على عسيب، فمر بنفر من اليهود فقال بعضهم لو سألتموه فقالوا: حدثنا عن الروح فقام ساعة ورفع رأسه فعرفت أنه يوحى إليه حتى صعد الوحي ثم قال ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾[1] وما أخرجه الترمذى وصححه عن ابن عباس قال: قالت: قريش لليهود أعطونا شيئا نسأل هذا الرجل.

فقالوا اسألوه عن الروح فسألوه فأنزل الله «ويسألونك عن الروح» الآية، فالإسناد الأول أن السؤال كان فى غير مكة وأن السائل اليهود. والإسناد الثاني يقتضى أن السؤال كان فى مكة وأن السائل قريش بعد الاستفهام من اليهود. والإسنادان صحيحان ويرجح الأول بوجهين «أحدهما» أنه رواية البخارى وهى أرجح من رواية الترمذى و«ثانيهما» أن الراوى فى الإسناد الأول وهو ابن مسعود كان حاضر القصة لأنه يقول «كنت أمشى مع النبى ﷺ إلخ» بخلاف الراوى في الإسناد الثاني وهو ابن عباس فإنه لم يكن حاضرا القصة وحضور الراوى للقصة مرجح لروايته على غيره.

(الحالة الثالثة) أن يستوى الإسنادان فى الصحة ولا مرجح لأحدهما ويمكن الجمع بينهما والأخذ بهما بأن لا يكون بينهما تباعد فيحمل ذلك على تعدد الأسباب لآية واحدة ولا مانع متى كانت الآية مفيدة لحكم السببين «ومثاله» ما أخرجه البخارى من طريق عكرمة عن ابن عباس «أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبى ﷺ بشريك بن سمحاء فقال النبى ﷺ البينة أو حد فى ظهرك فقال يا رسول الله إذا وجد أحدنا مع امرأته رجلا ينطلق يلتمس البينة فأنزل عليه ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾[2] حتى بلغ «إن كان من الصادقين»، وما أخرجه الشيخان عن سهل بن سعد قال جاء عويمر إلى عاصم بن عدى فقال اسأل رسول الله ﷺ أرأيت رجلا وجد مع امرأته رجلا يقتله أيقتل به، أم كيف يصنع؟ فسأل عاصم رسول الله ﷺ فعاب السائل فأخبر عاصم عويمرا فقال: والله لآتين رسول الله عليه وسلم فلأسألنه، فأتاه فقال: إنه نزل فيك وفى صاحبتك قرآن ...»

١- سورة الإسراء (الآية ٨٥) ٢- سورة النور (الآية ٦)



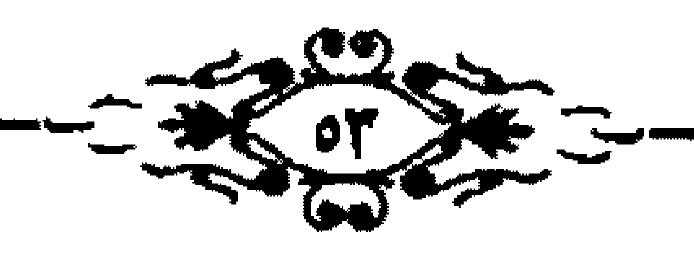
فهذان الإسنادان صحيحان ولا مرجح لأحدهما عن الآخر ويمكن الأخذ بهما معا ويحمل ذلكم على أن أول من سأل هلال بن أمية وصادف مجيء عويمر قبل إجابته، فنزلت الآية في شأنهما معا مبينة لحكم الحادثة التي وقعت لكل منهما وهي من نوع واحد ولا مانع من ذلك.

(الحالة الرابعة) أن يستوى الإسنادان في الصحة ولا مرجح لأحدهما ولا يمكن الجمع بينهما والأخذ بهما معا، فيحمل ذلك على تكرر نزول الآية الواحدة عقب كل من السببين أو الأكثر، ولا مانع من تكرر النزول تعظيما لشأن المنزل وتذكيرا به عند حدوث سببه حتى لا ينسى «ومثاله» ما أخرجه البيهقي والبزار عن أبي هريرة أن النبي ﷺ وقف على حمزة حين استشهد وقد مثل به فقال لأمثلن بسبعين منهم مكانك فنزل جبريل والنبي ﷺ واقف بخواتيم سورة النحل ﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به﴾ إلى آخر السورة .

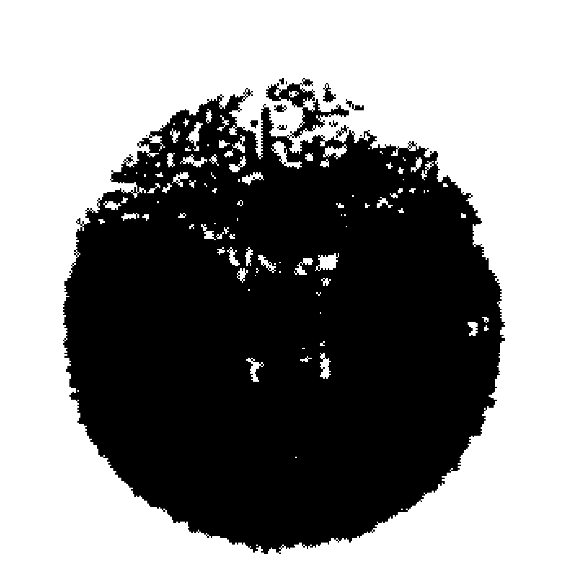
وما أخرجه الترمذي والحاكم عن أبي بن كعب «قال لما كان يوم أحد أصيب من الأنصار أربعة وستون ومن المهاجرين ستة منهم حمزة فمثلوا بهم فقالت الانصار لئن أصبنا منهم يوما مثل هذا لنربين عليهم، فلما كان يوم فتح مكة أنزل الله ﴿وإن عاقبتم﴾ الآية.

فالرواية الأولى تقتضى أن هذه الآية نزلت يوم أحد والثانية تقتضى أنها نزلت يوم الفتح وقد ثبت أن سورة النحل كلها مكية بما فيها هذه الآية فيحمل على أن هذه الآية نزلت ثلاث مرات أولا بمكة قبل الهجرة ثم ثانيا يوم أحد ثم ثالثا يوم الفتح تذكيرا من الله لعباده وتعظيما لشأن ما تضمنته وتمكينا لروح العدل من نفوسهم حتى في حالة ظفرهم بعدوهم وظهورهم وذلك من كمال عناية الله بعباده المؤمنين وحسن تأديبهم وتهذيبهم.

فحاصل ما تقدم فى تعدد السبب ستة أحوال أربعة منها مصرح فيها بذكر السبب فى كل من الإسنادين وهي الأربعة الأخيرة وواحدة لم يكن فى إسناديها تصريح بذكر السبب وهى الأولى قبل الأربعة وواحدة صرح فيها بذكر السبب فى أحد الإسنادين دون الآخر وهى الحالة الثانية قبل الأربعة وقد علمتم حكم كلٍ بالتفصيل.



تعدد المنزل مع كون السبب واحدا



قد تنزل آيات متعددة متفرقة ويكون السبب لها جميعها واحدا ولا مـانع من ذلك لأن الواقـعـة الواحـدة قد ينزل فـيـهـا آيات عديدة في سور شتى «مثال ذلك» ما أخرجه الترمذي والحاكم عن أم سلمة أنها قالت: يا رسول لا أسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء فانزل الله ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾[1] وما أخرجه الحاكم عنها أيضا: قالت: قلت: يا رسول الله تذكر الرجال ولا تذكر النساء فأنزلت:

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾[2] وأنزلت ﴿أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى﴾ فهاتان آيتان متفرقتان نزلتا لسبب واحد، وهو كلام السيدة أم سلمة رضي الله عنها ولا مانع من ذلك كما تقدم ملخصا من الإتقان وغيره مع بعض إيضاح.

* * *

١- سورة آل عمران (الآية ١٩٥)



٢- سورة الأحزاب (الآية ٣٥)

آراء العلماء فى عموم لفظ الآية إذا كان سببها خاصا



هذا البحث قد عنى به علماء الأصول عناية تامة لأنهم ينظرون فى حالة الدليل من عموم وخصوص وإطلاق وتقييد وغير ذلك ومنشأ خلافهم فى اعتبار عموم لفظ الآية مع خصوص السبب، أن بعضهم نظر إلى عموم اللفظ من حيث هو بقطع النظر عن السبب الخاص فأجرى له حكم العام وبعضهم نظر إلى أن السبب مخصص للفظ الآية العام، وقبل تفصيل الخلاف والأدلة نذكر أحوال كل من السبب واللفظ النازل عليه من عموم وخصوص، فنقول:

القسمة العقلية تقتضى أربع صور وهى:

١- أن يكون كل من السبب واللفظ عاما.

٢- أن يكون كل منهما خاصا وهذا القسمان ليس محل خلاف بين العلماء لأن المطابقة حاصلة بين السبب الذى هو بمنزلة السؤال وبين اللفظ المنزل عليه الذى هو بمنزلة الجواب له.

٣- أن يكون السبب عاما واللفظ خاصا، وهذا القسم وإن صح عقلا لكنه لا يصح بلاغة لعدم وجود التطابق بين السؤال والجواب لأن الجواب حينئذ يكون غير شامل لأفراد السبب فيكون بمنزلة من يقول: هل للمسلمين أن يفعلوا كذا فيجاب بأن لفلان أن يفعل كذا ويترك حال الباقين.

٤- أن يكون اللفظ عاما والسبب خاصا وقد اختلف العلماء فى هذا القسم فذهب «الجمهور» إلى أن العبرة بعموم اللفظ ولا نظر إلى خصوص السبب بمعنى أنه متى كان لفظ الآية عاما وكان سبب نزولها خاصا كانت العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب «مثل» حادثة هلال ابن أمية التى نزل عليها



قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ.... إلخ ﴾[1] ومثل حادثة الإفك التى نزل عليها قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ.... إلخ ﴾[2] فإن كلا من الحادثين خاص ولفظ الآية الذى نزل على كل منهما عام لأنه اسم موصول وهو من ألفاظ العام وعلى هذا فيكون حكم الأفراد التى تناولها اللفظ جميعا مستفادا من لفظ الآية سواء فى ذلك الفرد الخاص الذى فى صورة السبب وغيره، فحكم اللعان الثابت لهلال بن أمية الذى هو سبب النزول، ثابت لغير هلال من كل ما ينطبق عليه لفظ الآية فحكم الجميع ثابت بالنص ولا يحتاج إلى اجتهاد.

وذهب غير الجمهور إلى أن العبرة بخصوص السبب بمعنى أن الحكم خاص بصورة السبب وهو هلال بن أمية فهو المستفاد من الآية وأما حكم غيره فليس مستفادا من النص بل هو ثابت بالقياس والاجتهاد.

ومحل هذا الخلاف مالم تقم قرينة أو دليل على أن الحكم المستفاد من الآية قاصر على السبب الذى نزل عليه الآية فإذا قامت قرينة أو دليل على ذلك فإن الحكم يكون قاصرا على السبب.

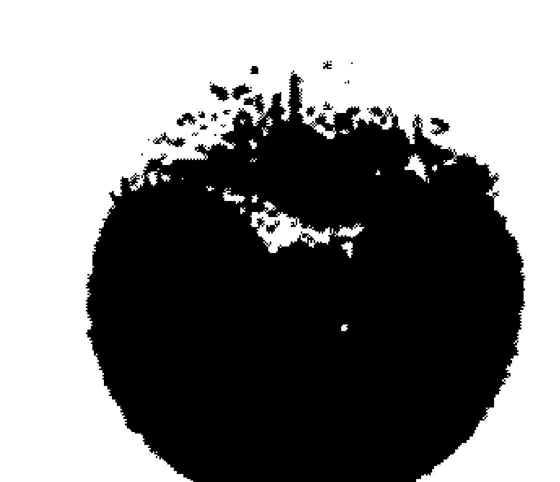
* * *


١- سورة النور (الآية ٦)

٢- سورة النور (الآية ١١)



أدلة الفريقين



استدل الجمهور على ما ذهبوا إليه بما يأتى:

«أولا» احتجاج الصحابة وغيرهم فى وقائع بعموم آيات نزلت على أسباب خاصة وهذا شائع ذائع بينهم ومن ذلك اتفاقهم على تعدية آية الظهار وآية اللعان وآيات القذف وآية السرقة إلى غير أسبابها الخاصة ولم يحتاجوا إلى اجتهاد أو قياس، فدل ذلك على أن العبرة عندهم بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

«ثانيا» لو لم تكن العبرة بعموم اللفظ، للزم استعمال اللفظ العام فى الخاص وصرفه عن ما وضع له بغير قرينة مانعة من العموم لكن اللازم باطل لأنه خلاف الأصل.

ولقائل أن يقول: إن خصوص السبب مانع من حمل اللفظ على العموم فهو قرينة صادقة ولكن يدفع هذا القول بأن مجرد خصوص السبب لا يستلزم إخراج غير السبب من متناول اللفظ العام فلا يصلح أن يكون صارفا عن استعمال اللفظ العام فى معناه الموضوع له وهو جميع أفراده التى منها صورة السبب وغيره لأن القرينة الصارفة سواء كانت معنوية أو لفظية لابد أن تكون مع اللفظ المصروف عن معناه.

وحاصل هذا الدليل أنه لو كانت العبرة بخصوص السبب لكان اللفظ العام مستعملا على خلاف الأصل وهو باطل ويكون لا فائدة من إيراده عاما حينئذ بل يكون إيراده عاما موهما، وهذا كله باطل، وبهذا ثبت أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

استدل غير الجمهور على ما ذهبوا إليه بما يأتى:

«الدليل الأول»: لو كانت العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب لجاز إخراج صورة السبب بالتخصيص لكن التالى باطل وجه الملازمة: إن اللفظ العام يجوز إخراج أى صورة منه بالتخصيص لا فرق بين صورة وأخرى وحينئذ فتكون صورة السبب كغيرها فى جواز إخراجها من لفظ العام.



وأما وجه بطلان التالي فلأن الإجماع منعقد على عدم جواز إخراج صورة السبب من العام وحينئذ فليست العبرة بعموم اللفظ بل بخصوص السبب.

«ويجاب عن هذا الدليل» بأن عدم جواز إخراج صورة السبب إنما جاء من دليل آخر وهو الإجماع لا من جهة كونه غير عام والدليل إنما يتم لو أن عدم جواز إخراج صورة السبب جاء من جهة كونه غير عام وما هنا ليس كذلك بل جاء من جهة دليل آخر لا من جهة خصوص اللفظ وعلى هذا فالملازمة باطلة فبطل هذا الدليل ولم يثبت به أن العبرة بخصوص السبب.

«الدليل الثاني» من أدلة غير الجمهور لو كانت العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب لما كان لذكر السبب فائدة مع أنهم بالغوا في بيانه وتدوينه وحفظه لكن التالي وهو عدم الفائدة في ذكره باطل.

ويدفع هذا الدليل بمنع انتفاء الفائدة مطلقا لأنه لا يلزم من نفي الفائدة المعينة وهي تخصيص السبب بالحكم نفي الفائدة المطلقة بل لذكر السبب فوائد أخرى قد أشرنا إليها في أول بحث الأسباب «منها» منع تخصيصه بالاجتهاد «ومنها» الاستعانة على تفسير معنى الآية وغير ذلك فليست فائدة ذكر السبب محصورة في تخصيص الحكم به.

«الدليل الثالث» لو لم تكن العبرة بخصوص السبب لحنث من قال والله لا تغديت، جواباً لمن قال له: تغد عندي إذا تغدى عند غيره لكنه لا يحنث.

بيان الملازمة أنه لو لم تكن العبرة بخصوص السبب لشمل قوله والله لا تغديت التغدي عند المخاطب وعند غيره فيحنث إذا تغدى عند غيره وقد قالوا إنه لا يحنث فدل ذلك على أنهم اعتبروا خصوص السبب.

والجواب عن هذا الدليل أنه يتم لو كان عدم الحنث ناشئا من اعتبار خصوص السبب وليس كذلك بل عدم الحنث بسبب ملاحظة العرف الخاص الذي يقضي بأن الحالف في مثل ذلكم إنما أراد عدم التغدي عند مخاطبه لا عند كل أحد فيكون العرف قرينة على إرادة خصوص السبب وكلامنا فيما لم تقم فيه قرينة، فليست هذه الصورة من محل النزاع فلم يصح هذا الدليل ولم يثبت به المدعى.



«الدليل الرابع» لو لم تكن العبرة بخصوص السبب بل بعموم اللفظ لكان اللفظ الذي هو بمنزلة الجواب غير مطابق للسبب الذى هو بمنزلة السؤال لأن السؤال حينئذ يكون خاصا والجواب يكون عاما وعدم المطابقة باطل لأنه ينافى مقاصد بلاغة القرآن.

ويجاب عن هذا الدليل أيضا بأننا نمنع الملازمة إذ المطابقة حاصلة لزيادة الجواب عن السؤال والزيادة لا تخرجه عن المطابقة لأنها عبارة عن تناول الجواب لما تناوله السؤال ولو زاد الجواب، نعم لو كان الجواب خاصا والسؤال عاما لما كانت بينهما مطابقة فهذا الدليل أيضا لم يتم فلم يثبت به المدعى.

وإذ قد بطلت أدلة غير الجمهور وثبتت أدلة الجمهور وكان رأيهم وهو أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب هو المعتمد ثم إننا قد أشرنا فى أول هذا البحث إلى أن الكل قائل بعموم الحكم لغير صورة السبب وأنه متعد إليه غير أن الجمهور يقولون بأن العموم مستفاد من النص وأما غير الجمهور فيقول إن حكم غير صورة السبب ثابت بالقياس على صورة السبب فليس هناك من يقول إن حكم اللعان مثلا أو الظهار قاصر على صورة سببه وهو من نزل فيه لا يتعداه إلى غيره بل الجميع يقول بأن الحكم شامل ومتعد على الوجه الذى ذكرناه.

ويظهر أن فائدة الخلاف حينئذ هى أن حكم غير صورة السبب يكون ثابتا بالنص الذى هو قطعي الثبوت وعند غيره يكون ثابتا بالقياس وهو ظنى لكن إن تأيد بإجماع فيكون قطعيا به فتنبه لذلك.

ولهذا قال ابن تيمية ما نصه: قد يجيء كثيرا من هذا الباب قولهم هذه الآية نزلت فى كذا لاسيما إن كان المذكور شخصا كقولهم إن آية الظهار نزلت فى امرأة ثابت بن قيس، وإن آية الكلالة نزلت فى جابر بن عبد الله وإن آية ﴿وأن أحكم بينهم بما أنزل الله﴾ نزلت فى بنى قريظة والنضير ونظائر ذلك مما يذكرون أنه نزل فى قوم من المشركين بمكة أو فى قوم من اليهود والنصارى أو فى قوم من المؤمنين.

فالذين قالوا ذلك لم يقصدوا أن حكم الآية يختص بأولئك الأعيان دون غيرهم



فإن هذا لا يقوله مسلم ولا عاقل على الإطلاق والناس وإن تنازعوا في اللفظ العام الوارد على سبب هل يختص بسببه فلم يقل أحد إن عمومات الكتاب والسنة تختص بالشخص المعين وإنما غاية ما يقال إنها تختص بنوع ذلك الشخص فتعم ما يشبهه ولا يكون العموم فيها بحسب اللفظ .

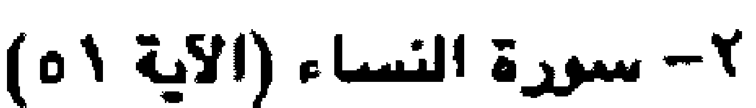
والآية التي لها سبب معين إن كانت أمرًا أو نهيا فهي متناولة لذلك الشخص ولغيره ممن كان بمنزلته.ا هـ .

فائدتان:

الأولى: قد تقدم أنه متى كان كل من السبب واللفظ خاصا كان الحكم قاصرا على ذلك الخاص «مثال ذلك» قوله تعالى ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴾[1] فإنها نزلت في أبي بكر رضي الله عنه واللفظ فيها وهو «الأتقى» خاص لأنه أفعل تفضيل مقرون بأل العهدية فيختص بمن نزل فيه وقد استدل الإمام فخر الدين الرازي بهذه الآية مع قوله تعالى ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ على أن أبا بكر أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ وبيان الدليل هكذا: أكرم الناس عند الله بعد رسول الله ﷺ الأتقى والأتقى أبو بكر فالأكرم عند الله بعد الرسول أبو بكر.

الثانية: قد تنزل الآيات على أسباب خاصة فتوضع مع ما يناسبها من الآيات العامة رعاية لنظم القرآن وحسن السياق فيكون ذلك الخاص قريبا من صورة السبب في كونه قطعي الدخول «ومثال ذلك» قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ﴾[2] فإنها نزلت في كعب بن الأشرف ونحوه من علماء اليهود لما قدموا مكة بعد وقعة أحد ليحالفوا قريشا على قتال رسول الله ﷺ فنزل كعب على أبي سفيان فأحسن مثواه ونزلت اليهود في دور قريش فتعاقدوا وتعاهدوا ليجتمعن على قتال محمد، فقال أبو سفيان: إنك تقرأ الكتاب وتعلم ونحن أميون لا نعلم فأينا أهدى سبيلا،

١- سورة الليل (الآية ١٧، ١٨)


٢- سورة النساء (الآية ٥١)



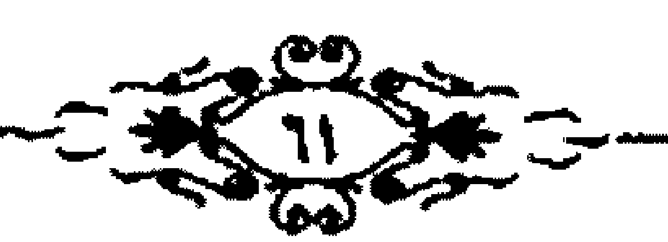
وأقرب إلى الحق نحن أم محمد؟ فقال كعب: أنتم والله أهدى سبيلا مما عليه محمد، وذلك مع علمه بنعت النبى ﷺ المنطبق عليه فى كتابهم وأخذ المواثيق عليه وعلى اليهود ألا يكتموا فكان ذلك أمانة فى أعناقهم لم يؤدوها.

وكان قول كعب ومن معه إن المشركين أهدى سبيلا من محمد خيانة منهم للأمانة التى ائتمنوا عليها فانجر الكلام إلى ذكر جميع الأمانات بقوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾[1] فالآية الأولى خاصة بأمانة مخصوصة وهى صفة رسول الله ﷺ ونعته والآية التى بعدها عامة فى كل أمانة والعام تال للخاص فى الرسم متراخ عنه فى النزول.

ولا يرد تأخر نزول آية الأمانات عن التى قبلها بنحو ست سنين لأن الزمان إنما يشترط فى سبب النزول لا فى المناسبة لأن المقصود منها وضع آية فى موضع يناسبها والآيات كانت تتنزل على أسبابها ويأمر النبى ﷺ بوضعها فى المواضع التى علم من الله أنها مواضعها «وهذا النوع» وهو الذى ينزل على أسباب خاصة ثم يوضع مع ما يناسبه مثل ما ذكرنا قد اختار فيه ابن السبكى أنه رتبة متوسطة دون السبب وفوق التجرد، أى أنه أخذ طرفا من النازل على سبب خاص وهو ظاهر، وطرفا مما نزل على غير سبب من حيث اندراجه تحت العام، وهذا القدر كاف فى بحث الأسباب والله أعلم.

* * *

١- سورة النساء (الآية ٥٨)



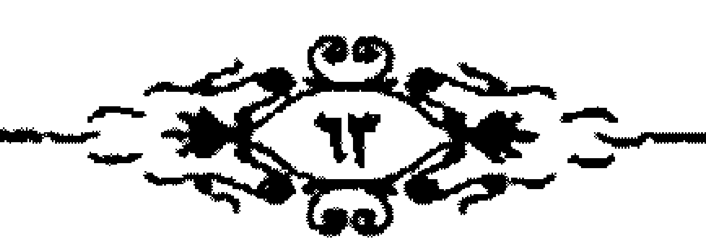


المبحث الرابع
الأحرف السبعة

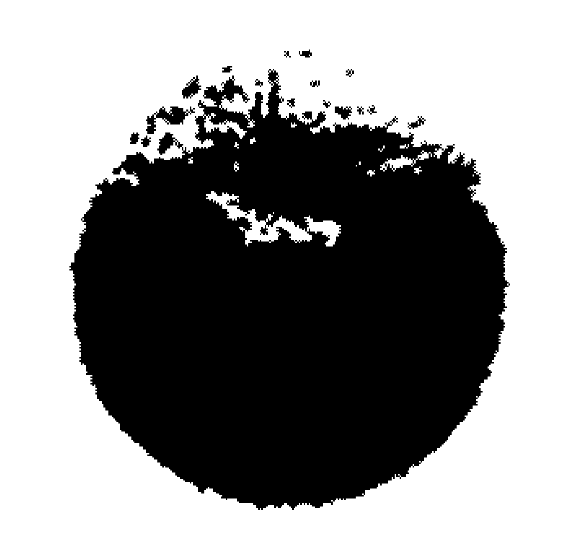


- الروايات الواردة
- أقوال العلماء





الروايات الواردة فى الأحرف السبعة



هذا البحث من الأبحاث التى كثرت فيها أقوال العلماء وأراؤهم بسبب تفسير معنى الأحرف والمراد بها، وحقيقة العدد وبقاء الأحرف للآن أو لا، وقد ورد النقل الصحيح عن رسول الله ﷺ بنزول القرآن على سبعة أحرف وتضافرت روايات كثيرة على ذلك وحكم علماء الحديث بصحة هذه الروايات بل قال بعضهم بتواتر الحديث الوارد بنزول القرآن على سبعة أحرف فقد ورد عن جمع كثير من الصحابة منهم أبى بن كعب، وأنس وحذيفة بن اليمان، وزيد بن أرقم، وسمرة بن جندب، وسلمان بن صرد، وابن عباس وابن مسعود، وعبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن عفان، وعمر بن الخطاب، وعمرو بن أبى سلمة، وعمرو بن العاص، ومعاذ بن جبل، وهشام بن حكيم، وأبو بكرة، وأبو جهم، وأبو سعيد الخدرى، وأبو طلحة الأنصارى، وأبو هريرة، فهؤلاء واحد وعشرون صحابيا وقد نص أبو عبيد على تواتره وأخرج أبو يعلى فى مسنده أن عثمان قال على المنبر: أذكر الله رجلا سمع النبى ﷺ قال: «إن القرآن أنزل على سبعة أحرف كلها شاف كاف» لما قام قال: فقاموا حتى لم يحصوا فشهدوا بذلك فقال: وأنا أشهد معهم.

وسنذكر من الروايات ما ينير لنا الطريق فى معرفة سبب النزول على سبعة أحرف وحكمته وبه يتضح المعنى ويزول الإشكال ثم نتبع ذلك بذكر الأقوال مع بيان الراجح منها والتنبيه على تزييف ماعداه إن شاء الله والله المستعان.

طرف من الروايات على نزول القرآن على سبعة أحرف

١- روى مسلم عن أبى بن كعب: «أن النبى ﷺ كان عند «أضاة غدير» بنى غفار فأتاه جبريل عليه السلام فقال إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرف: فقال أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتى لا تطيق ذلك، ثم أتاه الثانية فقال إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرفين فقال أسأل الله معافاته



ومغفرته وإن أمتى لا تطيق ذلك ثم جاءه الثالثة فقال: إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على ثلاثة أحرف، فقال: أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتى لا تطيق ذلك ثم جاءه الرابعة فقال: إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على سبعة أحرف فأيما حرف قرأوا عليه فقد أصابوا».

٢- روى الترمذى عن أبى بن كعب قال: «لقى رسول الله ﷺ جبريل: فقال يا جبريل إنى بعثت إلى أمة أمية منهم العجوز والشيخ الكبير والغلام والجارية والرجل الذى لا يقرأ كتابا قط فقال يا محمد إن القرآن أنزل على سبعة أحرف» قال هذا حديث حسن صحيح.

٣- روى البخارى ومسلم وغيرهما عن عمر بن الخطاب قال: «سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرؤها وكان رسول الله ﷺ أقرأنيها فكدت أن أعجل عليه، ثم أمهلته حتى انصرف ثم لببته بردائه فجئت به رسول الله ﷺ فقلت يا رسول الله: إنى سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرأتنيها فقال رسول الله ﷺ : أرسله، اقرأ، فقرأ القراءة التى سمعته يقرأ فقال رسول الله ﷺ هكذا أنزلت ثم قال لى إقرأ فقرأت فقال هكذا أنزلت إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف».

٤- روى مسلم عن أبى بن كعب «قال كنت فى المسجد فدخل رجل يصلى فقرأ قراءة أنكرتها عليه ثم دخل آخر فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه فلما قضينا الصلاة دخلنا جميعا على رسول الله صلى الله عليه وسلم: فقلت إن هذا قرأ قراءة أنكرتها عليه. ودخل آخر فقرأ سوى قراءة صاحبه فأمرهما النبى صلى الله عليه وسلم فقرآ فحسن النبى ﷺ شأنهما فسقط فى نفسى من التكذيب ولا إذ كنت فى الجاهلية.

فلما رأى النبى ﷺ ما قد غشينى ضرب فى صدرى ففضضت عرقا وكأنى أنظر إلى الله تعالى فرقا: فقال يا أبى: أرسل إلىّ أن اقرأ القرآن على حرف فرددت إليه أن هون على أمتى فرد إلىّ الثانية أن أقرأه على حرفين فرددت إليه أن هون على أمتى فرد إلى الثالثة أن أقرأه على سبعة أحرف ولك بكل ردة رددتكها مسألة تسألنيها «فقلت اللهم اغفر لأمتى وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلىّ فيه الخلق كلهم حتى إبراهيم عليه السلام».

وقول أبي رضي والله عنه: فسقط في نفسي معناه اعترتني حيرة ودهشة أى أصابته نزغة من الشيطان ليشوش عليه حاله ويكدر عليه وقته فإنه عظم عليه من اختلاف القراءات ما ليس عظيما فى نفسه وإلا فأى شئ يلزم من المحال والتكذيب من اختلاف القراءات ولم يلزم ذلك والحمد لله فى النسخ الذى هو أعظم فكيف بالقراءة.

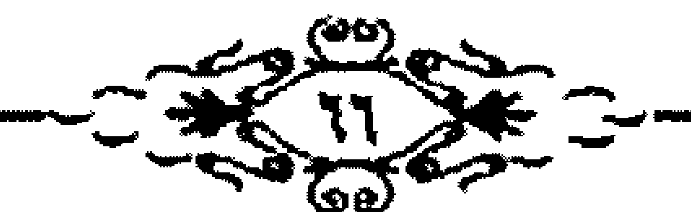
ولما رأى النبى ﷺ ما أصابه من ذلك الخاطر نبهه بأن ضربه فى صدره فأعقب ذلك بأن انشرح صدره وتنور باطنه حتى آل به الكشف والشرح إلى حالة المعاينة، ولما ظهر له قبح ذلك الخاطر خاف من الله تعالى، وفاض بالعرق استحياء من الله تعالى.

٥- أخرج أحمد عن أبى قيس مولى عمرو بن العاص عن عمرو «أن رجلا قرأ آية من القرآن فقال له عمرو: إنما هى كذا وكذا، فذكر ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فقال: إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فأى ذلك قرأتم أصبتم فلا تماروا» إسناده حسن.

٦ـ- روى الطبرى والطبرانى عن زيد بن أرقم «قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :أقرأني ابن مسعود سورة أقرأنيها زيد بن ثابت وأقرأنيها أبى بن كعب فاختلفت قراءاتهم فبقراءة أيهم آخذ؟ فسكت رسول الله ﷺ وعلى إلى جنبه فقال على: ليقرأ كل إنسان منكم كما علم فإنه حسن جميل».

٧- روى ابن حبان والحاكم عن ابن مسعود أنه قال «أقرأني رسول الله ﷺ سورة من آل حم فرحت إلى المسجد فقلت لرجل اقرأها: فاذا هو يقرؤ حروفا ما أقرأها: فقال أقرأنيها رسول الله ﷺ: فانطلقنا إلى رسول الله ﷺ فأخبرناه فتغير وجهه وقال: إنما أهلك من قبلكم الاختلاف، ثم أسر إلى علىّ شيئا» فقال على: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمركم أن يقرأ كل رجل منكم كما علم، قال: فانطلقنا وكل رجل يقرأ حروفا لا يقرؤها صاحبه».

ولنقتصر على ما قدمنا من الروايات وقد ورد غيرها فى هذا المعنى كثير.



وبالنظر فى مجموعها يظهر منها الأصول الآتية وهى:

(أولا) إن الاقتصار على حرف واحد فى أول الأمر فيه حرج على الأمة ومشقة عظيمة فى تلاوة القرآن وتدبر معانيه يدل على ذلك قول النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الأول عن أبى بن كعب ثلاث مرات «أسأل الله معافاته ومغفرته، وإن أمتى لا تطيق ذلك» وفى الحديث الثانى عنه أيضا «يا جبريل إنى بعثت إلى أمة أمية منهم العجوز والشيخ الكبير والغلام والجارية والرجل الذى لا يقرأ كتابا قط».

(ثانيا) تسهيل قراءة القرآن وتدبره بسبب الزيادة إلى سبعة أحرف كما يدل عليه مراجعة النبى ﷺ واستزادته من حرف إلى سبعة أحرف.

(ثالثا) تخيير الأمة فى القراءة بأى حرف من غير أن يوجب عليهم القراءة بحرف خاص بل كل يقرأ بما يعلمه من رسول الله ﷺ، يدل على ذلك قوله فى الحديث الأول المذكور «فأيما حرف قرأوا عليه فقد أصابوا» وقوله فى الحديث الثالث عن عمر «فاقرأوا ما تيسر منه» وقوله فى الحديث الخامس المذكور «فأى ذلك قرأتم أصبتم».

(رابعا) اختلاف قراءة بعض الصحابة رضى الله عنهم يدل على ذلك حديث عمر بن الخطاب مع هشام بن حكيم، وحديث أبى بن كعب مع رجل كان يصلى فى المسجد ورجل آخر، وقد اختلفت قراءاتهم كما فى الحديث الرابع وحديث مولى عمرو بن العاص عن عمرو مع رجل آخر كما فى الحديث الخامس، وما وقع لعبد الله بن مسعود مع آخرين كما فى الحديث السادس، ومع رجل آخر كما فى الحديث السابع.

(خامسا) تصويب النبى ﷺ لقراءة كلٍ وتقريره وأمره لكلٍ أن يقرأ كما علم كما يدل عليه قوله ﷺ فى بعض الروايات بالنسبة لقراءة كل من المختلفين: «هكذا أنزلت» وبالضرورة كان اختلافهم الذى أقره النبى ﷺ فى الألفاظ، لا فى المعانى والأحكام وإلا كان تناقضا لا يصح إقرار كلٍ عليه وذلك كما لو كانت قراءة أحدهما تفيد حلا وقراءة الآخر تفيد حرمة لشئ واحد وهكذا فلا يتصور

الإقرار عليه. هذه هي الأصول التي نأخذها من الروايات السابقة وعلى نهجها نعرض الأقوال التي وردت في معنى الأحرف السبعة فما كان منها موافقا لهذه الأصول قبل وإلا رددناه والله الموفق للصواب.

أقوال العلماء في الأحرف السبعة والمراد بها

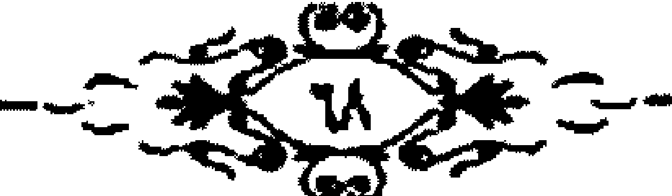
قد ذكر العلماء في ذلك أقوالا كثيرة حتى عدها السيوطي أربعين قولا، وقد اختلف نظر المؤلفين فمن مكثر في سرد الأقوال ومن مقل وقد اقتصر منها القرطبي على خمسة أقوال وافق الطبري على ما اختاره منها وسنذكر أشهر الأقوال في ذلك بعد ضم المتشابهات منها إلى بعض فنقول:

(أولا) ذهب بعض العلماء إلى أن حديث إنزال القرآن على سبعة أحرف مع كثرة رواته مشكل لا يعرف معناه وسبب ذلك أن الحرف يصدق لغة على أربعة معان[1]: حرف الهجاء والكلمة والمعنى والجهة أي فيكون مشتركا لفظيا لا يدرى أي معانيه هو المقصود ويرد هذا القول بأن مجرد الاشتراك اللفظي لا يلزمه الإشكال لأن ذلك يلزم لو لم تقم قرينة تعين بعض المعاني وهنا قامت قرينة تعين بعض المعاني بل قامت قرائن تمنع ما عدا ذلك البعض من المعاني الأخرى وذلك لأنه لا يصح إرادة حرف الهجاء للقرينة الحالية وهي كونه مركبا من جميع حروف الهجاء لا مجرد سبعة ولا يصح إرادة الكلمة أيضا لأن كلماته تعد بالآلاف ولا يصح إرادة المعنى لأن معانيه أكثر من سبعة بالضرورة فلم يبق إلا الجهة وإذن قد بطل القول بالإشكال.

(ثانيا) ذهب بعضهم إلى أنه ليس المراد بالسبعة حقيقة العدد بل المراد التيسير والتسهيل والسعة على الأمة ولفظ السبعة يطلق ويراد به الكثرة في الآحاد كما يطلق السبعون في العشرات والسبعمائة في المئات ولا يراد العدد المعين.

«ورد هذا» بأن كثيرا من الروايات يدل على أن المراد حقيقة العدد وانحصاره في السبعة من ذلك ما رواه النسائي عن رسول الله ﷺ أنه قال:

(١) وتطلق أيضا على الطرف وحد السيف وذروة الجبل والناقة الضعيفة وعلى الآية والسورة وكلها لايتوهم إرادتها هنا لذا لم نذكرها.



«إن جبريل وميكائيل أتياني فقعد جبريل عن يميني وميكائيل عن يساري فقال جبريل اقرأ القرآن على حرف فقال ميكائيل استزد حتى بلغ سبعة أحرف» وفي حديث أبي بكرة «فنظرت إلى ميكائيل فسكت فعلمت أنه قد انتهت العدة» فلا وجه بعد هاتين الرواتين وغيرهما لعدم اعتبار حقيقة العدد وإذا كان الحديث غير مشكل، وحقيقة العدد مقصودة فلنذكر أشهر الأقوال وفق منهج الأصول التي قدمناها بادئين بالقول المختار الذي يوافق مادلت عليه الروايات السابقة من الأصول ويطابق المعقول والمنقول.

«القول الأول» وهو ما اختاره القرطبي والطبري والنيسابوري وغيرهم أن المراد بالأحرف السبعة هي سبع لغات في كلمة واحدة تختلف فيها الألفاظ مع اتفاق المعاني وتقاربها وعدم اختلافها وتناقضها مثل هلم وأقبل وتعالى، وإلي، وقصدي، ونحوي، وقربي، فإن هذه ألفاظ سبعة مختلفة يعبر بها عن معنى واحد هو طلب الإقبال.

وليس معنى هذا القول أن كل معنى في القرآن عبر عنه بسبعة ألفاظ من سبع لغات: بل المراد أن المعنى الذي تتفق لغات العرب في التعبير عنه بلفظ واحد يعبر عنه بذلك اللفظ فقط، وأن ما يختلف التعبير عنه بلفظين يعبر عنه بلفظين وهكذا إلى سبعة ألفاظ فقط، من مشهور لغات العرب وقت نزول القرآن مثل ما تقدم ومثل ﴿ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا ﴾[1] للذين آمنوا أمهلونا، للذين آمنوا أخرونا، للذين آمنوا ارقبونا، فهذه أربعة ألفاظ عبر بها عن معنى واحد، ومثل ﴿ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ ﴾[2] مروا فيه، سعوا فيه فهذه ثلاثة ألفاظ عبر بها عن معنى واحد، ومثل ﴿ إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾[3] إلا زقية واحدة[4] فهذان لفظان عبر بهما عن معنى واحد.

«وهذا القول» يؤيده الروايات فإن في حمل جميع قبائل العرب على أخذ

١- سورة الحديد (الآية ١٣)　　٢- سورة البقرة (الآية ٢٠)

٣- سورة يس (الآية ٢٩)

٤ - زقا الطائر والديك زَقْوا وزُقاء - صاح، وزقا الصبي - اشتد بكاؤه.

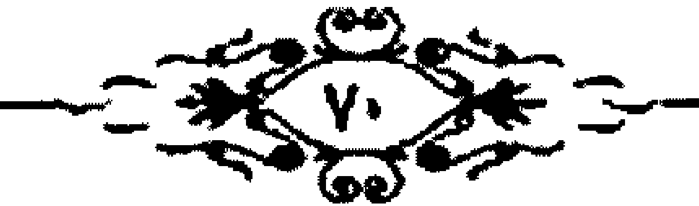


القرآن على غير لغاتهم دفعة واحدة وحملهم على النطق بما لم يعتادوا النطق به مشقة عظيمة وحرج كبير كما يدل عليه قوله ﷺ: (وإن أمتي لا تطيق ذلك) وقوله: (يا جبريل إني بعثت إلى أمة أمية منهم العجوز والشيخ الكبير والغلام والجارية والرجل الذى لايقرأ كتاباً قط) فوسع الله للناس فى الحروف لعجزهم عن أخذ القرآن على غير لغاتهم لما ذكر فى الحديث.

نعم وسع لهم فى اختلاف الألفاظ إذا كان المعنى متفقا لا اختلاف فيه ولا تناقض، فكانوا كذلك حتى كثر منهم من يكتب وعادت لغاتهم إلى لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو لسان قريش بعد أن صارت لقريش السيادة الدينية والدنيوية معا، وقدروا بعد ذلك على حفظ الألفاظ التى هى بلغة قريش، حتى صاروا يؤثرونها على غيرها فلم تعد ثم ضرورة إلى الاستمرار على القراءة بما عدا حرف قريش أي لغتهم وبخاصة فإنهم كانوا مخيرين فى القراءة بأيها كما يدل عليه قوله ﷺ: «فأى ذلك قرأتم أصبتم» وقوله: «فاقرأوا ما تيسر منه».

ولما زالت الضرورة اختار الإمام عثمان رضى الله عنه واختاروا معه أحد الأحرف السبعة وهو حرف «لغة» قريش لأنه هو الحرف الذى علمه جميع العرب بعد ذلك فكان ذلك إجماعا من الصحابة، والأمة إذا وجبت عليها أمور على التخيير فلها أن تختار واحدا منها وتترك ما عداه، كما أن للإمام أن يختار كذلك وقد تركت الصحابة الأحرف الستة الباقية ولم تنقلها محافظة على وحدة الأمة فى قراءة القرآن ودرءا للاختلاف فى القرآن ودفعا للمراء فيه الذى عده النبى ﷺ كفرا.

ويؤيد هذا القول خلاف ما ذكرنا: ما تقدم من اختلاف الصحابة فى القراءة وتصويب النبى ﷺ لكل منهم فإنه ليس من المعقول أن يكون اختلافهم فى المعنى وإلا لزم الجمع بين النقيضين إذا كان أحدهما أمراً والآخر نهيا مثلاً فتعين أن يكون اختلافهم فى اللفظ مع الاتفاق فى المعنى بأن يعبر عن أحدهما بلفظ ويعبر عن الآخر بلفظ آخر وهكذا.



وهذه الألفاظ المختلفة مع الاتفاق في المعنى كلها منزلة من عند الله وكلٌ سمع ما قرأ به من رسول الله ﷺ: بدليل قوله: «هكذا أنزلت» فلم تقع الإباحة في قوله عليه الصلاة والسلام: «فاقرءوا ما تيسر منه» بأن يكون كل واحد من الصحابة إذا أراد أن يدل اللفظة من بعض اللغات جعلها من تلقاء نفسه ولو كان هذا لذهب إعجاز القرآن ولكان معرضا أن يبدله كل من أراد حتى يكون غير الذى نزل من عند الله.

وقد وقعت الإباحة للنبي ﷺ ليوسع بها على أمته كما قدمنا فهو ﷺ الذى أقرأ مرة لأبي بما قرأه عليه جبريل، ومرة لابن مسعود بما قرأه عليه جبريل أيضا وهكذا بالنسبة لقراءة عمر بن الخطاب وقراءة هشام بن حكيم لها ولو لم يكن الأمر كذلك لما استقام قول النبي ﷺ عند الاختلاف في القراءة «هكذا أنزلت» أو «هكذا أقرأني جبريل» وأيضا لو كان لأحد من الناس أن يغير ما يشاء ويضع ما يريد لبطل قوله تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ وحمل الحرف على اللغة مطابق لمعنى الجهة

عرض هذا القول على الأصول السابقة

بعرض هذا القول عليها نجد:

(أولا) أن حمل القبائل المختلفة في أول الأمر على القراءة بحرف واحد أي لغة واحدة فيه حرج ومشقة

(ثانيا) أن في إنزال المعنى الواحد على سبع لغات توسعة وتيسيرا.

(ثالثا) كان المسلمون مخيرين في القراءة بأي لغة يسمعونها من رسول الله ﷺ.

(رابعا) ترتب على ذلك اختلافهم في القراءة وأخذ بعضهم بعضا إلى حضرة الرسول ﷺ وذلك قبل أن يعلموا أن القرآن أنزل على سبعة أحرف، لأن النبي ﷺ ما كان يبلغ السبعة لكل أحد بل يبلغ كلا ما يناسبه ويسهل عليه النطق به ولهذا بعد أن علموا أن القرآن أنزل على سبعة أحرف أي لغات واشتهر ذلك بين الصحابة لم يعد أحدهم ينكر على الآخر قراءته.

(خامسا) تصويب النبي ﷺ لقراءة كلٍ دليلٌ على أن الخلاف بينهم كان في



اللفظ فقط لأن كل واحد كان يعبر عن المعنى بلفظ من لغته قد سمعه منه ﷺ غير لفظ الآخر الذى سمعه.

وبهذا قد ثبت أن القول بأن الأحرف السبعة المراد بها لغات سبع من لغات العرب المشهورة فى كلمة واحدة ومعنى واحد على نحو ما تقدم هو الموافق للروايات السابقة وغيرها والمطابق لمنهج الأصول التى فهمت منها، ولنذكر ما ورد على هذا القول والجواب عنه ملخصا وموضحا من الطبرى وغيره :

(١) «فإن قال قائل فى أى موضع من كتاب الله نجد حرفا واحدا مقروءا بسبع لغات مختلفات الألفاظ متفقات المعنى حتى يصح تأويل الأحرف السبعة باللغات السبع».

«يرد على ذلك» بأننا لم ندع أن ذلك موجود اليوم وإنما قلنا إن هذا معنى قول النبى ﷺ «أنزل القرآن على سبعة أحرف» لما بينا من الأسباب.

(٢) «وإن قيل» أين ذهبت الأحرف الستة ولم تكن موجودة مع أن رسول الله قد أقرأهن أصحابه وأمرهم بقراءتها وأنزلهن الله من عنده على نبيه أنسخت هذه الأحرف الستة فرفعت وما الدليل على نسخها ورفعها أم نسيتهن الأمة فتكون قد ضيعت ما أمرت بحفظه أم ما القضية فى ذلك.

يرد ذلك بأن الأحرف الستة الباقية لم تنسخ ولم ترفع ولم تضيعها الأمة وإنما الأمة أمرت بحفظ القرآن وخيرت فى حفظه بأى الأحرف السبعة جاءت، كما أمرت إذا حنثت فى اليمين وهى موسرة أن تكفر بأى الكفارات الثلاث جاءت إما بعتق أو إطعام أو كسوة فلو أجمع جميعها على التكفير بواحدة من الكفارات الثلاث كانت مطيعة حكم الله مؤدية فى ذلك الواجب عليها من حق الله، فكذلك الأمة أمرت بحفظ القرآن وقراءته، وخيرت فى قراءته بأى الأحرف السبعة جاءت ولعلة من العلل «وهى خوف الاختلاف والتنازع والمماراة فى القرآن» مع زوال الحاجة إلى تعدد الحروف «اللغات» ومع انتشار أحد الأحرف السبعة الذى هو لغة قريش، بين قبائل العرب، وسهولته عليهم جميعا رأت الأمة لذلك كله الثبات على حرف واحد ورفض القراءة بالأحرف الستة الباقية.

وقد بينت الأخبار والآثار العلة التى أوجبت على الأمة الثبات على حرف

واحد ورفض ما عداه من الأحرف الستة فقد ثبت عند رواة الأخبار «أنه اجتمع فى غزوة أذربيجان وأرمينية، أهل الشام وأهل العراق فتذاكروا القرآن واختلفوا فيه حتى كادت تكون بينهم فتنة فركب حذيفة بن اليمان لما رأى اختلافهم فى القرآن إلى عثمان فقال: إن الناس قد اختلفوا فى القرآن حتى إنى والله لأخشى أن يصيبهم مثل ما أصاب اليهود والنصارى من الاختلاف ففزع عثمان لذلك فزعا شديدا فأرسل إلى حفصة فاستخرج الصحف التى كان أبو بكر أمر زيدا بجمعها فنسخ منها مصاحف وبعث بها إلى الآفاق وعزم على كل من عنده مصحف مخالف للمصحف الذى جمعهم عليه أن يحرقه.

فاستوثقت له الأمة على ذلك بالطاعة ورأت فيما فعل من ذلك الرشد والهداية فتركت القراءة بالأحرف الستة التى عزم عليها إمامها العادل فى تركها طاعة منها له ونظرا لأنفسها ولمن بعدها من سائر الأمة حتى درست من الأمة معرفتها وتعفت آثارها فلا سبيل لأحد اليوم إلى القراءة بها لدثورها وعفو آثارها وتتابع المسلمين على رفض القراءة بها من غير جحود منها لصحتها وصحة شئ منها ولكنها نظرت لمصلحتها من دفع الاختلاف والتنازع فى القرآن بين المسلمين فلا قراءة اليوم لأحد من أهل الاسلام إلا بالحرف الواحد الذى اختاره لهم إمامهم الشفيق الناصح دون غيره من الأحرف الستة الأخرى، التى تركت القراءة بها.

(٣) «قد يقال»: كيف جاز للصحابة وللأمة ترك قراءة أقرأهم إياها رسول الله ﷺ أمرهم بها «ويجاب» بأن أمرهم بها لم يكن أمر إيجاب بكل منها على التعيين بل كان أمر تخيير بينها فليس الواجب كل حرف منها بل الواجب واحد منها وهو ما يستطيع كل واحد من المكلفين النطق به، فلم يكن الواجب عليهم نقل جميع الأحرف السبعة بل الواجب نقل الحرف الذى أجمعوا على قراءته وترك غيره رعاية للمصلحة ولو لم يفعلوا ذلك لكانوا إلى الجناية على الإسلام أقرب منهم إلى السلامة من ذلك ولكن الله وفق الأمة وهداها إلى الصواب.

(٤) «فإن قال قائل» ما هى الست الباقية ومن أى الألسن كانت «ويرد عليه» بأنه



لا حاجة بنا إلى معرفتها بل الواجب ترك معرفتها ولو عرفناها لم نقرأ بها، للأسباب التى بيناها وقد قيل إن خمسة منها لعجز هوازن، واثنتين لقريش وخزاعة.

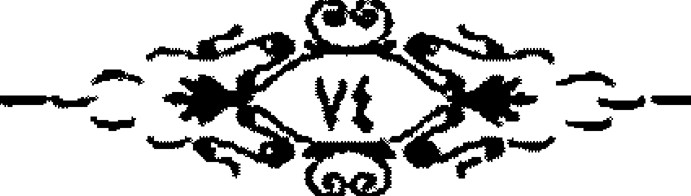
والعجز من هوازن سعد بن بكر وخيثم بن بكر ونصر بن معاوية وثقيف وهذا القول مروى عن ابن عباس ولكن فى روايته قتادة عنه مع أن قتادة لم يلق ابن عباس ولم يسمع منه وكل ما قيل فى اللغات الست لم يثبت عن طريق صحيح.

(٥) «قد يقال» إذا كانت الحروف السبعة لغات سبعا فكيف اختلف قراءة عمر وهشام بن حكيم مع إنهما قرشيان ولغتهما واحدة «ويجاب» بأنه لا مانع من اختلافهما لجواز أن يكون أحدهما عارفا بغير لغة قريش وقد سمع النبى ﷺ وهو يقرأ بغير لغة قريش فحفظها كما سمعها الناس وأن يكون الآخر قد سمع لغة قريش فحفظها فاختلفت قراءتهما وكون المرء يعرف غير لغته الأصلية ويحفظ ما يسمعه من ذلك الغير مشاهد معروف.

(٦) «وربما قيل» كيف يلتئم قولك إن القرآن نزل بسبع لغات المعبر عنها بالحروف مع قول عثمان رضى الله عنه «نزل القرآن بلغة قريش» «فيجاب» بأن قول عثمان محمول على ابتداء نزوله وهو الحرف الأول الذى طلب النبى صلى الله عليه وسلم الزيادة عليه وقد استقر الأمر بعد زوال الضرورة على ذلك الحرف الذى هو لغة قريش وعلى ذلك فلا تنافى بين حمل الأحرف على اللغات وبين قول عثمان المذكور.

(٧) «فإن قال قائل» كيف تدعى أن الحرف الذى استقر عليه الأمر أخيرا هو لغة قريش فحسب مع أن فى القرآن كثيرا من الكلمات من غير لغة قريش مثل «عتى حين» بلغة الهذلى، ومثل «تعلمون» بكسر التاء بلغة الأسدى.

«يرد عليه» بأن ما ورد من ذلك وإن كان فى الأصل من غير لغة قريش، لكنه مستعمل عند قريش ومعروف عندهم أو أنه مما توافق فيه لغة قريش وغيرها إلا أنه مشهور عند غيرها وذلك مثل الكلمات التى قيل إنها فى الأصل ليست عربية، مثل مشكاة وقسطاس، وغيرهما فإنهم قالوا صارت عربية بالاستعمال أو أنها أيضا من وضع العرب وهى مما اتفقت فيه اللغات فلم يكن ذلك منافيا لكون القرآن عربيا مبينا، فكذلك وجود كلمات ينطق بها



الهذلي، أو الأسدى أو غيرهما لا ينافى كونها قرشية بالاستعمال أو بالوضع، واتفقت فيه مع غيرها.

وقد أطلنا فى ذكر ما يرد على هذا الرأى من الإشكالات وردها بعد تطبيقه على منهج الروايات السابقة حتى ظهر أنه الرأى المختار، والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

القول الثانى

إن الأحرف السبعة هى لغات سبع متفرقة فى القرآن كله من لغات أحياء من قبائل العرب ومعنى هذا القول أن بعض معانيه عبر عنه بلفظ من لغة إحدى القبائل العربية المشهورة والآخر عبر عنه بلفظ من لغة قبيلة ثانية وهكذا إلى سبع فيكون المنزل لفظا واحدا من لغة واحدة لمعنى واحد، يعنى أنها لغات فى القرآن، على لغات العرب كلها يمنها ونزارها لأن رسول الله ﷺ لم يجهل شيئا منها وكان قد أوتى جوامع الكلم وليس معناه أن يكون فى الحرف الواحد سبع لغات كالقول الأول، بل هذه اللغات السبع متفرقة فى القرآن كله فبعضه بلغة قريش وبعضه بلغة هذيل، وبعضه بلغة هوازن وبعضه بلغة اليمن وهكذا.

وإلى هذا القول ذهب أبو عبيد القاسم بن سلام وثعلب وأبو حاتم السجستانى وقال الأزهرى فى التهذيب إنه المختار واختاره ابن عطية أيضا حيث قال: معنى قول النبى ﷺ «أنزل القرآن على سبعة أحرف» أى فيه عبارة سبع قبائل، بلغة جملتها نزل القرآن فيعبر عن المعنى فيه تارة بعبارة قريش ومرة بعبارة هذيل ومرة بغير ذلك بحسب الأفصح والأوجز فى اللفظ.

ألا ترى أن فطر معناه عند قريش ابتدأ فجاءت فى القرآن فلم تتجه لابن عباس، حتى اختصم إليه أعرابيان فى بئر، فقال أحدهما «أنا فطرتها» فقال ابن عباس ففهمت حينئذ معنى قوله تعالى ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[1]

١- سورة فاطر (الآية ١)



وقال أيضا ما كنت أرى معنى قوله تعالى﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ ﴾[1] حتى سمعت بنت ذى يزن تقول لزوجها تعالى أفاتحك أى أحاكمك، وكذلك قول عمر بن الخطاب وكان لا يفهم معنى قوله تعالى ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ ﴾[2] أى على تنقص لهم وغير ذلك.

«ولا يرد على هذا» قول عثمان رضى الله عنه حين أمرهم أن يكتبوا المصاحف ما اختلفتم أنتم وزيد فاكتبوه بلغة قريش فإنه نزل بلغتهم فإنه يريد معظمه وأكثره ولم تقم دلالة قاطعة على أن القرآن نزل بأسره بلغة قريش فقط إذ فيه كلمات وحروف وهى خلاف لغة قريش وقد قال تعالى ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾[3] ولم يقل قرشياً وهذا يدل على أنه منزل بجميع لسان العرب.

وليس لأحد أن يقول إنه أراد قرشيا من العرب دون غيرها كما أنه ليس له أن يقول أراد لغة عدنان دون قحطان أو ربيعة دون مضر لأن اسم العرب يتناول جميع هذه القبائل تناولا واحداً ١٠٠ هـ ملخصا من القرطبى وغيره مع تصرف وإيضاح «وهذا القول الثانى» قول من لم يمعن النظر ولا يلتبس خطؤه على من نظر فى الروايات السابقة ولنبطل ما استند إليه مختارو هذا القول ثم نتبعه ببيان مخالفته للروايات، فنقول:

(أولا) ما استندوا إليه من عدم فهم ابن عباس وعمر وغيرهما لمعنى بعض كلمات حتى سمعوها من غيرهم لا يفيدهم لأنه ليس بلازم أن يحيط المرء بكل معانى لغته أو بألفاظها بل قالوا إن اللغة لا يحيط بها إلا معصوم، كيف وقد قررنا أن فى القرآن ألفاظا كثيرة بحسب أصلها ليست عربية صارت عربية بالاستعمال أو بموافقة الوضع وكذا يقال بالنسبة لغير القرشى منها فمن الجائز جدا، أن تكون بعض الألفاظ ليست كثيرة الاستعمال عند قريش غير معلومة لبعضهم وإن كانت قرشية.

(ثانيا) إن كون القرآن بلغة قريش لا ينافى كونه عربيا لأننا قررنا فيما

١- سورة الأعراف (الآية ٨٩)
٢- سورة النحل (الآية ٤٧)
٣- سورة الزخرف (الآية ٣)



سبق، أن فيه ألفاظا كثيرة من لغات قبائل غير قريش ولكنها مستعملة ومعروفة عند قريش أو هي مما وضعتها قريش أيضا فتكون مما توافقت فيه القبائل كالذى توافقت فيه اللغات وعلى هذا فلا تنافى بين قول عثمان وبين كونه قرآنا عربيا أو أن قول عثمان محمول على الحرف الذى نزل ابتداء كما قررنا.

(ثالثا) هذا قول بعيد كل البعد عن الروايات السابقة وبيان ذلك أننا إذا عرضناه على تلك الروايات وما أخذ منها من الأصول لوجدنا بينه وبينها بوناً شاسعا لأنه يقتضى أن القرآن أبعاض كل بعض بلغة وذلك لا يتأتى به رفع الحرج والمشقة لأنه يلزمه أن كل شخص لا يقرأ إلا البعض الذى نزل بلغته دون غيره من القرآن ويلزمه أن لا تكون هناك فائدة للتخيير لأن كلا ملزم بأن يقرأ ما نزل باللغة التى يعرفها دون غيره.

ويلزم هذا القول أيضا بطلان الأخبار التي وردت عن عمر بن الخطاب وهشام بن حكيم وأبى بن كعب وعبد الله بن مسعود من أنهم اختلفوا فى قراءة سور من القرآن واختصموا إلى رسول الله ﷺ فأمر كلا أن يقرأ كما علم.

ولو كانت الأحرف السبعة لغات متفرقة لكان كل تال إنما يتلو الكلمة تلاوة واحدة ولا يتأتى فيها اختلاف ويلزم ذلك أنه لا وجه لاختلاف من نقل عنهم الاختلاف ولم يكن هناك معنى لأمر النبى ﷺ كل قارئ منهم أن يقرأ كما علم وكيف يتأتى أن يكون اختلاف والمعلم واحد والعلم واحد.

وإذا كان هذا القول يلزمه ذلك كله وقد ثبتت صحة الروايات السابقة فدل ذلك أبين الدلالة على فساد القول بأن الأحرف السبعة لغات سبع متفرقة فى سور القرآن لا أنها لغات مختلفة فى كلمة واحدة مع كون المعنى واحدا كما هو مقتضى ما أسلفنا من الروايات.

ومثل القول الثانى فى البطلان قول من قال «إن المراد بالاحرف السبعة (لغات) سبع لقبائل مضر متفرقة فى القرآن فمنها لقريش، ومنها لكنانة، ومنها لأسد، ومنها لهذيل، ومنها لتيم، ومنها لقيس وهذا القول باطل بما أبطلنا به القول الثانى ويبطل هذا أيضا بأن فى قبائل مضر شواذ ينزه عنها القرآن مثل كشكشة قيس الذين يجعلون كاف المؤنث شينا فيقولون فى «جعل ربك تحتك

سريا» «جعل ربش تحتش» ومثل تمتمة تميم الذين يجعلون السين تاء فيقولون فى الناس «النات» وهذه لغات ينزه عنها القرآن ولا يحفظ فيه منها شيء عن السلف ولم نفرد هذا القول بالذكر لمشاركته لما قبله فى أوجه بطلانه.

القول الثالث

أن المراد بالأحرف السبعة الأوجه التى يقع بها الاختلاف فى القراءة ولننقل ثلاث عبارات متقاربة فى هذا المعنى.

قال ابن قتيبة ومن نحا نحوه فى بيانها الأوجه التى يقع بها ذلك سبعة:

(أولها) ما تتغير حركته ولا يزول معناه ولا صورته مثل ﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ﴾[1] بالرفع والفتح.

(ثانيا) ما يتغير بالفعل مثل «باعَد وباعِد»[2] بلفظ الماضى والطلب.

(ثالثا) ما يتغير باللفظ مثل «ننشزها وننشرها»[3].

(رابعا) ما يتغير بإبدال حرف قريب المخرج مثل «طلع منضود» «وطلح منضود»[4]

(خامسا) ما يتغير بالتقديم والتأخير مثل «وجاءت سكرة الموت بالحق» «وجاءت سكرة الحق بالموت»[5]

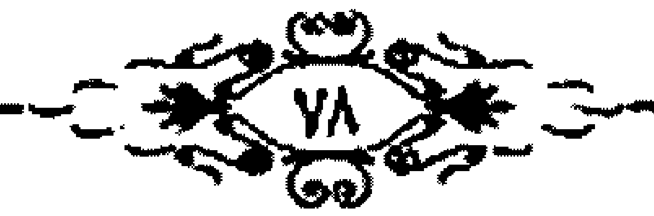
(وسادسها) ما يتغير بزيادة أو نقصان مثل «والذكر والأنثى» «وما خلق الذكر والأنثى»[6]

(سابعها) ما يتغير بإبدال كلمة بأخرى مثل «كالعهن المنفوش» «وكالصوف المنفوش»[7]

وقال القرطبي فى بيانها حكاية عن القاضى ابن الطيب قال: تدبرت وجوه الاختلاف فى القراءة فوجدتها سبعا:

أولا: منها ما تتغير حركته ولا يزول معناه ولا صورته مثل (هن أطهرُ لكم وأطهرَ)[8] (ويضيقُ صدرى ويضيقَ).

١- سورة البقرة (الآية ٢٨٢)
٢- سورة سبأ (الآية ١٩)
٣- سورة البقرة (الآية ٢٥٩)
٤- سورة الواقعة (الآية٢٩)
٥- سورة ق (الآية ١٩)
٦- سورة الليل (الآية ٣)
٧- سورة القارعة (الآية ٥)
٨- سورة هود (الآية ٧٨) .



ثانيا: ومنها ما لا تتغير صورته ويتغير معناه بالإعراب مثل (ربنا باعِد بين أسفارنا وباعَد)

ثالثا: ومنها ما تبقى صورته ويتغير معناه باختلاف الحروف مثل قوله (ننشرها وننشزها)

رابعا: ومنها ما تتغير صورته ويبقى معناه مثل (كالعهن المنفوش وكالصوف المنفوش)

خامسا: ومنها ما تتغير صورته ومعناه مثل وطلع منضود وطلح منضود.

سادسا: ومنها بالتقديم والتأخير مثل «وجاءت سكرة الموت بالحق وجاءت سكرة الحق بالموت».

سابعا: ومنها بالزيادة والنقصان مثل قوله (تسع وتسعون نعجة أنثى)[1] وقال ابن الجزرى في بيان الأوجه التى بها اختلاف القراءة تتبعت القراءات صحيحها وشاذها وضعيفها ومنكرها فإذا هى ترجع إلى سبعة أوجه من الاختلاف لا تخرج عنها وذلك إما بتغير فى الحركات بلا تغير فى المعنى والصورة نحو ويحسب[2] بوجهين وإما بتغير فى المعنى فقط نحو: فتلقى آدم من ربه كلمات[3] وإما في الحروف بتغير المعنى لا الصورة نحو يتلو وتتلو وعكس ذلك، ونحو الصراط والسراط أو بتغيرهما نحو فامضوا فاسعوا، وإما فى التقديم والتأخير نحو فيقتلون ويقتلون[4] أو فى الزيادة والنقصان نحو أوصى ووصى فهذه سبعة أوجه لا يخرج الاختلاف عنها.

قال وأما نحو اختلاف الإظهار والإدغام والروم والإشمام والتخفيف والتسهيل والنقل والإبدال فهذا ليس من الاختلاف الذى يتنوع فى اللفظ أو المعنى لأن هذه الصفات المتنوعة فى أدائه لا تخرجه عن كونه لفظا واحدا.

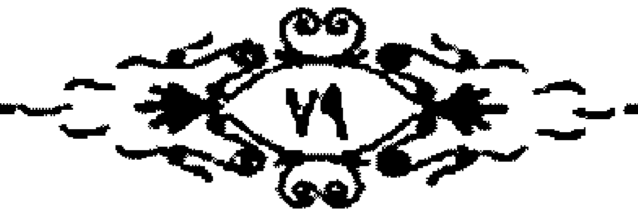
وهذا القول مع اختلاف قائليه فى بيانه لم يذكر واحد منهم له دليلا إلا أنه تتبع وجوه الاختلاف في القراءة فوجدها لا تخرج عن سبع وهذا لا يصح دليلا لأى واحد على أن المراد بالأحرف السبعة الوجوه التى تختلف فيها القراءة وأيضا هو مردوده بما يأتى:

١- سورة ص (الآية ٢٣) .

٢- بفتح السين وكسرها.

٣- برفع آدم ونصب كلمات وبالعكس .

٤- الأول بالبناء للمجهول والثانى للمعلوم. وبالعكس .



(أولا) أن طريق تتبع ابن الجزرى مخالف لطريق تتبع ابن قتيبة وابن الطيب وهذا يدل على أنه يمكن الزيادة على سبع فابن الجزرى جعل ما تتغير حركته قسمين وجعل ما تتغير حروفه ثلاثة أقسام وبذلك يكون الحصر فى سبع غير مجزوم به ولا متعين فهو مبنى على الظن والتخمين بل جعل غيرهم وجوه الاختلاف غير ما تقدم مثل ما قال أبو الفضل الرازى من أنها اختلاف الأسماء فى الإفراد والتثنية والتذكير والتأنيث واختلاف تصريف الأفعال ووجوه الإعراب والنقط والزيادة والإبدال وغير ذلك.

(ثانيا) أنك قد علمت مما سبق أن الزيادة إلى سبعة أحرف كان الغرض منها الرخصة وأكثر الأمة يومئذ أمى لا يكتب ولا يعرف الرسم وإنما كانوا يعرفون الحروف ومخارجها فحسب والرخصة ليست ظاهرة فى قراءة الفعل المبنى للمجهول أو للمعلوم أو فى إبدال حركة بأخرى أو حرف بآخر أو تقديم وتأخير فإن القراءة بأحدها دون الآخر لا توجب مشقة يسأل النبى ﷺ المعافاة منها وأن الأمة لا تطيق ذلك ويطلب التيسير على الأمة بإبدال حرف أو تغيير فعل من المضى إلى الأمر أو من البناء للمعلوم للبناء للمجهول هذا لا تفيده الروايات السابقة ولا تدل عليه.

(ثالثا) إنه لا يتصور وجود أوجه الخلاف فى القراءة المذكورة جميعا فى كلمة واحدة حتى يكون ذلك تيسيرا وتخييرا كما تقدم وإن أرادوا أن ذلك متفرق فى القرآن جميعه كالقائل باللغات السبع المتفرقة فى القرآن لم يكن ثمت رخصة ولا اختلاف بين الصحابة فهذا القول فضلا عن أنه لم يستند إلى دليل باطل بما ذكرنا من الأوجه.

* * *



القول الرابع

أن المراد بالأحرف السبعة سبعة أنواع كل نوع منها جزء من أجزاء القرآن وقد اختلف القائلون به في تعيين السبعة فقيل: هى أمر ونهى ووعد ووعيد وقصص ومجادلة وأمثال وقيل أمر ونهي وحلال وحرام ومحكم ومتشابه وأمثال وقيل: محكم ومتشابه وناسخ ومنسوخ وخصوص وعموم وقصص وقيل غير ذلك وهذا القول على اختلاف قائليه في العدد ليس له مستند وكلٌ قال ما قال بحسب التخمين وهو مردود من وجهين.

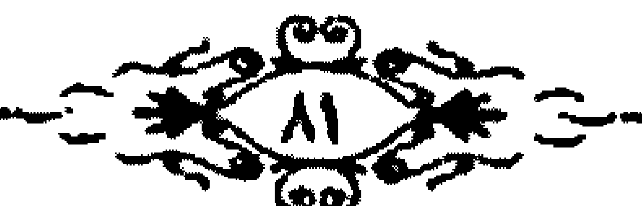
(أولهما) أن هذه الأوجه لا يمكن أن يقع فيها التوسعة على الأمة والتيسير لأن التوسعة لم تقع في تحليل حرام ولا في تحريم حلال ولا في تغيير شئ من المعاني المذكورة.

(ثانيهما) لو كان المراد بالأحرف ما ذكر في هذا القول للزم أن يكون رسول الله ﷺ قد أقر كلا من المختلفين في المعانى على ما قرأ ولو كان أحدهما قرأ أمرا أو حلالا والآخر قرأ نهيا أو حراما وذلك جمع بين النقيضين ولا يخفى عليك أن الشئ الواحد لا يكون حراما وحلالا في حالة واحدة وأيضا يلزمه جواز إبدال آية أمثال بآية أحكام مثلا مع أن ذلك لا يجوز بحال من الأحوال وبهذا ثبت بطلان هذا القول أيضا.

***

خاتمة:

وهذه الأقوال الأربعة أشهر ما قيل في معنى حديث «أنزل القرآن على سبعة أحرف» وقد اشتملت على أكثر من أربعة والقول الأول المختار وهو أن المراد بالأحرف السبعة اللغات السبع على الوجه الذى بيناه سابقاً، فاشدد عليه يديك والحمد لله رب العالمين وإنما أعرضنا عن ذكر باقى الأقوال لما قاله السيوطى في الإتقان بعد أن ذكر خمسة وثلاثين قولا ونصه: قال ابن حبان فهذه خمسة



وثلاثون قولا لأهل العلم واللغة فى معنى إنزال القرآن على سبعة أحرف وهى أقاويل يشبه بعضها بعضا وكلها محتملة ويحتمل غيرها، وقال المرسى هذه الوجوه أكثرها متداخلة ولا أدرى مستندها ولا عمن نقلت، ولا أدرى لم خص كل واحد منهم هذه الأحرف السبعة بما ذكر مع أن كلها موجودة فى القرآن فلا أدرى معنى التخصيص ومنها أشياء لا أفهم معناها على الحقيقة وأكثرها معارضة حديث عمر وهشام بن حكيم الذى فى الصحيح فإنهما لم يختلفا فى تفسيره ولا أحكامه وإنما اختلفا فى قراءة حروفه.

وقد ظن كثير من العوام أن المراد بها القراءات السبع وهو جهل قبيح ومنه يعلم أنه لا يصح القول بأن الأحرف السبعة هى القراءات السبعة المنقولة عن الأئمة السبعة المعروفين عند القراء لأنهم كانوا فى القرن الثانى والرواية عنهم أكثر من سبع فلا يعقل أن الحديث يشير إلى قراءاتهم.

قال القرطبى (وقد قيل) إن المراد بقوله عليه الصلاة والسلام (أنزل القرآن على سبعة أحرف) القراءات السبع التى قرأ بها القراء السبعة لأنها كلها صحت عن رسول الله ﷺ وهذا ليس بشئ لظهور بطلانه على ما يأتى ثم قال «فصل» قال كثير من علمائنا كالداودى وابن أبى صفرة وغيرهما هذه القراءات السبع التى تنسب لهؤلاء القراء السبعة ليست هى الأحرف السبعة التى اتسعت الصحابة فى القراءة بها وإنما هى راجعة إلى حرف واحد من تلك السبعة وهو الذى جمع عليه عثمان المصحف، ذكره ابن النحاس وغيره وهذه القراءات المشهورة وهى اختيارات أولئك الأئمة القراء

إلى أن قال ولم يمنع واحد منهم اختيار الآخر ولا أنكره بل سوغه وجوزه وسيأتى زيادة بيان فى بحث القراءة والقراء إن شاء الله ولنقتصر فى هذا البحث على ما ذكرنا فإن فيه الكفاية والله أعلم.

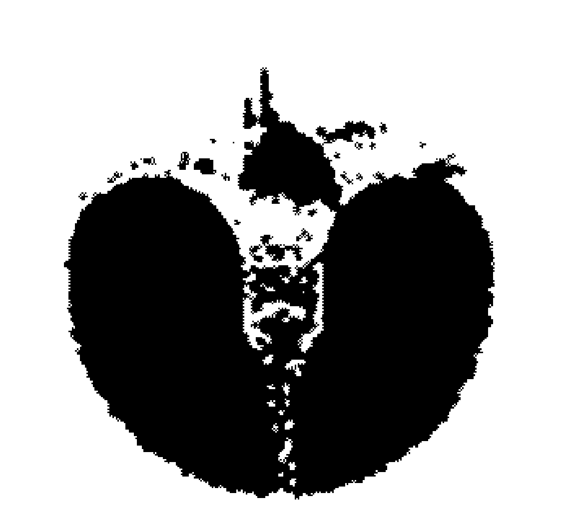
* * *



المبحث الخامس
المكى والمدنى

- الاصطلاحات
- طرق وضوابط المكى والمدنى
- الشبه التى أثيرت حول المكى والمدنى

المكى والمدنى



العمدة فى معرفة المكى والمدنى إنما هو حفظ الصحابة والتابعين، والنقل الصحيح عنهم ولم يرد فى ذلك عن النبى ﷺ قول، ومن كان له عناية شديدة بهذا النوع عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فقد أخرج البخارى عنه أنه قال «والله الذى لا إله غيره ما نزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت ولا نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم أنزلت، ولو أعلم أحدا أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه».

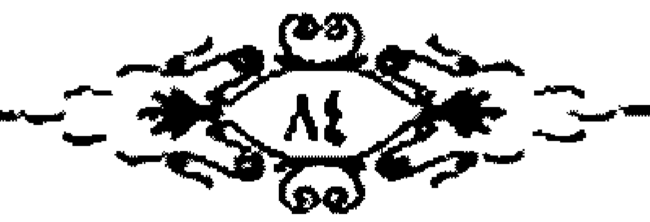
وفائدة معرفة المكى والمدنى وترتيب ذلك فى النزول هى معرفة الناسخ والمنسوخ من أحكام القرآن التى وقع فيها النسخ، نعم قد وقع خلاف فى بعض السور هل هى مكية أو مدنية إلا أن ذلك مع قلته قد وقع فى السور التى ليس فيها ناسخ ولا منسوخ على أن الخلاف في بعض ذلك لا يعتد به.

الاصطلاحات فى بيان المكى والمدنى

أولهما: المكى ما نزل على النبى ﷺ بمكة، والمدنى ما نزل عليه بالمدينة وهذا الاصطلاح لوحظ فيه المكان وعليه تثبت الواسطة فما نزل عليه بالأسفار لا يسمى مكيا ولا مدنيا وذلك مثل ما نزل بتبوك ويدخل فى مكة ضواحيها كالمنزل عليه بمنى وعرفات والحديبية ويدخل فى المدينة أيضا ضواحيها كالمنزل عليه ببدر وأحد وعلى ذلك ما نزل بمكة بعد الهجرة يسمى مكيا.

ثانيها: المكى ما وقع خطابا لأهل مكة والمدنى ما وقع خطابا لأهل المدينة.

وعليه يحمل قول من قال ما كان فى القرآن من يا أيها الناس فهو مكى، وما كان فيه من يا أيها الذين آمنوا فهو مدنى لأن أهل مكة كان الغالب فيهم الكفر فخوطبوا بيا أيها الناس وإن كان غيرهم داخلا فيهم وهذا الاصطلاح قد لوحظ فيه المخاطب.



ثالثا: المكي ما نزل قبل الهجرة وإن كان نزوله بغير مكة، والمدنى ما نزل بعد الهجرة وإن نزل بغير المدينة وهذا الاصطلاح لوحظ فيه الزمان وعليه فقوله تعالى ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ﴾[1] مدنى وإن كان نزوله بمكة فى حجة الوداع بمنى يوم النحر فإن نزول هذه الآية هناك لا يخرجها عن المدنى فى الاصطلاح لأن ما نزل بعد الهجرة مدنى سواء نزل بالمدينة أو بغيرها وكذلك قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾[2] فإنه نزل بمكة بعد الهجرة عام الفتح وعليه فهو مدنى بحسب هذا الاصطلاح.

وهذا الاصطلاح هو المشهور بين العلماء لأنه اصطلاح ضابط حاصر للأقسام مطرد بخلاف الأول والثانى فإن الأول غير ضابط ولا حاصر لما يلزمه من الواسطة والواسطة يلزمها تعدد الأمكنة والأزمنة مثل ما نزل بتبوك وما نزل ببيت المقدس وما نزل فى الغزوات وغير ذلك فلا تكون القسمة ثنائية «والثانى» غير مطرد لأنه منقوض بسورة البقرة وفيها يا أيها الناس وهى مدنية لا مكية وبسورة الحج فهى مكية وفيها (يا أيها الذين آمنوا اركعوا) وبسورة النساء فإنها مدنية مع كونها مفتتحة بيا أيها الناس.

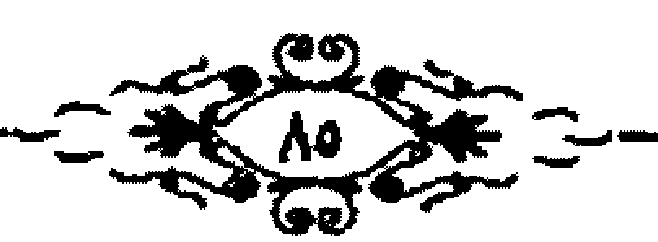
قال القاضى إن كان الرجوع فى هذا إلى النقل فمسلم وإن كان السبب فيه حصول المؤمنين بالمدينة على الكثرة دون مكة فضعيف إذ يجوز خطاب المؤمنين بصفتهم وباسمهم وجنسهم ويؤمر غير المؤمنين بالعبادة كما يؤمر المؤمنون بالاستمرار عليها والازدياد منها وعلى هذا فكل من الاصطلاحين الأولين لا عبرة به والمشهور الثالث.

وعلى ذلك فما نزل على النبى ﷺ فى سفر الهجرة مكى وما نزل فى السفر بعد الهجرة مدنى ومن ذلك سورة الفتح فإنها نزلت عليه ﷺ فى بعض أسفاره، وآية ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ .... إلخ ﴾[3] فانها نزلت بعرفة يوم الجمعة فى

١- سورة البقرة (الآية ٢٨١)

٢- سورة النساء (الآية ٥٨)

٣- سورة المائدة (الآية ٣)



حجة الوداع.. وآية ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾[1] فإنها نزلت يوم الفتح في جوف الكعبة.. وآية ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ﴾[2] فإنها نزلت بأسفل الحديبية وأول الأنفال نزل ببدر، وآية ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا ﴾[3] نزلت في غزوة تبوك فكل ذلك وغيره مما نزل بالسفر بعد الهجرة مدنى وإن لم يكن نزوله بالمدينة وهذا مقتضى الاصطلاح الثالث المشهور.

وقد ذكر العلماء في المكي والمدني من السور أقوالا كثيرة والذي نقله السيوطي عن أبي الحسن بن الحصار:

أن السور المدينة باتفاق عشرون سورة وأن المختلف فيه اثنتا عشرة سورة وما عدا ذلك مكي باتفاق فأما السور المدنية باتفاق فهي «سورة البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنفال، والتوبة، والنور، والأحزاب، ومحمد، والفتح، والحجرات، والحديد، والمجادلة، والحشر، والممتحنة، والجمعة، والمنافقون، والطلاق، والتحريم، والنصر» وأما المختلف في كونها مكية أو مدنية فهي «سورة الفاتحة، والرعد، والرحمن، والصف، والتغابن، والتطفيف، والقدر، ولم يكن، وإذا زلزلت، والإخلاص، والمعوذتان» وأما المكي باتفاق فهو ما عدا ذلك وهو اثنتان وثمانون سورة».

سورة مكية فيها آيات مدنية وبالعكس:

كثير من السور المكية فيها آيات مدنية فقد ورد أنه إذا نزلت فاتحة سورة بمكة مثلا كتبت بمكة ثم يزيد الله فيها ما يشاء، مثال ذلك آية «ويسألونك عن الروح» من الإسراء نزلت بالمدينة مع كون السورة مكية.

ومن ذلك سورة الأعراف مكية إلا آية «واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر» فإنها مدنية، ومن ذلك سورة إبراهيم مكية غير آيتين مدنيتين «ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا» إلى «فبئس القرار».

١- سورة النساء (الآية ٥٨)

٢- سورة الممتحنة (الآية ١٠)

٣- سورة التوبة (الآية ٤٢)



وبعض السور مدنية وفيها آيات مكية فمن ذلك سورة الأنفال فإنها مدنية وقد استثنى منها آية «وإذ يمكر بك الذين كفروا» فقد قيل إنها نزلت بمكة ومن ذلك سورة الحج قد قال قتادة إنها مدنية إلا أربع آيات «وما أرسلنا من قبلك من رسول» إلى «عقيم».

وقد تتبع العلماء ذكر الروايات فى المكى والمدنى سورا وآيات كما عنوا بالليلى والنهارى، والصيفى، والسفرى، والحضرى، والسمائى والأرضى، وغير ذلك، أى ما نزل من القرآن ليلا أو نهارا صيفا أو شتاء سفرا أو حضرا فى السماء يعنى ليلة الاسراء أو فى الأرض وقد أكثروا من الروايات الصحيحة والسقيمة وغرضنا هنا لا يتعلق بتفصيل ذلك كله ولنذكر الطرق والضوابط التى يعرف بها كل من المكى والمدنى.

الطرق والضوابط التى يعرف بها كل من المكى والمدنى

لمعرفة المكى والمدنى طريقان:

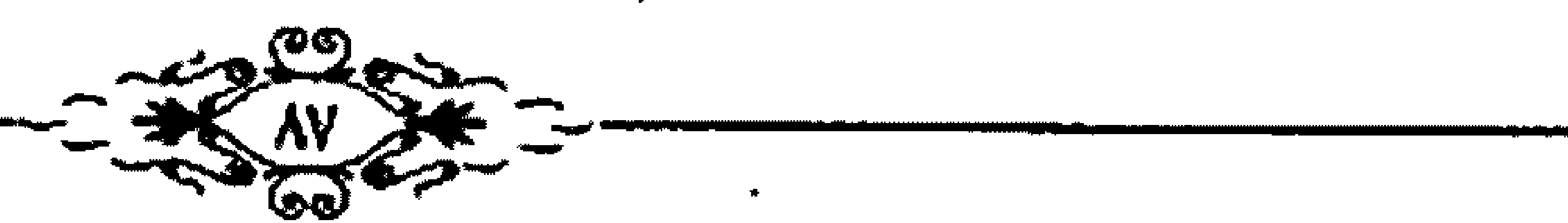
«أولهما» سماعى وهو النقل الصحيح عن الصحابة أو التابعين بأن سورة كذا أو آية كذا نزلت بمكة أو بالمدينة أو نزلت قبل الهجرة أو بعدها سفرا أو حضرا وغير ذلك. «ثانيهما» قياسى وهو ضوابط كلية لمعرفة كل منهما.

ضوابط المكى

١- كل سورة فيها (كلا) مكية وقد وردت فى القرآن ثلاثا وثلاثين مرة فى خمس عشرة سورة كلها فى النصف الأخير من القرآن وليس فى النصف الأول منها شئ قال الدرينى رحمه الله «وما نزلت كلا بيثرب فاعلمن ولم تأت في القرآن فى نصفه الأعلى وحكمة ذلك أن نصفه الأخير نزل أكثره بمكة وأكثر أهلها جبابرة فتكررت كلا على وجه التهديد والتعنيف لهم والإنكار عليهم»

٢- كل سورة فى أولها حرف المعجم مكية سوى البقرة وآل عمران فإنهما مدنيتان بإجماع وفى الرعد خلاف.

٣- كل سورة فيها قصة آدم وإبليس مكية سوى البقرة.



٤- كل سورة فيها قصص الأنبياء السابقين والأمم الخالية مكية سوى البقرة أيضا.

٥- كل سورة فيها يأيها الناس وليس فيها يأيها الذين آمنوا مكية وفى الحج خلاف.

٦- كل سورة فيها سجدة مكية.

ضوابط المدنى

١ - كل سورة فيها ذكر الحدود والفرائض مدنية.

٢ - كل سورة فيها ذكر المنافقين مدنية سوى العنكبوت.

٣ - كل سورة فيها أمر بالقتال وأحكامه مدنية.

﴿ما امتاز به كل من المكى والمدنى﴾

قد امتاز كل من القسم المكي والمدنى غير ماتقدم من الضوابط بأمور كثرت فيه وهى:

مميزات القسم المكى:

١- الدعوة إلى أصول الإيمان الاعتقادية من الإلهيات والوحى والرسالة والبعث والجزاء وغيرها وذكر الأدلة الكونية والعقلية على ذلك لأن القوم كانوا غرقى فى حمأة الشرك وإنكار النبوات لا يقرون ببعث ولا جزاء.

٢- محاجة المشركين ودعوتهم إلى الإيمان بهذه الأصول وإبطال شبههم والرد عليهم وتسفيه أحلامهم وتذكيرهم بالنعم العظيمة لعنادهم وتماديهم فى الضلال ومقاومتهم للدعوة بما أوتوا من قوة.

٣- أصول التشريع العامة والآداب والفضائل الثابتة وبخاصة ما يتعلق بحفظ النفس والمال والعقل والدين لانغماسهم فى الرذائل وبعدهم عن الفضائل فقد كانوا يأكلون الأموال بالباطل ويقتلون الأبناء ويئدون البنات وغير ذلك.

٤- قصص الأنبياء مع أقوامهم وما فيها من العبر والمواعظ وما فيها من أصول الدين العام وهو الإسلام الذى جاءت به الرسل جميعا وبيان سنة الله تعالى فى الأقوام والأمم ليكون لهم فى قصصهم عبرة وقد كان ذكر القصص



في مكة من أعظم دلائل نبوته ﷺ إذ لو كان قد تأخر نزوله إلى المدينة لقالوا تعلمه من أهل الكتاب.

٥- قصر أكثر آياته وسوره وهو المناسب لمقتضى الحال لما كان عليه أهل مكة من قوة البلاغة والفصاحة مع ما كان عليه أكابرهم من العناد والجحود فكان المناسب لهم النذر القارعة والمواعظ النافعة والزواجر الرادعة والعبر الجامعة بآيات قصيرة تصخ آذانهم وتملك أذهانهم وتعقل بيانهم وتجعلهم حيارى مدهوشين بما كانوا يسمعون من آيات مع كونها غاية في الإيجاز جمعت من المعانى والدلائل ما جعلهم يقرون بالإعجاز حتى قال أفصحهم «إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أسفله لمغدق وإن أعلاه لمثمر وما هو بقول البشر»

مميزات القسم المدنى

يمتاز القسم المدنى بكثرة الأمور الآتية فيه وهى:

١- قواعد التشريع التفصيلية والأحكام العملية فى العبادات والمعاملات كما فى سورة البقرة والنساء والمائدة وغيرها.

٢- محاجة أهل الكتاب والتنبيه على تحريفهم لكتبهم وإظهار ما أخفوه من مكنونات أسرارهم كما فى سورة البقرة من محاجة اليهود وتذكيرهم بقصة موسى معهم وفي سورة آل عمران من محاجة النصارى ومحاجة الفريقين فى سورة المائدة وغيرها.

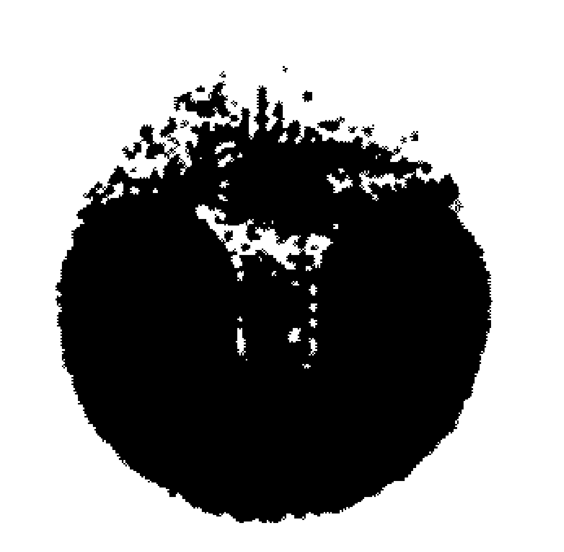
٣- بيان ضلال المنافقين ومفاسدهم وذكر فضائحهم والأحكام المتعلقة بهم كما فى سورة البقرة والنساء والتوبة وغيرها.

٤- قواعد التشريع الخاصة بأحكام القتال وما يتعلق به من الصلة والعهود والغزوات والغنائم وغير ذلك.

٥- طول أكثر سوره وبعض آياته لاشتمالها على الأمور السابقة ومقامات التفصيل والإطناب التى تقتضيها ومن ذلك ترى القرآن الكريم يسلك سبيل الإيجاز لمقتضى الحال وسبيل الإطناب متى اقتضاه الحال وهو فى كلا الحالين فى أعلى طبقات البلاغة.



الشبه التى أثيرت حول المكى والمدنى وردها



اعتاد المبشرون والملاحدة أن يتلمسوا المطاعن فى القرآن، وغرضهم بذلك التشكيك فى أن القرآن من عند الله ومن أعجب العجب أن كفار قريش وأهل الكتاب والمنافقين الذين قاوموا الدعوة ووقفوا فى سبيلها بكل ما لديهم من حيلة وقوة لم يطعنوا فى القرآن بمثل هذه الشبه وقد كان يقرعهم ويسفه عقولهم وينعى عليهم تقليدهم الأعمى وكانوا حريصين على تلمس الشبه والحجاج بالباطل والدعاوى الكاذبة كقولهم «سحر مفترى» أو «به جنة» ولم تطاوعهم عقولهم وأحلامهم أن يطعنوا بما جاء به هؤلاء المبشرون والملاحدة بعد القرون المتلاحقة وأن يتقولوا على القرآن الكريم مالم يجرأ على تقوله أسلافهم ولولا الحرص على هداية ضال أو حماية عقيدة جاهل من مضلل لوفرنا على القارئ وقته فى سرد هذه الشبه وردها، وكل هذه الشبه ترجع إلى أصل واحد فى زعمهم وهو الطعن فى أن القرآن من عند الله وهذه هى الشبه وردها:

(أولا) قالوا: إن القسم المكى قصير السور قصير الآيات وأما القسم المدنى فهو طويل السور طويل الآيات والسبب فى هذا الاختلاف تأثر محمد ﷺ بالبيئة، فأهل مكة قوم أميون لايقدرون على إنشاء العبارات الطويلة وأما أهل المدينة فكانوا بين أهل كتاب أو متصل بأهل الكتاب لهم قدرة على إنشاء العبارات الطويلة فتأثر بهم الرسول ﷺ ووجدت عنده ملكة التعبير والقدرة عليه فصار يأتى بسور طويلة وآيات طويلة.

وللرد على هذه الشبهة نقول:

(١) إن طول الكلام وقصره تابع لمقتضى الحال الذى هو عماد البلاغة عند من يعرف البلاغة وليس تابعا للبيئة ولا متأثرا بالوسط .

(٢) دعوى أن أهل مكة كانوا أقل فصاحة وبلاغة من أهل المدينة دعوى يكذبها الواقع والتاريخ الصحيح فإن قريشا وهم أهل مكة كان إليهم الحكم النافذ والقول الفصل بين الشعراء والخطباء وكانوا من المكان الأعلى فى معرفة أساليب الكلام وفنونه.



(٣) القرآن الكريم قد تحدى العرب في بعض السور المدنية، اقرأ قوله تعالى فى سورة البقرة المدنية «وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله» إلى قوله «فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين» كما تحداهم فى السور المكية بقوله فى سورة هود المكية (فأتوا بعشر سور مثله مفتريات) وفى سورة الإسراء المكية بقوله «قل لئن اجتمعت الأنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا» فإنك ترى التحدى الواقع في السورة المدنية جاء بسورة وهو يصدق بأقصر سورة مثل «إنا أعطيناك الكوثر» فلو كان متأثرا بهم فى القرآن لكانوا أقدر على معارضته والإتيان بمثل ما تحداهم به وأزيد وبهذا كله ظهر أن هذه الشبهة هباء وأن القول بها هذر وهراء وقد بينا حكمة قصر القسم المكي فيما تقدم.

(ثانيا) قالوا إن القسم المكى خال من التشريعات التفصيلية والأحكام العملية وأما القسم المدنى فقد كثرت فيه هذه التشريعات وذلك لأن محمدا صلى الله عليه وسلم بعد أن هاجر إلى المدينة واختلط بأهل الكتاب وعرف تشريعاتهم نهج نهجهم ونحا نحوهم وهذا دليل على أنه قد تأثر بهم وأخذ من علومهم.

وللرد على هذه الشبهة الواهية نقول:

١- إن القرآن نزل بمكة على قوم لا يقرون بأصول الإيمان الثلاثة وهى الإلهيات والنبوات والبعث وما يتبعه من جزاء وكانوا مع ذلك لا يحترمون نفسا ولا مالا ولا عرضا فكان من الطبيعي ومن البدهى أن يدعوهم أولا إلى أصول الايمان وإلى أصول الاخلاق التى أجمعت العقول السليمة على وجوب التحلي بها والتى لا حياة للإنسانية بدونها وكان لزاما أن يحاجهم فى ذلك ويقيم عليهم الأدلة والبراهين فإذا تقررت هذه الأصول في النفوس واستجاب لها من شرح الله صدره بالإسلام أخذ يدعوهم إلى نظم المعاملة الحقة بينهم وبين خالقهم الذى أقروا به، وبينهم وبين بعضهم بعد انصياعهم لحرمة النفوس والعقول والأموال والأعراض وهذه هى التشريعات التفصيلية وهى فروع لتلك الأصول وما لم يقروا بالأصول لايصح أن يخاطبوا بالفروع فكان نهج القرآن فى المكى والمدنى هو الموافق لبداءة العقول لا لأنه تأثر بأهل الكتاب كما يزعم المضلل الجهول.

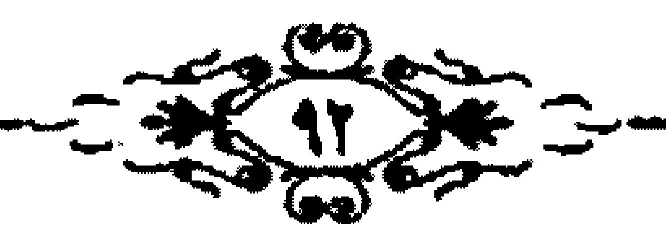


٢- كيف يكون النبى ﷺ تعلم من اليهود أو النصارى مع أن القرآن قد نعى عليهم كفرهم وفسقهم وبخاصة اليهود فقد أكثر القرآن من ذكر سيئاتهم وسوآتهم ولعنهم فى غير موضع اقرأ قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾[١] وقوله تعالى ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ...﴾[٢] وقوله تعالى ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[٣] .

وقوله تعالى ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾[٤] ثم انظر تحديه لليهود بقوله ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[٥] وبقوله ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[٦] وإلى تحدى النصارى بقوله ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾[٧] وغير ذلك من الآيات فلو كان القرآن قد استمد من ينبوع أهل الكتاب كما يزعم صاحب هذه الشبهة لأظهروا ذلك دفاعا عن تسفيهه لهم ولعنه إياهم وردا لوصفهم بالكذب والتحريف ولكنهم كلما جاءتهم آية وقفوا مبهوتين وكلما تحداهم كأنهم ألقموا حجرا فكيف يكون لهم فضل التعليم ولهم هذه المواقف المزرية، إن هذا لا يقوله إلا مأفون مجنون.

«ثالثا» قالوا اشتمال القسم المكى على الوعيد والتهديد والقسوة والشدة والعنف والحدة دون القسم المدنى الذى اشتمل على الصفح والعفو وقد استدلوا

١- سورة النساء (الآية ٥٢)
٢- سورة التوبة (الآية ٣٠)
٣- سورة البقرة (الآية ٧٥)
٤- سورة المائدة (الآية ٧٢)
٥- سورة البقرة (الآية ٩٤)
٦- سورة آل عمران (الآية ٩٣)
٧- سورة آل عمران (الآية ٦١)



على شدة القسم المكى بسور «تبت يدا أبى لهب» و«العصر إن الانسان لفى خسر» و«ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر» وغير ذلك وجعلوا هذا دليلا على اختلاف القرآن باختلاف الوسط تشكيكا فى أنه من عند الله.

«وللرد على هذه الشبهة، نقول:

١- إن كلا من القسم المكى والمدنى يشتمل على الشدة والوعيد إذا اقتضى المقام ذلك ويشتمل على اللين والعفو إذا دعا الحال إلى ذلك وهذا شأن القرآن الكريم فى البشارة والنذارة والوعد والوعيد وأنواع خطاباته، اقرأ ما جاء فى سورة الأعراف المكية (خذ العفو وأمر بالمعروف وأعرض عن الجاهلين) وفى سورة فصلت المكية (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون -إلى قوله- وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) واقرأ قوله تعالى فى سورة البقرة المدنية (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين -إلى قوله- فى طغيانهم يعمهون).

وقوله فيها ﴿الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس بذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا﴾ وقوله فى سورة آل عمران المدنية ﴿إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا وأولئك هم وقود النار﴾ وقوله تعالى فى سورة النساء المدنية ﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا﴾ وبهذا تعلم أن المكى كما اشتمل على الوعيد اشتمل على اللين وأن القسم المدنى كما اشتمل على اللين اشتمل على الوعيد والتهديد فالقول بأن بينهما فرقا واختلافا ذلك قول من لم يقرأ القرآن ولم يعرف مكيه من مدنيه.

٢- إن ما ذكره صاحب الشبهة من السور المذكورة نشأ من جهله بأسباب النزول وبما اشتملت عليه من المعانى التى فيها صلاح الأمة وسعادتها.

ولنذكر سبب نزول ﴿تبت يدا﴾ نقلا عن الواحدى فى أسباب النزول فقد روى عن ابن عباس قال «صعد رسول الله ﷺ ذات يوم الصفا فقال يا صباحاه فاجتمعت إليه



قريش فقالت مالك قال أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أما كنت تصدقون قالوا بلى قال فإني نذير لكم بين يدى عذاب شديد، فقال أبو لهب تبا لك، لهذا دعوتنا جميعا فأنزل الله عز وجل «تبت يدا أبى لهب وتب» إلى آخرها رواه البخارى، أهـ و أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله ﴿وامرأته حمالة الحطب﴾ قال كانت تحمل الشوك فتطرحه فى طريق النبى ﷺ ليعقره وأصحابه.

وقال الواحدى أيضا «بسم الله الرحمن الرحيم ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر» قال مقاتل والكلبى نزلت فى حيين من قريش بنى عبد مناف وبنى سهم كان بينهما لحاً فتعاقد السادة والاشراف أيهم أكثر، فقال بنو عبد مناف نحن أكثر سيدا وأعز عزيزا وأعظم نفرا، وقال بنو سهم مثل ذلك فكثرهم بنو عبد مناف ثم قالوا نعد موتانا حتى زاروا القبور فعدوا موتاهم فكثرهم بنوسهم لأنهم كانوا أكثر عددا فى الجاهلية .

وقال قتادة نزلت فى اليهود قالوا «نحن أكثر من بنى فلان وبنو فلان أكثر من بنى فلان ألهاهم ذلك حتى ماتوا ضلالا» هذا سبب النزول لكل من السورتين والغرض من سورة «تبت يدا» الوعيد والإنذار لأبى لهب وامرأته على تكذيبهما للرسول ﷺ واقامتهما العقبات فى سبيل دعوته وفى ذلك قمع لغيرهما ليعم الإيمان وتنتشر الفضيلة وليس هذا بأشد من لعن اليهود الذى هو الطرد من رحمة الله والوعيد بسوء المصير لمن يشاقق الرسول فى الآيات المدنية.

«وأما سورة ألهاكم» فالغرض منها النهى عن التكاثر والتحذير من عاقبته الوخيمة وبيان أن التفاخر بالأموال والأحساب والحرص عليها مدعاة للتلهى عن الخير حتى لا يغتروا بالعرض الفانى من الماديات ويقبلوا على تهذيب نفوسهم وتنمية عقولهم وأرواحهم لينالوا سعادة الدنيا والنعيم فى الآخرة وأن هذا لهو الإرشاد إلى طريق الخير لمن بصره الله وهداه.

وأما سورة «والعصر» فالغرض منها تنويع أفراد الانسان إلى نوعين:

«أحدهما» حاد عن طريق الهدى والرشاد فلم يمتلئ قلبه بنور الإيمان ولم تلن جوارحه بصالح الأعمال وطرح الحق وراء ظهره وجعل الباطل كله همه



وخلا قلبه من الصبر فى السراء والبأساء فهو فى هلع وجزع وغمط للحق، لاشك أن هذا خاسر هالك قد أضاع عمره فيما لا يفيده.

«ثانيهما» استنارت بصيرته بعقيدة الإيمان وقام بالأعمال الصالحة لخير نفسه وخير غيره فأفاد نفسه وأفاد المجموع وجعل الحق رائده والصبر فى جميع المواطن هاديا له ولغيره وينطوى تحت هذه الفضائل من تربية القوتين النظرية والعملية ويعود بالسعادة على العالم ما لو أردنا تقصيه لطال بنا المقام فعجيب أن تعد هذه السورة وما قبلها من الأساليب الخارجة عن المألوف فى الخطاب ولكنه الجهل يدفع بصاحبه إلى الخطأ عصمنا الله من الزلل فى القول والعمل.

«رابعا» قالوا إن القسم المكى قد كثر فيه القسَمُ بالأشياء المحسوسة من الأمكنة والأزمنة والثمار وما ذاك إلا لأن أهل مكة قوم مداركهم لا تعدو المحسوسات فكان القرآن متأثرا بوسطهم بخلاف القسم المدنى فانه لم يشتمل على ذلك ضرورة أن اليهود كانوا بالمدينة وهم قوم مهذبون تعلو مداركهم إلى ما فوق المحسوسات لذا تأثر القرآن هناك بوسطهم ويجعلون هذا الاختلاف دليلا على أن الرسول ﷺ هو الذى أتى بالقرآن من عند نفسه.

وللرد على هذه الشبهة نقول:

١- قد بينا فيما تقدم أن أهل مكة كانوا أرقى العرب فصاحة وبلاغة وكان إليهم الحكم النافذ فى خطب العرب وقصائدهم وكان ذلك من أكبر مفاخرهم وكيف لا يعرفون غير المحسوسات وقد طولبوا بالإيمان بالله وبصفاته بما غاب عنهم من اليوم الآخر وما فيه وأقيمت عليهم الأدلة العقلية والكونية فهل يخاطب بهذا ويطالب به من لا يدرك ما وراء الحس فوصف أهل مكة بالانحطاط العقلى لا يكون إلا ممن تجرد من عقله وعميت بصيرته.

٢- إن القسم بهذه الأشياء قد كثر فى القسم المكى لأن دعوة أهل مكة كانت إلى أصول الإيمان من الإلهيات وغيرهما وبيان الحجج الدالة على ذلك فى القسم بهذه الأشياء العظيمة التنبيه على أنها آيات ودلائل على قدرة الله تعالى والإشارة إلى ما فى هذه الأشياء من المنافع العظيمة وبذلك تنتقل عقولهم من الاهتداء بها إلى الاعتراف بالخالق جلا وعلا والله تعالى أقسم لهم بما فيه النفع لهم من المحسوسات كالشمس



والكواكب وغيرهما أو المعنويات كالقرآن فقد أقسم به غير مرة بل أقسم بنفس الإنسان، وبالرسول ﷺ لأن نفعه عام وهدايته شاملة أرسله الله رحمة للعالمين .

أبعد هذا يقال إن اشتمال القسم المكي على القسم بهذه المحسوسات دليل على تأثره بالبيئة والكلام في أقسام القرآن لا يفي به هذا المختصر.

«خامسا» قالوا إن القسم المكي قد افتتح كثير من سوره بألفاظ غير ظاهرة المعنى مثل (ألم) و(حم) و(طسم) وغيرها من فواتح السور المفتتحة بالحروف الهجائية والخطاب بها كالخطاب بالمهمل الذى لا يفيد واشتمال القرآن عليها ينافي كونه هدى للناس فأى هداية تقع بأمثال هذه الحروف التي لا تفيد معنى فهى لا تعدو أحد أمرين إما أن تكون رموزا قد قصد بها التهويل والتعمية وإظهار القرآن في مظهر مخيف، وإما أن تكون رموزا قد وضعت لتميز بين المصاحف المختلفة ثم ألحقها مرور الزمن بالقرآن فصارت قرآنا.

هذا ما يقوله بعض الطاعنين فى القرآن وقد تجاوز بعضهم الحد فى الطعن فقال إن هذه الألفاظ مما وضعه اليهود من كتبة محمد ﷺ ومعناها (أو عز إلى محمد) أو (أمرنى محمد) والذى حملهم على زيادتها تبرؤهم من الإيمان بما يأمرهم بكتابته، هذا ما يقوله الطاعنون على فواتح السور والغرض منه التشكيك فى القرآن.

«وللرد على هذه الشبهة» نقول:

١- أما دعوى أن هذه الفواتح ليس لها معنى وأن اشتمال القرآن عليها لا يفيد فإنها دعوى من لم يطلع على آراء العلماء في فواتح السور وأكثر العلماء على أن فاتحة كل سورة اسم للسورة التى افتتحت بها وقد وردت آثار كثيرة تفيد ذلك «فقد روى عن النبى ﷺ أنه قال «من قرأ حم السجدة حفظ إلى أن يصبح» وروى عنه أيضا أنه قال «يس قلب القرآن» وقد اشتهرت بعض السور بالتسمية بها «ولا يرد» كونها وردت فى فواتح سور مختلفة بلفظ واحد لأن ذلك لا ينافى كونها أسماء للسور كالأعلام المشتركة اشتراكا لفظيا وهذا معهود فى اللغة العربية ويضم إلى كل اسم ما يميز مسماه عن غيره مثل «الم البقرة» و«الم آل عمران» وهكذا.

وعلى ذلك فتكون هذه الأسماء مفيدة لمعنى معلوم عند المخاطبين ويدل على هذا الرأى خلاف الآثار السابقة وشهرة التسمية أنه لو لم تكن العرب قد فهموا منها مدلولا لكانوا أول من أنكر ذلك على النبى ﷺ مع أن النبى ﷺ قد تلا عليهم حم وص والم وغيرها ولو أنكروا لنقل إلينا ذلك فعدم إنكارهم دليل على أنهم كانوا يفهمون منها معناها، كيف وهم قد كانوا حريصين على وجود هفوة أو زلة يشهرون بها وأيضا فالرسول ﷺ قد تحداهم بالقرآن غير مرة فكيف يقع التحدى بمالا معنى له من الكلام ويسكتون على ذلك وإذا ثبت أنها لمعنى مفهوم لو تكن من قبيل المهمل ولا تنافي كون القرآن هدى وبيانا للناس.

٢- أما قول بعض الطاعنين إنها من وضع اليهود الذين كانوا يكتبون لمحمد ﷺ فهذه دعوى ساقطة عن الاعتبار ضرورة أنه لم يعرف فى أى تاريخ أن النبى ﷺ كان له كتبة من اليهود فهذا مجرد اختلاق على الحقيقة والتاريخ وعلى فرض صحة ذلك ففي أى لغة يكون الم أو كهيعص أو طسم أو غيرها بمعنى «أوعز إلى محمد» أو «أمرني محمد» هذا زعم كاذب وقول لا وجود له إلا في وهم مخترعه وبهذا قد ذهبت هذه الشبهة هباء كما ذهب غيرها.

«سادساً» قالوا إن القسم المكى خال من الحجج والبراهين بخلاف القسم المدنى فإنه هو الذى جاء بالحجة والبرهان وهذا يدل على تأثر القرآن بالوسط الذى كان فيه محمد ﷺ.

وللرد على هذه الشبهة نقول:

إن هذا زعم من لم يدرس القرآن ولم يعرف مكيه من مدنيه فإنه لو نظر قليلا لوجد القسم المكى مملوءا بالحجج والبراهين على توحيد الله وعلى البعث والنبوات التى تبهر العقول وتأخذ بالألباب وتهدى الضال ولكنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور وإن شئت نموذجا من براهين القسم المكى فاقرأ قوله تعالى فى سورة الأنبياء المكية «لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدتا» وقوله تعالى فى سورة الروم المكية «ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم

إذا أنتم بشر تنتشرون» إلى قوله «وله من فى السموات والأرض كل له قانتون» وقوله تعالى فى سورة النمل المكية ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ -إلى قوله تعالى- قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[1] ولو تتبعنا سور القرآن المكية لوجدنا أكثرها لا يخلو من حجة ودليل فدعوى خلو القسم المكي من الحجاج قول من لم يكلف نفسه مؤونة النظر فى القرآن ولكنه يرجم بالغيب ولا يدرى ماذا يقول.

هذه خلاصة الشبه وردها وقد اقتصرنا على ما ذكر ليكون نموذجا لغيره والله الموفق للصواب.

* * *

١ - سورة النمل (الآية ٦٠ : ٦٤)



المبحث السادس
جمع القرآن وتاريخه

- معنى الجمع .
- كتابة القرآن في عهد النبي ﷺ .
- جمع القرآن في عهد أبي بكر الصديق .
- جمع القرآن في عهد عثمان رضي الله عنه .
- المصاحف التي كتبت في عهد عثمان .
- الشبهة التي وردت على جمع القرآن .

معنى جمع القرآن

ورد جمع القرآن في الروايات على حالتين:

الأولى جمعه بمعنى «حفظه» على عهد الرسول ﷺ، ومنه قوله تعالى ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾[1] أي جمعه في صدرك وقراءته على لسانك، ومما ورد فيه، ما في صحيح البخاري من حديث قتادة قال سألت أنس ابن مالك رضي الله عنه عمن جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ، قال أربعة كلهم من الأنصار أبي بن كعب ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبو زيد، قلت لأنس من أبو زيد؟ قال أحد عمومتي وفي البخاري عن أنس أيضا قال «مات النبي ﷺ ولم يجمع القرآن غير أربعة: أبو الدرداء، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبوزيد ونحن ورثناه» وفي رواية أخرى قال: أبو زيد ولم يترك عقبا وكان بدريا، وقد روى أبو داود بإسناد على شرط الشيخين عن ثمامة عن أنس أن اسم أبي زيد قيس بن السكن: وقال القرطبي إن اسمه سعد بن عبيد ورواية أبي داود أصح وههنا تعارض بين الحديثين من وجهين:

أولهما: أن الحديث الأول المروى عن أنس لا يدل على حصر من حفظ القرآن كله على عهد النبي ﷺ في أربعة بخلاف الحديث الثاني فإنه يدل على الحصر في أربعة ويشهد للحديث القاضي بعدم الحصر ما هو المعروف بل المنقول تواترا أن الذين حفظوا القرآن على عهد رسول الله ﷺ أكثر من أربعة منهم الخلفاء الأربعة فقد تظاهرت الروايات بأنهم جمعوا القرآن على عهد رسول الله ﷺ وكذلك عبد الله بن مسعود وسالم مولى أبي حذيفة رضي الله عنه وغيرهما.

ثانيهما: أن الحديث الثاني فيه أبو الدرداء بدلا من أبي بن كعب الذي في الحديث الأول فمقتضى الحديث الأول أن أبي كعب ممن جمعوا القرآن على عهد

١- سورة القيامة (الآية ١٧)

رسـول الله ﷺ ومـقـتـضى الحـديث الثـانى أنه ليس منهم ضـرورة الحصـر فى أربعة ليس منهم أبى بن كعب.

(والجواب عن هذا التعارض) أن الحصر فى الحديث الثانى إضافى وليس حقيقيا أى بحسب الواقع ونفس الأمر، لأنه لا يمكن الإحاطة بذلك مع كثرة الصحابة وتفرقهم فى البلاد ولا يتم الحصر الحقيقى لأنس رضى الله عنه إلا إذا كان قد لقى كل واحد منهم وأخبره عن نفسه أنه لم يكمل له جمع القرآن فى عهد رسول الله ﷺ وهذا فى غاية البعد عادة.

وإذا كان الأمر كذلك وجب القول بأن الحصر إضافى لا حقيقى حتى يتأتى التوفيق بين الحديثين الصحيحين ومعنى كون الحصر إضافيا أن أنسا رضى الله عنه لم يقصد فى الحديث الثانى الحصر بالنسبة لجميع الصحابة بل قصده بالنسبة للحاضرين معه وقت هذا القول ويكون قد قال ذلك لغرض من الأغراض الدينية، وقرينة الواقع وهى أنه لم يستوعب جميع الصحابة تؤيد ذلك، على هذا فلا تعارض بين الحديثين.

وقد وفق القرطبى بينها بوجه آخر حيث قال ما نصه: قال ابن الطيب رضى الله عنه لا تدل هذه الآثار على أن القرآن لم يحفظه فى حياة النبى ﷺ ولم يجمعه غير أربعة من الأنصار كما قال أنس بن مالك فقد ثبت بالطرق المتواترة أنه جمع القرآن عثمان وتميم الدارى وعبادة بن الصامت وعبد الله بن عمرو بن العاص فقول أنس لم يجمع القرآن غير أربعة (يحتمل) أنه لم يجمع القرآن وأخذه تلقينا من رسول الله ﷺ غير تلك الجماعة فإن أكثرهم أخذ بعضه عنه وبعضه عن غيره وقد تظاهرت الروايات بأن الأئمة الأربعة جمعوا القرآن على عهد النبى ﷺ لأجل سبقهم إلى الإسلام وإعظام الرسول ﷺ لهم.

قلت لم يذكر القاضى، عبد الله ابن مسعود وسالما مولى أبى حنيفة رضى الله عنهما، فيما رأيت وهما ممن جمع القرآن. ثم ذكر القرطبى بعد ذلك روايات تدل على أن عبد الله بن مسعود ممن جمع القرآن. وقد عرفت أنه يمكن الجمع بين الحديثين.

وأما بعد وفاته ﷺ فقد أتم حفظه آلاف كثيرة من الصحابة وقد اشتهر بإقراء القرآن سبعة من الصحابة وهم عثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب وأبى

بن كعب وزيد بن ثابت وعبد الله بن مسعود وأبو الدرداء وأبو موسى الأشعرى. فلم يمض زمن يسير على وفاة النبى ﷺ حتى كان القرآن كله مجموعا أى محفوظا فى صدور الآلاف من الصحابة.

(الحالة الثانية جمع القرآن بمعنى كتابته) وقد كان جمع القرآن بمعنى كتابته فى ثلاثة عهود.

(أولها) جمعه فى عهد النبى ﷺ

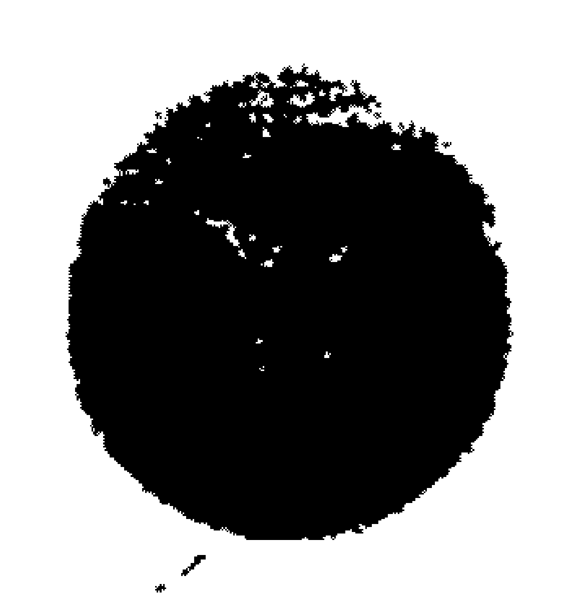
(ثانيها) جمعه فى عهد أبى بكر الصديق رضى الله عنه.

(ثالثها) جمعه فى عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه [ولنتكلم عليه فى عهوده الثلاثة مع ذكر كيفية كل وسببه والفرق بينه وبين غيره فنقول]:.

* * *



(أولا- جمع القرآن بمعنى كتابته فى عهد النبى ﷺ)



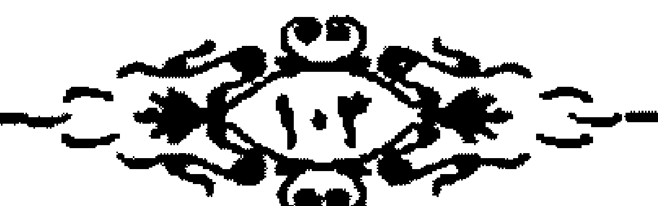
قد ورد فى ذلك ما أخرجه الحاكم فى المستدرك بسند على شرط الشيخين عن زيد بن ثابت (قال كنا عند رسول الله ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع) قال البيهقى يشبه أن يكون المراد به ما نزل من الآيات المفرقة فى سورها جمعها فيها بإشارة من النبى ﷺ وروى النيسا بورى عن ابن عباس قال كان رسول الله ﷺ إذا نزلت عليه سورة دعا بعض من يكتب فقال ضعوا هذه السورة فى الموضع الذى يذكر فيها كذا وكذا.

فالقرآن كله كان مجموعا أى مكتوبا على عهد رسول الله ﷺ فإنه ما نزلت آية إلا وقد أمر رسول الله ﷺ من يكتب له أن يضعها فى موضع كذا من سورة كذا ولا نزلت سورة إلا وقد أمر رسول الله ﷺ أن يضعها بجنب سورة كذا وإن الذين حفظوا القرآن على عهد رسول الله ﷺ لم يكونوا قد جمعوه بين الدفتين ولم يلزموا القراء توالى سوره وذلك لأن الواحد منهم كان إذا حفظ سورة أنزلت على رسول الله ﷺ أو كتبها ثم خرج فى سرية أو غزوة أو غاب لشأن من الشئون ونزل وقت غيبته شئ من القرآن ثم رجع أخذ بعد رجوعه فى حفظ ما نزل وقت مغيبه وكتابته ويتتبع ما فاته على حسب ما يتسهل له فيقع فيما يكتبه تقديم وتأخير من هذا الوجه.

وكان منهم من يعتمد على حفظه فلا يكتب على ما كان من عادة العرب فى حفظ أنسابها وأشعار شعرائها من غير كتابة منهم وبعضهم كان يكتبها فى مواضع مختلفة فى قرطاس وكتف وعسب ثقة منهم بما كانوا يعهدونه من جد المسلمين فى حفظ القرآن فلا يرون بأكثرهم حاجة إلى مصحف ينظر فيه.

ويتلخص من هذا «أمران»:

«أحدهما» أن القرآن كله جمع بمعنى أنه كتب جميعه بين يدى الرسول ﷺ بواسطة كتاب الوحى الذين كان يأمرهم النبى ﷺ، غير أنه كان مفرقا فى العسب والأكتاف وغيرها ولم يكن مجموعا بين دفتين.



«ثانيهما» أن كثيرا من الصحابة على عهد رسول الله ﷺ كتب كثيرا منه على قدر ما تسهل له وكانت كتابتهم له أيضا متفرقة غير مجموعة فى مصحف واحد، وإن صار مكتوبا جميعه عند مجموعهم بمعنى أن هذا كتب كذا وذاك كتب كذا وقد يتفق عدد منهم فيما كتبوا وقد يزيد أحدهم عن الآخر وقد يكتب أحدهم سورة أو أكثر غير ما كتبه الآخر وهكذا.

وإنما لم يجمع النبى ﷺ القرآن فى المصحف لما كان يترقبه من ورود ناسخ لبعض أحكامه أو تلاوته ولما كان يترقبه أيضا من تتابع الوحى، وأيضا فإن ترتيب آياته وسوره ليس على ترتيب نزوله فقد كانت تنزل آية أو سورة وتكون فى الترتيب قبل التى نزلت قبلها وهكذا فيكون جمعه فى مصحف واحد عرضة للتغيير والتبديل فلما انقضى نزوله بوفاته ﷺ وعلم ترتيبه ألهم الله الخلفاء الراشدين جمعه على النحو المخصوص وفاء بوعده الصادق بضمان حفظه على هذه الأمة فكان ابتداء ذلك على يد أبى بكر الصديق بمشورة عمر رضى الله عنهما كما سيأتى.

والسبب الباعث على جمع القرآن أى كتابته بأمر الرسول ﷺ «أمور»

«أولها» تبليغ الوحى على الوجه الأكمل لأن الاعتماد على حفظ الصحابة غير كاف لأنهم عرضة للنسيان وللموت فلو اعتمد على حفظهم وحده لخشى ضياع شئ منه بالنسيان أو بالموت أما الكتابة فباقية لا يتطرق إليها ذلك.

«ثانيها» تبليغ الشاهد الغائب وتبليغ الصحابة لمن بعدهم.

«ثالثها» معاضدة المكتوب للمحفوظ ولذا كان الحفظ والكتابة مصدرين رجع إليهما الصحابة عند جمع القرآن فى مصحف واحد.

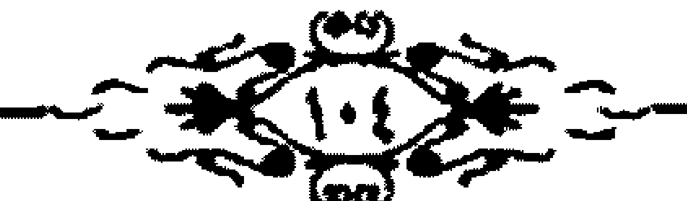
«وقد امتازت الكتابة فى عهد الرسول ﷺ» بأمور:

(أولها) أنه لم يكن مجموعا فى مصحف واحد.

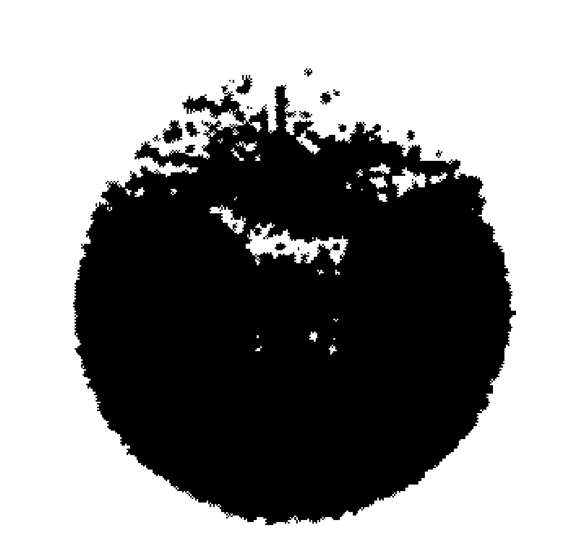
(ثانيا) أنه لم يكن مرتب السور والآيات.

(ثالثا) أنه كان مكتوبا بالأحرف السبعة التى نزل عليها.

(رابعا) أن بعض الصحابة كان قد كتب بعض المنسوخ تلاوة وبعض ما هو ثابت بخبر الواحد ولم يقتصر على ما ثبت بالتواتر كما سيأتى.



(جمع القرآن فى عهد أبى بكر الصديق رضي الله عنه)



قد علمت أن القرآن كان محفوظا كله في صدور الرجال ومكتوبا كله على عهد رسول الله ﷺ إلا أنه كان متفرقا.

وأول من جمعه بين الدفتين في مصحف واحد بعد وفاة رسول الله ﷺ أبو بكر الصديق رضى الله عنه لما استحر القتل بالقراء يوم اليمامة وكان فى ربيع الأول سنة ١٢ اثنتى عشرة وقيل فى أواخر سنة إحدى عشرة كما فى كتب التاريخ فى زمن خلافته وقتل منهم فى ذلك اليوم على ما قيل سبعمائة، وذلك بإشارة عمر بن الخطاب على أبى بكر رضى الله عنهما بجمع القرآن مخافة أن يموت أشياخ القراء كأبى وابن مسعود وزيد فندبا زيد بن ثابت رضى الله عنه إلى ذلك فجمعه غير مرتب السور بعد تعب شديد.

يدل على ذلك ما رواه البخارى عن زيد بن ثابت قال: أرسل إلىّ أبو بكر مقتل أهل اليمامة وعنده عمر فقال أبو بكر إن عمر أتانى، فقال إن القتل قد استحر يوم اليمامة بالناس، وإنى أخشى أن يستحر القتل بالقراء فى المواطن، فيذهب كثير من القرآن إلا أن تجمعوه وإنى لأرى أن تجمع القرآن، قال أبو بكر: فقلت لعمر كيف أفعل شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ، فقال هو والله خير، فلم يزل يراجعنى حتى شرح الله لذلك صدرى، ورأيت الذى رأى عمر.

قال زيد: وعنده عمر جالس لا يتكلم فقال لى أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل ولا نتهمك، كنت تكتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتتبع القرآن فاجمعه.

فوالله لو كلفنى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل على مما أمرنى به من جمع القرآن، قلت، كيف تفعلان شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ فقال أبو بكر: هو خير فلم أزل أراجعه حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر، فقمت فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف والعسب وصدور الرجال، حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع أبى خزيمة الأنصارى لم أجدهما مع غيره «لقد جاءكم رسول من أنفسكم» إلى آخرها فكانت الصحف

التى جمع فيها القرآن عند أبى بكر حتى توفاه الله ثم عند عمر حتى توفاه الله ثم عند حفصة» وقد ورد فى رواية أخرى «مع خزيمة أو أبى خزيمة».

وقد علمت أن القرآن كان مكتوبا بأمر النبى ﷺ ولكنه كان مفرقا فى الرقاع والأكتاف والعسب فالذى فعله أبو بكر وأمر به زيدا إنما هو نسخها من مكان إلى مكان ليكون مجتمعا، فكان ذلك بمنزلة أوراق وجدت فى بيت رسول الله ﷺ فيها القرآن منتشر فجمعها جامع وربطها بخيط حتى لا يضيع منها شئ.. وقد اعتمد فى ذلك على الرقاع وصدور الرجال الحفاظ الذين شاهدوا تلاوته من الرسول ﷺ فكان تزوير ما ليس منه مأمونا.

وأخرج ابن أبى داود عن طريق هشام بن عروة عن أبيه أن أبا بكر قال لعمر ولزيد «اقعدا على باب المسجد فمن جاءكما بشاهدين على شئ من كتاب الله فاكتباه» رجاله ثقاة مع انقطاعه، وقد اختلف العلماء فى المراد بالشاهدين فقال ابن حجر المراد بالشاهدين الحفظ والكتابة، وقال السخاوى المراد أنهما يشهدان على أن ذلك المكتوب كتب بين يدى رسول الله ﷺ ، أو المراد أنهما يشهدان على أن ذلك من الوجوه التى نزل بها القرآن، قال أبو شامة وكان غرضهم أن لا يكتب إلا من عين ما كتب بين يدى رسول الله ﷺ لا من مجرد الحفظ قال: ولذلك قال فى آخر سورة التوبة لم أجدها مكتوبة مع غيره لأنه كان لا يكتفى بالحفظ دون الكتابة، وبهذا تعلم أنهم بالغوا فى التوثق فى كتابة القرآن فلم يقبلوه إلا من المصدرين معاً وهما الحفظ والكتابة بين يدى الرسول ﷺ.

«والسبب الباعث على الجمع فى عهد أبى بكر»

يعلم من الرواية السابقة وهو خوف ضياع شئ من القرآن وقد صرح بذلك فى قوله «وإنى أخشى أن يستحر القتل بالقراء فى المواطن فيذهب كثير من القرآن» أى فيضيع كثير من القرآن بموت الحفاظ وقد يكون عند أحدهم شئ من المكتوب يضيع بموته: وقد علمت أن المصدرين المعول عليهما فى جمع القرآن هما الحفظ والكتابة ولهذا كانت العناية شديدة بحفظ الصحف التى كتبها زيد بن ثابت لتكون مرجعاً عند الحاجة فكان موضعها عند الخليفة الأول أبى بكر ثم عند الخليفة الثانى عمر ثم عند حفصة أم المؤمنين إلى أن طلبها منها عثمان الخليفة الثالث عند الجمع الثالث كما يأتى.



«ويمتاز الجمع في عهد أبي بكر بأمور»:

(أولها): أنه اقتصر على ما لم تنسخ تلاوته. (ثانيها): أنه لم يقبل فيه إلا ما أجمع الجميع على أنه قرآن وتواترت روايته ولم تقبل فيه رواية الواحد ولذا ردت رواية عمر في آية الرجم لأنها لم تتواتر وأما آخر براءة التي قيل فيها «فلم أجدها مع غيره» فالمراد أنه لم يجدها مكتوبة عند غيره لأنه كان لا يكتفي بالحفظ دون الكتابة وذلك لاينافي أنها كانت محفوظة لجمع كثير يتحقق بهم التواتر فنقلها عن النبي ﷺ بالتواتر. (ثالثها): إنه لم ينقل فيه إلا ما كان مكتوبا بين يدي الرسول ﷺ.

«وقد قيل» إن ثبوت الروايات الدالة على أن أبا بكر رضي الله عنه أول من جمع القرآن بعد رسول الله ﷺ ينافي ما ورد من أن عليا رضي الله عنه أول من جمع القرآن بعد رسول الله ﷺ ويؤيد ذلك ما نقله السيوطي عن ابن الضريس من حديث محمد بن سيرين عن عكرمة قال: «لما كان بدء خلافة أبي بكر قعد علي بن أبي طالب في بيته فقيل لأبي بكر قد كره بيعتك فأرسل إليه فقال: أكرهت بيعتي، فقال لا والله، قال ما أقعدك عني؟ قال رأيت كتاب الله يزاد فيه فحدثت نفسي أن لا ألبس ردائي إلا لصلاة حتى أجمعه، قال له أبو بكر فإنك نعم ما رأيت قال محمد فقلت لعكرمة ألفوه كما أنزل الأول فالأول: قال لو اجتمعت الأنس والجن على أن يؤلفوه هذا التأليف ما استطاعوا»

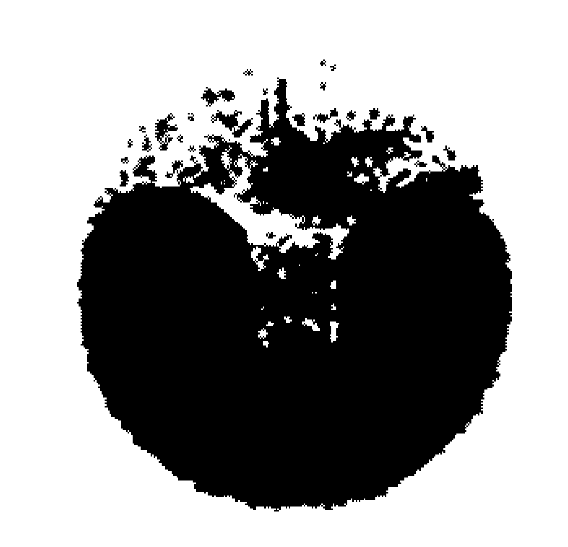
وأخرج هذا الأثر ابن اشته من وجه آخر عن ابن سيرين وفيه أنه كتب في مصحفه الناسخ والمنسوخ وأن ابن سيرين قال فطلبت ذلك الكتاب وكتبت فيه إلى المدينة فلم أقدر عليه فهذه الرواية صريحة في أن عليا كتب مصحفا في بدء خلافة أبي بكر فيتعين أن يكون المراد بالجمع الذي قاله علي في الروايات السابقة كتابة القرآن في مصحف وذلك ينافي ما ثبت من أن أول من جمع القرآن بعد رسول الله ﷺ أبو بكر.

«ويجاب عن ذلك»:

بأن عليا وغيره ممن كتبوا المصاحف إنما كتب كل واحد منهم معتمدا على محفوظه وروايته ولم يقتصر على المتواتر وغير منسوخ التلاوة وأما أبو بكر فكان أول من جمع القرآن واقتصر فيه على ما أجمع عليه الجميع وتواترت روايته عن النبي ﷺ ووجد مكتوبا في عهده ﷺ واقتصر فيه على مالم تنسخ تلاوته بخلاف جمع علي وغيره ما تقدم.



(جمع القرآن فى عهد عثمان ﷺ)

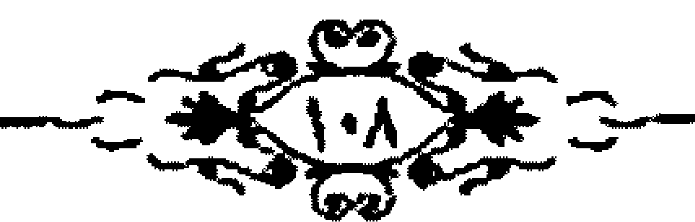


لما كان عهد عثمان رضى الله عنه وتفرق الصحابة في البلدان اختلف الناس فى القراءات واشتد الأمر فى ذلك وعظم اختلافهم وتشبثهم كما وقع بين أهل الشام وأهل العراق فى غزوة ارمينية استشار عثمان الصحابة فرأوا ورأى معهم جمع الناس على مصحف واحد لا يتأتى معه اختلاف ولا تنازع ولا مراء فأرسل إلى حفصة رضى الله عنها فى طلب الصحف التى كتبت فى عهد أبى بكر ثم انتقلت منه إلى عمر ومنه إليها فبعثت بها إليه لتكون أساساً فى جمع القرآن ثم عهد عثمان إلى زيد بن ثابت وعبد الله ابن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فأمرهم أن ينسخوا الصحف فى المصاحف.

ثم قال للرهط القرشيين الثلاثة: ما اختلفتم فيه أنتم وزيد فاكتبوه بلسان قريش فإنه نزل بلسانهم فلما نسخوا الصحف فى المصاحف مع ترتيب السور على الوجه المشهور بعث عثمان فى كل أفق بمصحف من تلك المصاحف وحمل الناس على القراءة بوجه واحد تلافيا لما نشأ فى ذلك الوقت من الاختلاف فى القراءة. وأمر بما سوى ذلك من القرآن أن يحرق أو يخرق، ورد الصحف إلى حفصة فبقيت عندها إلى أن توفيت رضى الله عنها.

فأرسل مروان بن محمد إلى عبد الله بن عمر عقب انصرافه من جنازتها ليرسلن إليه تلك الصحف فأرسل بها إليه عبد الله بن عمر فأمر بها مروان فشققت وقال إنما فعلت هذا لأنى خشيت إن طال بالناس الزمان أن يرتاب في شأن هذه الصحف مرتاب.

ومما ورد فى شأن هذا الجمع ما رواه البخارى فى صحيحه عن أنس أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازى أهل الشام فى فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق فأفزع حذيفة اختلافهم فى القراءة، فقال حذيفة



لعثمان يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا فى الكتاب اختلاف اليهود والنصارى فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلى إلينا بالصحف ننسخها فى المصاحف ثم نردها إليك فأرسلت بها حفصة إلى عثمان فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها فى المصاحف.

وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شئ من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم ففعلوا» حتى إذا نسخوا الصحف من المصاحف، رد عثمان الصحف إلى حفصة فأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا وأمر بما سواه من القرآن فى كل صحيفة أو مصحف أن يحرق.

وروى عن زيد بن ثابت أنه قال: «فقدت آية من الأحزاب حين نسخنا المصحف قد كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرأ بها فالتمسناها فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الأنصارى ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾[1] فألحقناها بسورتها فى المصحف وقد ورد أنهم اختلفوا فى التابوت فقال زيد: التابوه، وقال ابن الزبير وسعيد بن العاص: التابوت فرفع اختلافهم إلى عثمان فقال اكتبوه بالتاء.

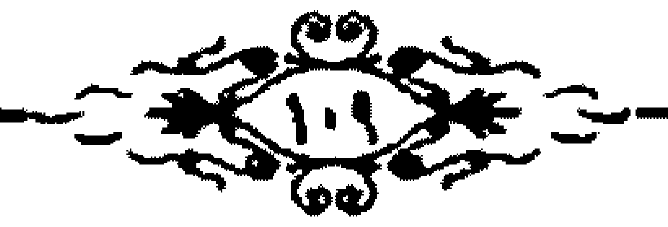
وأخرج بن أبى دواد فى المصاحف من طريق أبى قلابة أنه قال «لما كان فى خلافة عثمان جعل المعلم يعلم قراءة الرجل، والمعلم يعلم قراءة الرجل، فجعل الغلمان يلتقون فيختلفون، حتى ارتفع ذلك إلى المعلمين حتى كفر بعضهم بعضا، فبلغ ذلك عثمان، فخطب فقال:

أنتم عندى تختلفون، فمن نأى عنى من الأمصار أشد اختلافا.

فكأنه والله أعلم لما جاءه حذيفة وأعلمه باختلاف أهل الأمصار تحقق عنده ما ظنه من ذلك ورأى الأمر قد حزب، فأمر بما أمر به.

قال الحافظ ابن حجر وكان ذلك فى أواخر سنة أربع وعشرين وأوائل سنة خمس وعشرين وهو الوقت الذى ذكر أهل التاريخ أن أرمينية فتحت فيه.

١- سورة الأحزاب (الآية ٢٣)



ثم أن عثمان لم يفعل ذلك إلا بعد أن استشار الصحابة وكان ذلك على ملأ منهم فقد ذكر أبو بكر الأنبارى فى كتاب الرد عن سويد بن غفلة قال «سمعت على بن أبى طالب كرم الله وجهه يقول: يا معشر الناس، اتقوا الله وإياكم والغلو فى عثمان وقولكم حراق مصاحف، فوالله ما حرقها إلا عن ملأ منا أصحاب رسول الله ﷺ».

وعن عمرو بن سعيد قال: (قال على بن أبى طالب رضى الله عنه: لو كنت الوالى وقت عثمان لفعلت في المصاحف مثل الذى فعل عثمان)

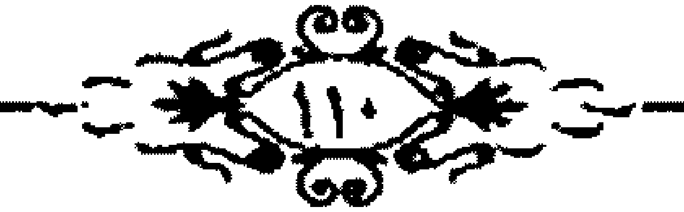
وفي أمر عثمان بتحريق الصحف والمصاحف حين جمع القرآن جواز تحريق الكتب التى فيها أسماء الله تعالى وأن ذلك إكرام لها وصيانة عن الوطء بالأقدام وطرحها فى الأرض وقد كان طاووس يحرق الرسائل إذا اجتمعت عنده وفيها بسم الله الرحمن الرحيم، وحرق عروة بن الزبير كتب فقه كانت عنده يوم الحرة، وقال القاضى أبو بكر: جائز للإمام تحريق الصحف التى فيها القرآن إذا أداه إليه اجتهاده وجزم عياض بأنهم غسلوا ما بأيديهم من الصحف بالماء ثم أحرقوها مبالغة منهم فى إذهابها.

والسبب الباعث على جمع القرآن فى عهد عثمان:

هو دفع الاختلاف والتنازع في القرآن وقطع للمراء فيه، وخشية الفتنة من أجل الاختلاف، وحمل الناس على القراءة بوجه واحد لذلك وأما قبله فقد كانت المصاحف بوجوه القراءات على الحروف السبعة التى أنزل بها القرآن ولم تحتج الصحابة فى أيام أبى بكر وعمر إلى جمعه على الوجه الذى جمعه عليه عثمان، لأنه لم يحدث فى أيامهما من الخلاف ما حدث فى أيام عثمان، ولقد وفقه الله لأمر عظيم فرفع الاختلاف، وجمعّ الكلمة وأراح الأمة، ولهذا لم ينكر عليه أحد بل رضوا فعله هذا وعدوه من مناقبه وآثاره الخالدة رضى الله عنه وعنهم أجمعين.

وأن الجمع فى عهد عثمان قد امتاز بالأمور الآتية:

(أولها) الاقتصار فى المصحف على حرف واحد وهو حرف قريش كما سبق بيانه.

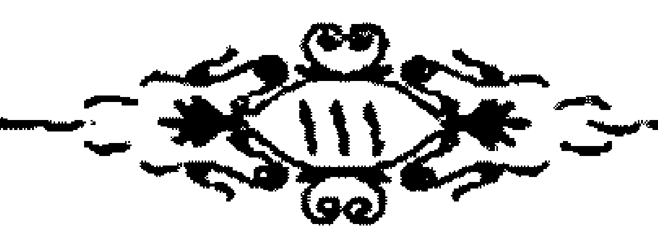


(ثانيها) الاقتصار فيه على ما ثبت بالتواتر وترك ما كانت روايته أحادية وما نسخت تلاوته فلم يكتبوا فى جمع عثمان إلا ما تحققوا أنه قرآن وثبت صحته قطعا عن النبى ﷺ وعلموا أنه استقر فى العرضة الأخيرة وكان زيد بن ثابت قد شهدها.

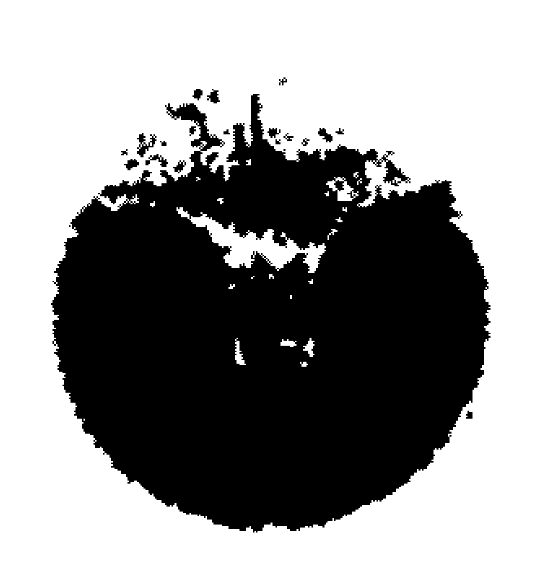
(ثالثها) ترتيب سوره وآياته على الوجه المعروف الآن وأما فى عهد أبى بكر فقد كان جمعه مرتب الآيات دون السور.

(رابعها) تجريده من النقط والشكل ومن كل ما ليس قرآنا بخلاف بعض ما كان مكتوبا عند بعض الصحابة فإنه كان فيه بعض تأويلات وتفسيرات لبعض ألفاظه، وبما ذكرنا تعلم الفرق بين كل جمع والذى قبله.

* * *



بيان المصاحف التى كتبت فى عهد عثمان
(وعددها والسبب فى التعدد وما يتعلق بذلك)



المصاحف جمع مصحف بزنة مُفعل من أصحفه أى جمع فيه الصحف، والصحف جمع صحيفة وهى قطعة من جلد أو ورق يكتب فيه وقد يقال مصحف بكسر الميم، روى أن أبا بكر الصديق استشار الناس بعد جمع القرآن فسماه مصحفا فصار علما على ما جمع فيه القرآن كله.

(عدد المصاحف):

اختلف فى عدد المصاحف التى كتبت فى عهد عثمان ووجه بها إلى الأمصار: فى الكواكب الدرية لشيخ القراء بالديار المصرية الشيخ محمد على خلف الحسينى ما نصه «واختلف فى عدد المصاحف التى كتبها عثمان فقيل وهو الذى صوبه ابن عاشر فى شرح الإعلان :

إنها ستة المكى والشامى والبصرى والكوفى والمدنى العام الذى سيره عثمان رضى الله عنه من محل نسخه إلى مقره والمدنى الخاص به الذى حبسه لنفسه وهو المسمى بالإمام»

وقال الحافظ ابن حجر والجلال السيوطى رحمهما الله: المشهور أنها خمسة، وقال صاحب زاد القراء: لما جمع عثمان القرآن فى مصحف سماه الإمام ونسخ منه مصاحف فأنفذ منها مصحفا إلى مكة، ومصحفا إلى الكوفة، ومصحفاً إلى البصرة ومصحفا إلى الشام، وحبس مصحفاً بالمدينة، وقال الجعبرى: حبس مصحفاً بالمدينة للناس وآخر لنفسه وسير باقيها إلى أمراء الأمصار، ثم قال ومجموعها ثمانية خمسة متفق عليها، وثلاثة مختلف فيها يعنى بالخمسة المتفق عليها الكوفى، والبصرى والشامى والمدنى العام، والمدنى الخاص، وبالثلاثة المختلف فيها المكى ومصحف البحرين ومصحف اليمن لقول العلامة الشاطبى:



وســـار فى نســـخ منهـا مع المدنى كوف وشام وبصـر تمـلأ البصـرا

وقيـل مكـة والبحـرين مـع يمـن ضاعت بها نسخ فى نشرها قطـرا

ثم قال: إن مصر سير إليها مصحف ا هـ

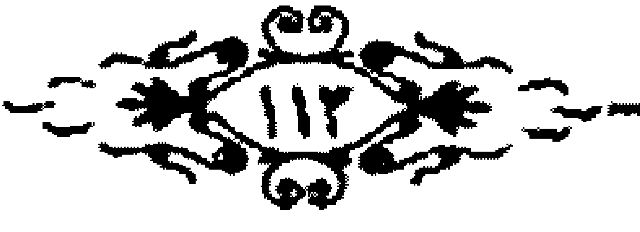
وقال القرطبى: قيل سبعة وقيل أربعة وهو الأكثر ووجه بها إلى الآفاق فوجه للعراق والشام ومصر بأمهات فاتخذها قراء الأمصار معتمد اختياراتهم ولم يخالف أحد منهم فى مصحفه على النحو الذى بلغه وما وجد بين هؤلاء القراء السبعة من الاختلاف فى حروف يزيدها بعضهم وينقصها بعضهم فذلك لأن كلا منهم اعتمد على ما بلغه فى مصحفه ورواه، إذ قد كان عثمان كتب تلك المواضع فى بعض النسخ ولم يكتبها فى موضع إشعارا بأن كل ذلك صحيح وأن القراءة بكل منها جائزة .

(**فالسبب فى تعدد المصاحف**) أن عثمان والصحابة رضى الله عنهم قصدوا كتابة المصاحف على ما وقع عليه الإجماع ونقل متواترا عن النبى ﷺ من القراءات فعددوا المصاحف لتكون مشتملة على جميع القراءات المتواترة واختلاف القراءات له حالتان:

(الأولى) أن تحتمل صورة اللفظ خطا القراءتين المختلفتين أو القراءات وفى هذه الحالة يكتب اللفظ فى جميع المصاحف بصورة تحتملها مثل (ننشرها وننشزها)[١] و (فتبينوا فتثبتوا)[٢] و (أف)[٣] بإختلاف حركات آخره و(هيت)[٤] باختلاف القراءات فيه وهكذا فإنها تكتب فى جميع المصاحف بصورة واحدة تحتمل جميع القراءات ولاشك أنها كانت مجردة من النقط والشكل.

(الحالة الثانية) أن لا تكون صورة اللفظ خطا محتملة للقراءات المختلفة وفى هذه الحالة تكتب فى بعض المصاحف بصورة وبعضها صورة أخرى ولم تكتب مكررة فى مصحف واحد لئلا يتوهم أنها تقرأ مكررة كذلك وأنها نزلت دفعة واحدة مكررة بل كل قراءة نزلت وحدها وكذا لم تكتب إحداهما فى الأصل والأخرى بالحاشية لئلا يتوهم أن الثانية تصحيح للأولى، وأيضا اعتبار

١- سورة البقرة (الآية ٢٥٩)
٢- سورة الحجرات (الآية ٦)
٣- سورة الاسراء (الآية ٢٣)
٤- سورة يوسف (الآية ٢٣)



إحداهما فى الأصل والأخرى بالحاشية تحكم وذلك مثل «ووصى وأوصى»[1] و«تجرى تحتها ومن تحتها»[2] و«سيقولون الله ولله»[3] «وما عملت أيديهم و«ما عملته أيديهم»[4] وهكذا.

وعلى ذلك فمن وصل إليه المصحف الذى فيه وأوصى قرأ به، ومن وصل إليه الذى فيه ووصى قرأ به وهكذا، وأماما لم تختلف فيه القراءات فقد كتب بصورة واحدة فى جميع المصاحف كالحالة الأولى وبهذا كانت المصاحف التى كتبت بأمر عثمان رضى الله عنه مشتملة على جميع القراءات المتواترة، مع تجريدها من النقط المبين للحروف، والشكل المبين للحركات وسيأتى بيان حدوث النقط والشكل.

وإنما جردت من ذلك لأمور:

١ - ما روى (جردوا مصاحفكم)

٢ - لتحمل الكلمة التى تفهم بصورة واحدة أكثر من وجه، مما صح نقله وثبتت تلاوته عن النبى ﷺ من وجوه القراءات لأن الاعتماد لم يكن على مجرد الخط بل كان على الحفظ والرواية ولذا يقرأ نحو فتبينوا بالتاء والثاء ولا تسئل بالبناء للفاعل مع الجزم وبالبناء للمفعول مع الرفع.

٣ - لتكون دلالة الخط الواحد على كلا اللفظين المنقولين المسموعين المتلوين شبيهة بدلالة اللفظ الواحد على كلا المعنيين المعقولين المفهومين فإن الصحابة رضى الله عنهم تلقوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن الذى أمره الله بتبليغه بجميع وجوه قراءاته، ولم يكونوا ليسقطوا شيئا من القرآن الثابت عنه ﷺ ولا يمنعوا من القراءة به وقد أجمعوا على هذه المصاحف ولم يخالف فيها واحد منهم.

* * *



١- سورة البقرة (الآية ١٣٢)

٢- سورة التوبة (الآية ١٠٠)

٣- سورة المؤمنون (الآية ٨٥)

٤- سورة يس (الآية ٣٥)



(الشبه التى وردت على جمع القرآن وردها)



قد تمسك بعض الطاعنين على جمع القرآن بشبه أكثرها فى الأصل مما أورده بعض الكاتبين وأجاب عنه، ولكن شغف هؤلاء الطاعنين بالطعن جعلهم يوردون هذه الاعتراضات كشبه وينقلونها دون الرد عليها وزادوا من مخيلاتهم ما شاءت لهم أوهامهم وسنورد كل شبهة ونتبعها بالرد عليها:

(أولا) من الشبه قالوا كيف يكون جمع القرآن عن ملأ من الصحابة واتفاقهم مع أن عبد الله بن مسعود وهو ذو المكانة العظمى فى الإسلام وله السوابق الجليلة، قد كره لزيد بن ثابت نسخ المصاحف وقال: يا معشر المسلمين أعزل عن نسخ المصاحف، ويتولاه رجل والله لقد أسلمت، وإنه لفى صلب رجل كافر، يريد زيد بن ثابت فهذا يدل على أنه لم يكن موافقا على هذا الجمع.

(ويجاب) بأن قول ابن مسعود هذا لا يفيد إلا أنه كان يرى أنه أحق بالتقديم فى هذا الشأن من زيد بن ثابت رجاء زيادة المثوبة فى جمع القرآن ولم يبد منه ما يدل على عدم الموافقة على جمع القرآن ولاشك فى أنه بعد زوال الغضب عنه عرف حسن اختيار عثمان ومن معه من أصحاب رسول الله ﷺ وبقى على موافقتهم وترك الخلاف.

١٧ كيف ولم يكن اختيار زيد من جهة أبى بكر وعمر وعثمان إلا لأنه كان أحفظ للقرآن، ولما اجتمع فيه من الصفات التى تؤهله لهذا المنصب العظيم، انظر إلى قول أبى بكر له: «إنك رجل شاب عاقل، ولا نتهمك، كنت تكتب الوحى لرسول الله ﷺ» فقد وصفه فى هذه الجمل بأربعة أوصاف هى التى يجب توافرها جميعها فيمن يعهد إليه بهذا العمل الجسيم والأمر الخطير وهى «الشباب» المقتضى للقوة والصبر والجلد «والعقل» الذى هو جماع الفضائل و«الأمانة وعدم التهمة» وهى مجمع مكارم الدين والدنيا «وكتابة الوحى» لرسول الله ﷺ وبها يتم التوثق والاطمئنان.



ومع ذلك فقد ضم إليه عثمان ثلاثة من أوثق «القراء» وأعلمهم وهذه المزايا مجتمعة لا تقتضى أفضلية زيد على عبد الله بن مسعود ولا على أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وإنما تقتضى أهليته التامة لما عهد إليه به.

(ثانيا) من الشبه قيل: كيف يكون القرآن كله متواتراً مع أن زيد بن ثابت قال فى أثناء ذكره لحديث جمع القرآن فى الصحف وهو الجمع فى عهد أبى بكر «فقمت فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف والعسب وصدور الرجال حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع أبى خزيمة الأنصارى لم أجدهما مع غيره، ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم﴾ إلى آخرها.

وقال فى ذكر جمع القرآن فى عهد عثمان فقدت آية من سورة الأحزاب كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرأها لم أجدها مع أحد إلا مع خزيمة الأنصارى الذى جعل رسول الله ﷺ شهادته بشهادة رجلين «من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه» فهذا الذى نقل عن زيد يدل على أنه اعتمد فى بعض آيات القرآن على خبر الواحد الذى لا يتحقق به التواتر وذلك ينافى ما هو مقرر من أن القرآن كله جملة وتفصيلا منقول بالتواتر المفيد للقطع.

(**ويجاب**) بأن ما نقل عن زيد بن ثابت لا ينافى تواتر القرآن جملة وتفصيلا لأنك قد علمت أن الاعتماد فى جمع القرآن كان على المصدرين معا الحفظ والكتابة والغرض من الاعتماد على الكتابة التوثق بأنه مما كتب بين يدى رسول الله ﷺ وإلا فمجرد الحفظ كاف فى النقل إذا بلغ حد التواتر.

فمعنى قول زيد فى الحادثتين «لم أجدها عند غيره» أى لم أجدها مكتوبة وذلك لا ينافى أنها كانت محفوظة بدليل قوله فى الحادثة الثانية «فقدت آية كنت أسمعها من رسول الله ﷺ» فهو كان يذكرها ويذكر أنه سمعها ولكنه يبحث عن كونها مكتوبة عند أحد ولم يشترط أحد التواتر فى الكتابة بمعنى أنها تكون مكتوبة عند جمع يؤمن تواطؤهم على الكذب بل التواتر مشترط فى الرواية من الحفظ.

سلمنا أن خزيمة وأبا خزيمة هما اللذان كانا يحفظان ما ذكرا فلا يدل ذلك على عدم سماع جمع كثير يؤمن تواطؤهم على الكذب لهما من رسول الله ﷺ وإنما كان ذلك غائبا عن أذهانهم فلما ذكر كل من خزيمة وأبى خزيمة ما ذكر تذكر الصحابة ذلك وأقروه فكان تواترا يفيد العلم القطعى وهو المطلوب.



(ثالثا) من الشبه قيل إن القرآن قد زيد فيه ما ليس منه، يدل على ذلك ما ورد أن عبد الله بن مسعود كان لا يكتب المعوذتين فى مصاحفه، وفى رواية كان يحذف المعوذتين من مصاحفه وعلى ذلك فيكون القرآن قد زيد فيه ما ليس منه وهو المعوذتان اللتان لم يكتبهما ابن مسعود في مصحفه بل ورد أنه أنكر كونهما من كتاب الله.

ويجاب عن ذلك بوجوه:

١- لا نسلم بصحة تلك الروايات عن عبد الله بن مسعود فلا يعول عليها.

٢- على فرض صحتها عنه فإن عدم إثباتها فى المصحف لا يستلزم إنكار كونهما من القرآن لجواز أن يكون تركهما اعتمادا على الحفظ ويحمل لفظ كتاب الله فى قوله «إنهما ليستا من كتاب الله» على المصحف.

٣- على فرض صحة إنكار ابن مسعود قرآنيتهما فهى رواية آحاد عن ابن مسعود لا تعارض القطعى الثابت عن رسول الله ﷺ ونقله الصحابة بالتواتر وهو كونهما من القرآن.

٤- على فرض صحة ما روى عن ابن مسعود أيضا فمخالفته غير قادحة فى العلم والقطع بكونهما من القرآن لأنه ليس المعتبر في العلم بصحة النقل والقطع على ثبوته أن لا يخالف فيه مخالف وإنما المعتبر في ذلك مجيئه عن قوم يثبت بهم التواتر وتقوم بهم الحجة.

(رابعا) من الشبه قيل إن القرآن نقص منه ما كان بعض الصحابة يكتبه فى مصحفه وذلك مثل ما نقل عن أبى بن كعب أنه كتب فى مصحفه سورتين تسميان سورتى الخلع والحفد كان يقنت بهما وهما «اللهم إنا نستعينك ونستغفرك، ونثنى عليك الخير ولا نكفرك، ونخلع ونترك من يفجرك، اللهم إياك نعبد، ولك نصلى ونسجد، وإليك نسعى ونحفد، نخشى عذابك ونرجو رحمتك، إن عذابك بالكفار ملحق» فهذه الرواية بحسب ظاهرها تدل على أن القرآن لم يجمع كله وأنه قد حذف منه بعض سور وآيات.



ويجاب عن ذلك بوجهين:

١- لا نسلم أنهما من القرآن لأن إثبات أبى بن كعب لهما فى المصحف لا يستلزم كونهما من القرآن كما أن القنوت بهما منه فى الصلاة لا يفيد ذلك لأنك قد علمت مما تقدم أن المصاحف فى الأول لم تكن قاصرة على القرآن بل كان بعضها مشتملا على بعض تفسيرات وتأويلات وعلى منسوخ التلاوة وعلى دعاء فكان الجمع فى عهدى أبى بكر وعثمان خاصا بالقرآن مع تجريد الصحف والمصاحف مما ليس منه.

٢- على فرض أن أبيا أثبتهما فى المصحف على أنهما من القرآن فهو خبر أحاد لا تقوم به الحجة فى إثبات القرآن لأن العمدة فيه النقل المتواتر المفيد للقطع، على أن ذلك لم يصح عنه وإنما الذى روى عنه أنه أثبته فى مصحفه وقد أثبت فى مصحفه ما ليس قرآنا من دعاء وتأويل.

«**وههنا قاعدتان**» يجب التنبه لهما وهما العمدة فى دفع كل شبهة تستند إلى زيادة أو رواية نقص من القرآن فتجب ملاحقتهما وهما:

«أولاً» كل رواية آحادية تفيد إنكار شئ من القرآن الذى ثبت بالتواتر لا تقبل لأن الآحادى لا يعارض القطعى.

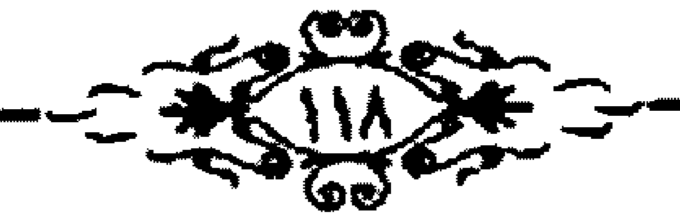
«ثانيا» كل رواية أحادية لا تقبل فى إثبات شئ من القرآن لأن العمدة فى ثبوته التواتر فلا يقبل فيه الآحاد وإذ قد علمت هذا فكل شبهة يتمسك بها الطاعنون من هذا القبيل فهذا طريق ردها والله أعلم.

«خامساً» من الشبهة: طعن بعض المبشرين بدعاوى كاذبة زعم فيها أن القرآن سقط منه شئ وزيد فيه شئ واستند إلى الأمور الآتية وخلاصتها:

١- ما ورد فى الحديث أن محمدا ﷺ قال: رحم الله فلانا لقد أذكرنى كذا وكذا آية كنت أسقطتهن ويروى أنسيتهن.

٢- ما جاء فى سورة الأعلى «سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله» وزعم هذا الطاعن: أنه أنسى آيات لم يتفق له من يذكره إياها.

٣- قال إن الصحابة قد حذفوا من القرآن ما رأوا المصلحة فى حذفه فمن ذلك آية المتعة أسقطها على بن أبى طالب بتة وكان يضرب من يقرأها.



٤- قال هذا الزاعم إن كثيراً من آياته لم يكن لها من قيد سوى حفظ الصحابة لها وكان بعضهم قد قتلوا في المغازي وحروب الخلفاء الأولين وذهب معهم ما كانوا يحفظونه قبل أن يوعز أبو بكر إلى زيد بن ثابت بجمعه فلم يستطع أن يجمع سوى ما يحفظه الأحياء وادعى أن بعض ما كان مكتوبا ضاع.

٥- ادعى هذا الطاعن أن الحجاج لما قام بنصرة بني أمية حذف من القرآن ما كان قد نزل فيهم وزاد فيه أشياء ليست منه وكتب ستة مصاحف جديدة زعم أنه وجه بها إلى مصر والشام ومكة والمدينة والبصرة والكوفة تزلفا إلى بني أمية.

٦- زعم هذا الطاعن أن آية ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾(١) من كلام أبي بكر قالها يوم السقيفة وزيدت عند جمع القرآن وكذا آية ﴿ وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾(٢) من كلام عمر وزيدت في القرآن عند جمعه هذا خلاصة ما يقوله ذلك الطاعن.

وللرد عليه نقول:

١- عن الحديث الذي أورده قد زاد فيه مالم يرو عن النبي ﷺ والذي روى هو أن عباد بن بشار كان يقرأ أمام النبي ﷺ والنبي ﷺ يسمعه فقال النبي ﷺ (لقد أذكرني كذا وكذا آية في سورة كذا) وليس في ألفاظ الحديث (رحم الله فلانا) المشعر بأنه مات ولا لفظ «أسقطتهن» أو «أنسيتهن» المشعر بالنسيان.

وبهذا نعلم مقدار أمانته في النقل ولفظ أذكرني لا يقتضي النسيان بل غاية ما يدل أنه كان غائبا عن ذهنه ثم تذكره ومن المقرر المعلوم أن النبي ﷺ لا يقره الله على نسيان شئ من القرآن أو أصول الدين أو الواجبات.

٢- إن ما تمسك به هذا الزاعم من دلالة الآية على النسيان فهو زعم من لم يعرف سبب نزول الآية ولا معناها، أما سببها فإن النبي ﷺ كان يتذكر القرآن في

١- سورة آل عمران: (الآية ١٤٤)

٢- سورة البقرة: (الآية ١٢٥)



نفسه مخافة أن ينسى فأزال الله خوفه وأنزل عليه «سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله» وأما معناها فهو سنعلمك القرآن حتى لا تنساه والغرض من الاستثناء تعريفه ﷺ أن عدم النسيان من فضل الله تعالى وإحسانه وتعريف أمته ذلك حتى لا يخرجوه ﷺ من مقام العبودية دائما .

ومجرد الاستثناء لايدل على وقوع النسيان بل النسيان لم يقع لعدم المشيئة ويدل على قوله تعالى:﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾[1] أى جمعه فى صدرك وقراءته على لسانك.

٣- قوله إن الصحابة قد حذفوا ما رأوا المصلحة فى حذفه.. إلخ قول من لم يعرف عناية الصحابة وحرصهم على القرآن وبعد معرفة القاعدتين السابقتين فى اثبات شئ من القرآن أو إنكار شئ لا تحتاج إلى رد خاص بهذه الشبهة.

٤- قوله إن كثيرا من آياته لم يكن لها من قيد سوى حفظ الصحابة.. إلخ.

ونحن نقول الذى بقى من الحفاظ أكثر ممن مات فقد كان موجودا من القراء من تقوم بهم الحجة ويحصل بهم التواتر كما هو مقتضى قول عمر «وأخشى أن يستحر القتل بالقراء فى المواطن»

وقوله وكانت كتابته غير منتظمة إن أراد به أنه لم يكن مرتب السوء والآيات فمسلم وإن أراد أنه لم يكن مكتوبا جميعه فممنوع لما بيناه فيما تقدم أنه كتب جميعه فى عهد النبى ﷺ بأمره وكان الغائب وقت نزول الوحى إذا حضر كتب وحفظ.

٥- دعوى أن الحجاج زاد أو نقص من القرآن، دعوى لا وجود لها إلا فى خيال قائلها، إذ لم ينقل فى أى تاريخ من التواريخ ما يشير إلى ذلك وكيف يكون ذلك والتاريخ أحصى على الحجاج أكثر أفعاله وأقواله فكيف يفعل أمرا عظيما له خطره ويعظم أثره. ولا يذكر.

٦- زعمه بأن آية «وما محمد إلا رسول.... إلخ» من كلام أبى بكر وأن آية «واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى» من كلام عمر وزيدتا فى القرآن زعم باطل واجتراء على الحق ولو نظر ذلك الطاعن فى بعض كتب التفسير لأغنانا المؤنة فى

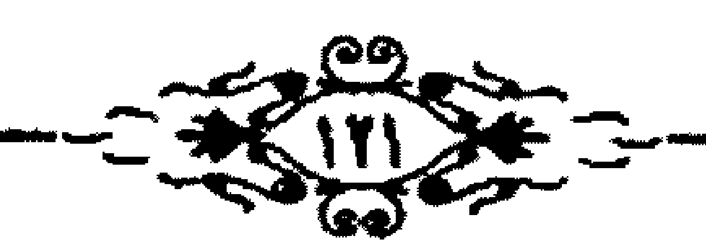
١- سورة القيامة (الآية ١٧)

حكاية سخفه والرد عليه فإن هذه الآية الأولى نزلت يوم أحد لما أشيع أن النبى ﷺ قتل، فإن أبا بكر رضى الله عنه لما رأى القوم عمهم الحزن والأسى لما صدموا بوفاة الرسول الأعظم ﷺ ذكرهم بهذه الآية التى كانت سببا فى أنهم ثابوا إلى رشدهم واسترجعوا إلى ربهم ولم تكن من مقول أبى بكر وإنما هى من كلام رب العالمين فأين يوم أحد من يوم وفاة الرسول ﷺ؟! وأما قول عمر فإنه كان من باب التمنى بقوله لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى فنزل الأمر بذلك بقوله تعالى «واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى» فأين أسلوب التمني من أسلوب الأمر؟!

(سادسا) من الشبه ما نقله الألوسى عن بعض الشيعة والملاحدة ما خلاصته أن عثمان بل أبا بكر وعمر حرفوه «أى القرآن» وأسقطوا كثيرا من آياته وسورة وقالوا إن القرآن الذى نزل به جبريل سبع عشرة ألف آية، وأن سورة «لم يكن» كانت مشتملة على اسم سبعين رجلا من قريش بأنسابهم وآبائهم وأن سورة الأحزاب كانت مثل سورة الأنعام، أسقطوا منها فضائل أهل البيت وأن سورة الولاية أسقطت بتمامها وغير ذلك من خرافاتهم.

«ولذا تبرأ منه بعض علمائهم قال الطبرسي فى مجمع البيان. أما الزيادة فيه أى القرآن فمجمع على بطلانها وأما النقصان فيه روى عن قوم من أصحابنا وقوم من حشوية العامة والصحيح خلافه» ومع كون هذه الشبهة واهية متداعية من تلقاء نفسها.

(نرد عليها بإيجاز فنقول) أيها المتشيعون قد صار الأمر فى الخلافة إلى على بن أبى طالب كرم الله وجهه وقد دانت له الأقطار كلها عدا مصر والشام، والمصاحف التى جمعها عثمان تتلى أكان يعلم أن القرآن حذف منه الشئ الكثير ويسكت عليه وهو الأمام المعصوم فى زعمكم أم جئتم أنتم بجهلكم تغترون، ثم صار الأمر إلى ابنه الأمام الحسن ومصاحف عثمان كذلك فقد ظلت دولة أهل البيت بعد عثمان قائمة أربع سنوات وبضعة شهور فكيف يسكتون على حذف ما يخصهم من القرآن ولم يرتفع لهم به صوت ولم يسمع لهم فيه مقال؟! وبهذا تعلم أن هذه الشبهة كالتى قبلها لا أساس لها والله الهادى إلى سواء السبيل، ومن أمعن النظر فيما تقدم سهل عليه رد كل شبهة من هذا القبيل والله أعلم.



المبحث السابع
ترتيب آيات القرآن وسوره

- معنى الآية والسورة
- أقوال العلماء في ترتيب الآيات
- أقوال العلماء في ترتيب السور



بيان معنى الآية والسورة وما يتعلق بهما

١- الآية:

«الآية» لغة وردت فى القرآن بمعنى العلامة وذلك فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1] أى علامة ملكه.

وبمعنى العبرة فى قوله تعالى ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾[2] أى عبرة لمن بعدهم.

«وبمعنى الدليل فى مثل قوله تعالى ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾[3] أى دلائل قدرته»

وفى الاصطلاح «طائفة من القرآن ذات مبدأ ومقطع مندرجة فى سورة» وآخرها يسمى فاصلة وإنما سميت آية لأنها علامة على نفسها بانفصالها عن الآية التى قبلها والتى بعدها.

وآيات القرآن كلها توقيفية أى لا تعلم إلا بتوقيف من الشارع قال الزمخشرى: الآيات علم توقيفى لا مجال للقياس فيه ولذلك عدوا «الم» آية حيث وقعت و«المص» ولم يعدوا «المر والر» وعدوا «حم» آية فى سورها «وطه ويس» ولم يعدوا «طس» وأخرج الامام أحمد فى مسنده عن ابن مسعود قال: «أقرأنى رسول الله ﷺ سورة من الثلاثين من آل حم قال يعنى الأحقاف» قال كانت السورة إذا كانت أكثر من ثلاثين سميت الثلاثين وقال ابن العربى ذكر النبى ﷺ «أن الفاتحة سبع آيات وسورة الملك ثلاثون آية».

---

١ - سورة البقرة (الآية ٢٤٨)

٢ - سورة الشعراء (الآية ٦٧)

٣ - سورة الروم (الآية ٢٠)



«عدد آيات القرآن» أجمعوا على أن عدد آيات القرآن ستة آلاف آية ثم اختلفوا فيما زاد على ذلك فمنهم من لم يزد وهو أحد قولى المدنيين ومنهم من قال ومائتا آية وأربع آيات وهو قول البصريين وقيل وأربع عشرة فى أحد قولى المدنيين وقيل وتسع عشرة وهو قول المكيين وقيل وخمس وعشرون وهو قول أهل الشام وقيل وست وثلاثون وهو قول الكوفيين.

والسبب فى الاختلاف فى عدد الآيات أن النبى ﷺ كان يقف علي رؤوس الآى للتوقيف فإذا علم محلها وصل للتمام فيحسب السامع حينئذ أنها ليست فاصلة.

وقد اختلفت آيات القرآن الكريم فى الطول والقصر وأطول آية في القرآن آية الدين[1] وأقصر آية «يس».

(فوائد معرفة الآيات)

يترتب على معرفة الآيات وعددها أحكام فقهية منها اعتبارها فيمن جهل الفاتحة فإنه يجب عليه بدلها سبع آيات ومنها معرفة الوقف ومنها أن الإجماع منعقد على أن الصلاة لا تصح بنصف آية ومنها أن الإعجاز لا يقع بأقل من ثلاث آيات قصار أو آية طويلة تعادلها وغير ذلك من الفوائد.

ب- السورة:

هى آيات جمعت وقرنت بعضها إلى بعض حتى تمت وكملت وبلغت فى الطول المقدار الذى أراده الله تعالى ثم فصل بينها وبين سورة أخرى بسم الله الرحمن الرحيم ولا تكون إلا معروفة المبتدأ معلومة المنتهى.

واشتقاقها من سور المدينة والبناء قيل لأن السور يوضع بعضه فوق بعض حتى ينتهى إلى الارتفاع الذى يراد فكذا السورة وضعت فيها آية إلى جنب آية حتى بلغت فى عدد الآيات المبلغ الذى أراده الله تعالى وقيل سميت سورة لما فيها من العلو والرفعة من السور لعلوه وارتفاعه، وقيل لإحاطتها بآياتها كما أن سور المدينة محيط بالمساكن والأبنية.

١- من سورة البقرة (الآية ٢٨٢)



ومعرفة سور القرآن كلها توقيفية كمعرفة آياته، وسور القرآن تختلف بالطول والقصر فأطولها سورة البقرة وأقصرها سورة الكوثر وقد قسمها العلماء إلى أربعة أقسام وهي:

١- «الطوال» وهي سبع :البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف والسابعة قيل الأنفال وبراءة لعدم الفصل بينهما بالبسملة وقيل يونس.

٢- «المئون» وهي التي تزيد آياتها عن مائة أو تقاربها.

٣- «المثاني» وهي السور التي تقارب المئين في عدد الآيات.

٤- «المفصل» وهو ما عدا ذلك وأوله الحجرات على أرجح الأقوال وهو أقسام ثلاثة: طوال المفصل وهي من أول الحجرات إلى سورة البروج، وأوساطه من سورة الطارق إلى سورة لم يكن، وقصاره من سورة إذا زلزلت إلى آخر القرآن.

«**والحكمة**» في تسوير القرآن سورا تحقيق كون السورة معجزة بمجردها وآية من آيات الله والإشارة إلى أن كل سورة نمط مستقل فسورة يوسف تترجم عن قصته وسورة براءة تترجم عن أحوال المنافقين وأسرارهم إلى غير ذلك.

والحكمة في كون سوره طوالا وقصارا التنبيه على أن الطول ليس من شروط الإعجاز فهذه سورة الكوثر ثلاث آيات وهي معجزة إعجاز سورة البقرة ثم ظهرت لذلك حكمة أخرى في تعليم القرآن وهي التدريج من السور القصار إلى ما فوقها تيسيرا من الله على عباده لحفظ كتابه وهناك فوائد أخرى.

«ترتيب آيات القرآن»

ترتيب الآيات في سورها توقيفي ثابت بالوحي وبأمر رسول الله ﷺ فقد كان ﷺ يقول ضعوا آية كذا في موضع كذا وقد حصل اليقين من النقل المتواتر بهذا الترتيب من تلاوة رسول الله ﷺ وقد ترادفت النصوص على كون ترتيب الآيات توقيفيا ووقع الإجماع على ذلك.

أما الإجماع فنقله غير واحد منهم الزركشي في البرهان، وأبو جعفر ابن الزبير في مناسباته، وعبارته «ترتيب الآيات في سورها واقع بتوقيفه ﷺ وأمره من غير خلاف في هذا بين المسلمين».



وأما النصوص «فمنها» ما أخرجه البخارى عن ابن الزبير قال قلت لعثمان ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا ﴾[1] قد نسختها الآية الأخرى[2] فلم تكتبها أو تدعها؟ قال يابن أخي لا أغير شيئا من مكانه» قال ابن حجر: قوله فلم تكتبها؟ أو تدعها كذا فى الأصول بصيغة الاستفهام الإنكارى كأنه قال لم تكتبها وقد عرفت أنها منسوخة، أو قال لم تدعها أى تتركها مكتوبة وهو شك من الراوى أى اللفظين قال ثم نقل رواية أخرى عن الإسماعيلى بصيغة لم تكتبها وقد نسختها الآية الأخرى، وفى جواب عثمان هذا دليل على أن ترتيب الآيات توقيفى وكان عبد الله بن الزبير ظن أن الذى ينسخ حكمه لا يكتب فأجابه عثمان بأن ذلك ليس بلازم والمتبع فيه التوقيف عن النبى ﷺ.

(ومنها ما أخرجه) الإمام أحمد عن عثمان بن العاص قال كنت جالسا عند رسول الله ﷺ، إذ شخص ببصره ثم صوبه ثم قال أتانى جبريل فأمرنى أن أضع هذه الآية هذا الموضع من السورة ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[3] فهذا الحديث صريح فى أن جبريل علم النبى ﷺ موضع هذه الآية من سورتها.

«ومنها» ما رواه مسلم عن عمر قال ما سألت النبى ﷺ عن شئ أكثر مما سألته عن الكلالة، «حتى طعن بإصبعه فى صدرى وقال تكفيك آية الصيف[4] التى فى آخر النساء.

«ومنها» ما رواه البخارى عن أبى مسعود أنه قال: قال النبى ﷺ «من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلة كفتاه» والآيتان هما آمن الرسول إلي آخر السورة وآخر الآية الأولى المصير ومن ثم إلى آخرها آية واحدة وأبو مسعود هو عقبة بن عمرو البدرى.



١ – سورة البقرة (الآية ٢٤٠) وهى التى تجعل عدة المتوفى عنها زوجها سنة كاملة.

٢ – يعنى الموجودة فى سورة البقرة (الآية ٢٣٤) والتى تجعل عدة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشرا.

٣ – سورة النحل (الآية ٩٠)

(٤) نزلت فى فصل الصيف.



وقد وردت نصوص إجمالية في ذلك، مثل ما ثبت من أنه ﷺ قرأ سورة البقرة وآل عمران والنساء وسورة الأعراف وسورة ألم تنزيل وهل أتى وغيرها وكل ذلك وارد فى الصحيحين أو فى أحدهما وكان ﷺ يقرأ السور على ترتيبها المعروف الآن فدل ذلك كله على أن ترتيب الآيات توقيفي وقد أجمعت عليه الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين.

ترتيب السور

ترتيب السور على ما هو عليه الآن قد اختلف فيه على ثلاثة أقوال:-

«**الأول**» **وهو قول الجمهور** إنه بتوقيف من النبى ﷺ فلم توضع سورة في مكانها من المصاحف الموجودة الآن إلا بأمر النبى ﷺ وتعليمه أو برمزه على حسب ما سمعوا من تلاوته ﷺ، واستدل الجمهور بأن الصحابة أجمعوا على المصحف الذى كتب فى عهد عثمان ولم يخالف منهم أحد حتى من كان عنده مصاحف مكتوبة على خلاف ترتيبه كما سنذكره بعد، فلو لم يكن ذلك بالتوقيف بل بالاجتهاد لحصل من أصحاب المصاحف الأخرى المخالفة في الترتيب ما يقتضى تمسكهم بترتيب مصاحفهم ولكن عدولهم عنها وعن ترتيبها بل وإحراقها دليل على أن الأمر ليس للاجتهاد فيه مجال لأنه لا اجتهاد مع النص والتوقيف .

كيف وقد كان الواحد منهم إذا رأى من الخليفة أمراً مخالفا لاجتهاده من الأمور الاجتهادية بادر إلى إعلان رأيه ومعارضة الخليفة، فكيف بهذا الأمر العظيم الذى هو المرجع الأعلى لجميع المسلمين، ولا يشترط أن يكون التوقيف من النبى ﷺ بنص صريح بل قد يكون بالفعل أو الرمز فلابد للإجماع من مستند ولا يشترط ظهوره ولا ذكره.

ومع ذلك فقد وردت آثار تدل على التوقيف من النبى ﷺ فقد روى الإمام أحمد وأبو داود عن حذيفة الثقفى «قال كنت في الوفد الذين أسلموا من ثقيف» الحديث وفيه فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم طرأ على حزب من القرآن فأردت أن لا أخرج حتي أقضيه فسألنا أصحاب رسول الله ﷺ قلنا كيف تحزبون القرآن؟ قالوا نحزبه ثلاث سور وخمس سور وسبع سور وتسع

سور وإحدى عشرة وثلاث عشرة وحزب المفصل من ق. حتي نختم». فهذا يدل على أن ترتيب السور على ما هو فى المصحف الآن كان على عهد رسول ﷺ.

ومما يدل أيضا على أنه توقيفى كون الحواميم رتبت ولاء أى متتابعة ولم ترتب المسبحات ولاء بل فصل بين سورها بسورة «قد سمع والممتحنة والمنافقون» كما فصل بين طسم الشعراء وطسم القصص بطس مع أنها أقصر منهما.

ولو كان الترتيب اجتهاديا لما حصل الفصل بين المتماثلات والمتقاربات من السور فى الافتتاح مع التناسب فى الطول والقصر وقد أيد كثير من العلماء هذا القول فقد قال أبو بكر الأنبارى أنزل الله القرآن كله إلى سماء الدنيا ثم فرقه في بضع وعشرين سنة فكانت السورة تنزل لأمر يحدث والآية جواباً لمستخبر ويقف جبريل النبي صلى الله عليه وسلم على موضع السورة والآيات فاتساق السورة كاتساق الآية والحروف، كله من النبى ﷺ فمن قدم سورة أو أخرها فقد أفسد نظم القرآن.

وقال أبو جعفر النحاس المختار أن تأليف السور على هذا الترتيب من رسول الله ﷺ لحديث واثلة «أعطيت مكان التوراة السبع الطوال».

وقال ابن الحصار ترتيب السور ووضع الآيات فى مواضعها، إنما كان بالوحى، وأخرج ابن أشته فى كتاب المصاحف، من طريق ابن وهب عن سليمان ابن بلال قال: سمعت ربيعة يسأل، لم قدمت البقرة وآل عمران، وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة بمكة وإنما أنزلتا بالمدينة، فقال، قدمتا وألف القرآن علي علم ممن ألفه به ومن كان معه فيه واجتماعهم على علمهم بذلك، فهذا مما ينتهى إليه ولا يسأل عنه.

«القول الثانى»: أن ترتيب السور على ما هو عليه الآن باجتهاد من الصحابة وممن قال بهذا الرأى القاضى أبو بكر الطيب فى أحد قوليه، واستدل القائلون به باختلاف ترتيب مصاحف الصحابة قبل الجمع في عهد عثمان فلو كان ترتيب السور توقيفيا لما اختلفت مصاحفهم فى ترتيب السور، لكنها قد اختلفت.

وبيان ذلك كما ثبت في الروايات أن مصحف أبي كان مبدوءاً بالحمد ثم



البقرة ثم النساء ثم آل عمران ثم الأنعام، وفي مصحف ابن مسعود: البقرة ثم النساء ثم آل عمران ثم الأعراف ثم الأنعام، ومصحف على كان أوله اقرأ ثم المدثر ثم نون ثم المزمل ثم تبت ثم التكوير وهكذا فهذا الاختلاف دليل على أن ترتيب السور كان باجتهادهم.

«**وأجيب**» **عن هذا الدليل** بمنع الملازمة فيه لأن الاختلاف ليس دليلا على أنه ليس توقيفيا وذلك لأن مصاحفهم لم تكن مصاحف تلاوة بل كانت مصاحف علم وتأويل بدليل أنهم أثبتوا فيها ما روى أحاداً وما نسخت تلاوته وبعض أدعية وبعض تأويلات لبعض القرآن لذا لم تكن تلك المصاحف حجة في إثبات القرآن ولهذا ترك منها ما هو مخالف للمصاحف العثمانية ولم يعول عليها في زيادة أو نقص عنها فكذا لم يعول عليها في ترتيب السور.

فالذى سوغ ترك ما فيها من مخالفة للمصاحف العثمانية من نقص أو زيادة سوغ ترك ترتيبها المخالف لها والمسوغ لذلك أن الاعتماد في جمع المصحف علي ما يفيد القطع بالقرآنية لفظا ونظماً وترتيباً، وما فيها من مخالفة لم يثبت بهذا الطريق ويدل لهذا أن أصحاب المصاحف أنفسهم قد وافقوا علي مصاحف عثمان وما فيها من لفظ وترتيب وترك ما سواها فلو كان بالاجتهاد لظلوا على اجتهادهم وبهذا ظهر بطلان هذا القول.

«**القول الثالث**»: أن ترتيب بعض السور كان بتوقيف من النبى صلى الله عليه وسلم وترتيب بعضها كان باجتهاد من الصحابة ومال القاضى أبو محمد بن عطية إلى هذا القول، فقال إن كثيرا من السور قد علم ترتيبها في حياة النبى ﷺ، كالسبع الطوال والحواميم والمفصل وأن ما سوى ذلك يمكن أن يكون فوض الأمر فيه إلى الأمة بعده.

واستدل أصحاب هذا القول بما وقع بين ابن عباس وعثمان بشأن سورتى الأنفال والتوبة وجعلهما في الطوال وعدم الفصل بينهما بسطر «بسم الله الرحمن الرحيم» فقد روى أحمد والترمذى والنسائي وابن حبان والحاكم عن ابن عباس «قال قلت لعثمان ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المئين، فقرنتم بينهما، ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم،

ووضعتموها في السبع الطوال فقال عثمان رضي الله عنه كان الرسول ﷺ تنزل عليه السور ذوات العدد فكان إذا أنزل عليه شئ دعا بعض من يكتب فيقول ضعوا هذه الآيات في السور التي يذكر فيها كذا وكذا، وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة وكانت براءة من آخر القرآن نزولا وكانت قصتها شبيهة بقصتها فظننت أنها منها، فقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها، فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم، ووضعتهما في السبع الطوال.

فهذا يدل على أن ترتيب الأنفال مع التوبة كان باجتهاده لعدم البيان فيهما وأما ما عداهما فبتوقيف كما يدل عليه الحديث.

وأجيب عن هذا الدليل بوجهين:

(١) إن هذا الحديث غير صحيح لأن الترمذي الذي هو أحد من خرجه قال فيه إنه حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث يزيد الفاسي عن ابن عباس ويزيد هذا مجهول الحال فلا يصح الاعتماد على حديثه الذي انفرد به في ترتيب القرآن.

(٢) على فرض صحته يجوز أن عثمان حين إخباره لابن عباس لم يكن عنده شئ مسموع بشأن الترتيب بين براءة والأنفال فلا ينافي أنه علم بعد ذلك بدليل موافقة أبي بن كعب وغيره من أصحاب المصاحف على ترتيب مصحف عثمان فلو لم يكن عنده علم بذلك لما تركوا ترتيب مصاحفهم ولما وافقوه في ذلك إذا كان الترتيب اجتهاديا لأنه ليس للمجتهد أن يقلد مجتهدا آخر كما هو مقرر في الأصول وبهذا قد علمت ما في هذا الدليل.

وقد جعل الزركشي في البرهان الخلاف لفظيا فجعل قول من قال إن ذلك كان باجتهاد الصحابة على أن المراد أنه لم يكن مأخوذا من صريح قول النبي ﷺ وهو لا ينافي أنه مأخوذ من رمزه وإشارته به لأصحابه، وحمل قول من قال إنه توقيفي على أن ذلك كان بتعليم النبي ﷺ وإرشاده وأن ذلك بطريق الرمز والإشارة، لا بصريح القول والعبارة، واستدل على ذلك بأن مالكا رحمه الله، قال إنما ألفوا القرآن على ما كانوا يسمعونه من النبي ﷺ، مع قول مالك نفسه إن ترتيب السور باجتهاد منهم فلابد أن يكون مراده بكونه باجتهاد أنهم لم يسمعوا

نصا صريحا في الكل فلا ينافي أنهم يفهمون من إشاراته ورموزه وقراءته بدليل قوله على ما كانوا يسمعونه من النبي ﷺ.

ومع ذلك سواء قلنا إن هذا الترتيب للسور توقيفي أو اجتهادي فقد وقع إجماع الصحابة عليه وهم لا يجمعون إلا عن مستند كما بينا لك سابقا والله أعلم.

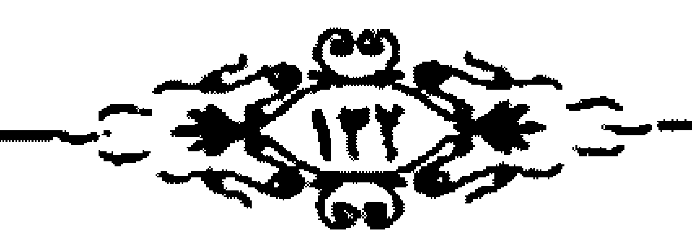
ومن يقول إن ترتيب السور توقيفي لا يقول إن تلاوة القرآن في الصلاة والدرس يجب أن تكون مرتبة على حسب الترتيب في المصحف بل إنما يجب تأليف سوره في الرسم والخط خاصة وما روى عن ابن مسعود وابن عمر أنهما كرها أن يقرأ القرآن منكوسا وقالا ذلك منكوس القلب، فإنما عنيا بذلك من يقرأ السورة منكوسة، ويبتدئ من آخرها إلى أولها، لأن ذلك حرام محظور، وأما قراءة سورة قبل سورة فلا شئ فيه.

وههنا شبهتان على الترتيب قد ذكرناهما وأجبنا عنهما وهما:

(الشبهة الأولى) كيف يكون ترتيب القرآن توقيفيا وقد ذكر عثمان لابن عباس أنه لم يسمع في شأن ترتيب الأنفال مع براءة شيئاً كما تقدمت الرواية عنه «وقد أجبنا عن هذه الشبهة» مفصلا فيما تقدم.

(الشبهة الثانية) اختلاف مصاحف الصحابة ينافي التوقيف والجواب عن ذلك تقدم مبسوطا في إبطال أدلة المخالفين ولنقتصر في بحث الترتيب على ما ذكرنا خوف التطويل.

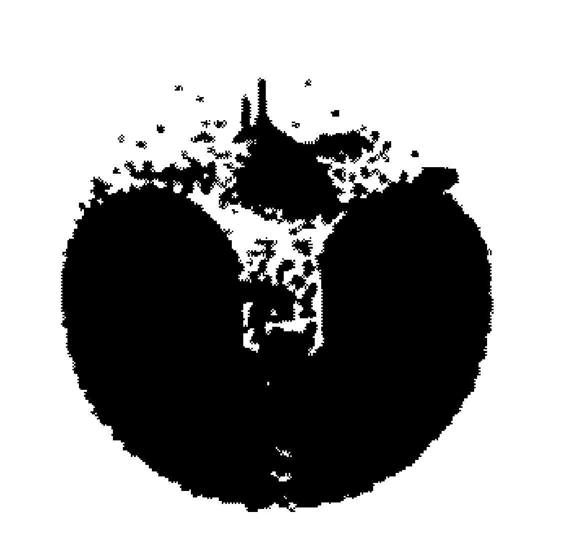
* * *



المبحث الثامن
رسم المصحف الشريف

- الكتابة فى قريش
- كتابة القرآن فى عهد الرسول
- آراء العلماء فى حكم رسم المصحف
- تعلم الرسول القراءة والكتابة
- فوائد الرسم القرآنى
- شبه حول الرسم القرآنى
- شكل القرآن
- إعجام القرآن

الكتابة فى قريش



يحسن بنا أن نقدم بين يدى هذا البحث مقدمة تتضمن كيف تعلمت قريش الكتابة ومن أى الجهات نقلت إليهم، فالمشهور عند أهل العلم ما رواه ابن الكلبى عن عوانة قال أول من كتب بخطنا هذا وهو الجزم مرامر بن مرة وأسلم بن سدرة أى وكذا عامر بن جدرة وهم من عرب طيء تعلموه من كاتب الوحى لسيدنا هود عليه السلام ثم علموه أهل الأنبار ومنهم انتشرت الكتابة فى العراق الحيرة وغيرهما فتعلمها بشر بن عبد الملك أخو كيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل وكان له صحبة بحرب بن أمية لتجارته عندهم في بلاد العراق، فتعلم حرب منه الكتابة ثم سافر معه بشر إلى مكة فتزوج الصهباء بنت حرب أخت أبى سفيان فتعلم منه جماعة من أهل مكة فبهذا كثر من يكتب بمكة من قريش قبيل الإسلام ولذا قال رجل كندى من أهل دومة الجندل يمن على قريش بذلك.

لا تجحدوا نعماء بشر عليكم	فقد كان ميمون النقيبة أزهرا
أتاكم بخط الجزم حتى حفظتموا	من المال ما قد كان شتى مبعثرا
فأجريتم الأقلام عودا وبدءة	وضاهيتمو الكتاب كسري وقيصرا
وأغنيتم عن مسند الحبي حمير	وما زبرت فى الصحف أقلام حميرا

وإنما قال أتاكم بخط الجزم كما قال عوانه بخطنا هذا وهو الجزم لأن الخط الكوفى كان قبل وجود الكوفة يسمي الجزم كأنه جزم أى اقتطع وولد من المسند الحميرى والذى اقتطعه مرامر وصاحباه فقال هذا السيوطي وغيره.

وقيل إن حرب بن أمية تعلم الخط من عبد الله بن جدعان يدل لذا ما ذكره أبو عمرو الداني بسنده إلى زياد بن أنعم قال: قلت لعبد الله بن عباس: معاشر قريش هل كنتم تكتبون فى الجاهلية بهذا الكتاب العربى تجمعون فيه ما اجتمع



وتفرقون فيه ما افترق هجاء بالألف واللام والميم والشكل والقطع وما يكتب به اليوم قبل أن يبعث النبى ﷺ؟ قال نعم، قلت فمن علمكم الكتابة، قال حرب بن أمية قلت فمن علم حرب بن أمية؟ قال عبد الله بن جدعان قلت فمن علم عبد الله ابن جدعان؟ قال أهل الأنبار قلت فمن علم أهل الأنبار؟ قال طارئ طرأ عليهم من أهل اليمن من كندة قلت فمن علم ذلك الطارئ ؟ قال الخلجان بن الموهم كان كاتب هود نبى الله بالوحى عن الله عز وجل.

وعلي كل فقد اتفق معظم مؤرخي العرب على أن الخط دخل إلى مكة بواسطة حرب بن أمية بن عبد شمس وأنه تعلمه فى أسفاره كما يدل عليه ما تقدم.

وأما الخط في المدينة المنورة فقد ذكر أصحاب السير أن النبي ﷺ دخلها وكان فيها يهودى واحد يعلم الصبيان الكتابة وكان فيها بضعة عشر رجلا يعرفون الكتابة منهم زيد بن ثابت الذى تعلم كتابة اليهود بأمر النبى ﷺ والمنذر بن عمرو وأبى بن وهب وعمرو بن سعيد.

وقد اشتهر بالكتابة من الصحابة عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلى وطلحة وأبو عبيدة من المهاجرين وأبى بن كعب وزيد بن ثابت من الأنصار.

ومما تقدم تعلم أن وجود الكتابة فى قريش كان قبيل بدء الإسلام بزمن يسير فكان ذلك إرهاصا لرسالة نبينا محمد ﷺ ونزول الوحى عليه لتكون الكتابة من أسباب حفظ القرآن الكريم من الضياع والنسيان فضلا عن حفظه في الصدور لتستكمل للقرآن الكريم الوجودات الأربعة فى الأذهان والعيان والعبارة والكتابة.

وقد كان وجود الكتابة فى مكة والمدينة قبيل الإسلام من أسباب حفظ القرآن الكريم الذى تكفل الله بحفظه فيسره في الألسنة وحفظته الصدور ويسر الأسباب لثباته بكتابته وكذلك كانت الكتابة من الأسباب العظيمة لتبليغ الرسالة إلى الملوك والقياصرة والأمراء فقد كاتبهم النبى ﷺ داعيا إلى الإسلام ونبذ الشرك والأوهام.

ولما كان للكتابة المنزلة فى حفظ الوحى وتبليغ الرسالة كانت عناية الرسول ﷺ بها شديدة لذا انتهز أول فرصة لنشر الكتابة بين المسلمين وبادر إليها فقد ذكر في كتب السيرة أنه لما أسر المسلمون فى غزوة بدر سبعين رجلا من

المشركين من قريش وغيرهم وفيهم كثير من الكتاب قبل النبي ﷺ من الأميين منهم الافتداء بالمال أما الذين يعرفون الكتابة فقد فرض على كل واحد منهم أن يعلم عشرة من صبيان المدينة الكتابة فلا يطلق إلا بعد أن يتم تعليمهم وكان هذا فداءه بدلا من المال وقيل إن هذا الفرض كان علي من عجز عن الافتداء بالمال كما في بعض الروايات.

وعلى كل فمنه يعلم مقدار حرص النبي ﷺ على محاربة الأمية من الأمة ونشر الكتابة والقراءة بينها وقد كان هذا في السنة الثانية للهجرة فلعمر الحق إن هذا النظام الذي وضعه الرسول الأعظم لأكبر برهان على أنه أعظم المصلحين للأمة، كيف لا وهو أعظم معلم وأكبر هاد إلى سواء السبيل، فمهما جهد المصلحون واجتهدوا في دعواهم فلن يبلغوا قطرة من بحره فإنه ﷺ في الوقت الذي يرى أن الأمة محتاجة إلى المال لتقوى على مكافحة عدوها ومحتاجة إلى قهر عدوها بالإثخان فيهم قتلاً إذا به يرى أن تعليم الأمة الكتابة خير من المال وهو من أهم عوامل تقدمها ورقيها وظفرها بالفوز والنصر في الحال والمآل.

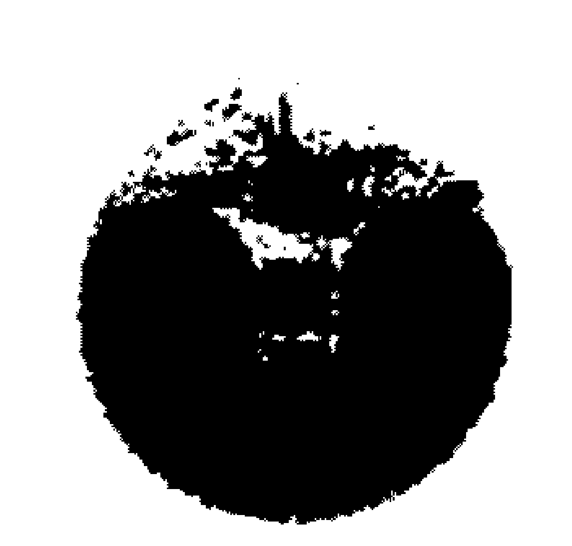
وبذلك كثرت الكتابة بين المسلمين وصارت تنتشر في كل ناحية فتحها الإسلام في حياته ﷺ وبعده والذين كتبوا من الصحابة كانوا الغاية القصوى في الحذق بالهجاء وما ورد من قوله صلى الله عليه وسلم «إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب» فهو إخبار عما كان بحسب المبدأ والغالب.

وإذ قد علمت طرفا من حال الكتابة قبل الإسلام وبعده فلنذكر كتابة القرآن الكريم ورسمه.





كتابة القرآن الكريم



كتب القرآن جميعه متفرقا في حياة الرسول ﷺ وبين يديه في الرقاع والأكتاف والأضلاع والعسب واللخاف والظرر.

«الرقاع» جمع رقعة وهي الخرقة والقطعة من الأدم، والأكتاف جمع كتف وهو العظم المنبسط كاللوح، والأضلاع جمع ضلع بكسر الضاد وفتح اللام في لغة الحجاز وتسكن في لغة تميم وهي عظم الجنبين و«العسب» جمع عسيب وهو الأصل العريض من جريد النخل و«اللخاف» جمع لخفة كصحاف وصحفة وهي الحجر العريض الأبيض الرقيق و«الظرر» هو الحجر الذي له حد كالسكين وجمعه ظرار، كما كتب في غير هذه الأشياء لأن الورق المعروف لنا الآن لم يكن موجودا عند العرب في زمنه ﷺ.

وكان من كتاب الوحي بين يديه ﷺ من الصحابة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وأبان بن سعيد وخالد بن الوليد وأبي بن كعب وأرقم بن أبي الأرقم ومعاوية بن أبي سفيان وثابت بن قيس وحنظلة بن الربيع وخالد بن سعيد بن العاص وزيد بن ثابت رضي الله عنهم أجمعين وغيرهم.

وقد كان ﷺ يدعو أحد كتابه ويأمره بكتابة ما ينزل عليه من القرآن، يدل على ذلك أمور منها:

أولا ما روى أنه لما نزل قوله تعالى «لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدُونَ»[1] قال ابن أم مكتوم وعبد الله بن جحش: يا رسول الله إنا عميان فهل لنا رخصة فأنزل الله تعالى «غير أولي الضرر» قال رسول الله ﷺ ائتوني بالكتف والدواة وأمر زيدا أن يكتبها فكتبها، فقال زيد: كأني أنظر إلى موضعها عند صدع في الكتف.

١- سورة النساء (الآية ٩٥)



«ثانيا» ما أخرجه مسلم من حديث أبي سعيد «قال رسول الله ﷺ لا تكتبوا عني شيئا غير القرآن» فهذا الحديث يدل على أن القرآن كان يكتب في عهده ﷺ.

«ثالثا» ما تقدم من قول أبي بكر لزيد بن ثابت «إنك لرجل شاب عاقل لا نتهمك قد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ» وغير ذلك من الروايات الكثيرة الدالة على أن القرآن كان يكتب بين يدي رسول الله ﷺ.

رسم المصحف

الأصل في المكتوب أن يكون موافقا للمنطوق من غير زيادة ولا نقص ولا تغيير ولا تبديل مع مراعاة الابتداء والوقف والفصل والوصل ولكن رسم المصحف قد خولف فيه هذا الأصل ولنذكر لذلك أمثلة بقدر الإيضاح من غير استقراء لجميع ما ورد:

١- الحذف: مثل حذف ألف ياء النداء نحو يا أيها الناس، وحذف ألف ذلك وأولئك ومن كل علم زائد على ثلاثة مثل ألف إبراهيم وإسماعيل وصالح وألف بعض جمع التصحيح لمذكر أو مؤنث وحذف اللام المدغمة في بعض الكلمات مثل الليل وبقائها في كلمات أخرى وهكذا.

٢- الزيادة: مثل زيادة الألف بمد آخر الاسم المجموع نحو ملاقوا ربهم وأولوا الألباب وفي نحو مائة ومائتين والظنونا والرسولا والسبيلا وغير ذلك، وزيدت الياء في «بأييد».

٣- الهمز: الأصل في الهمزة التي تقع طرفا أنها تكتب من جنس حركة ما قبلها مثل يقرأ وقد ورد في مواضع من القرآن مخالفة لذلك الأصل تتفيتأ وأتوكأ، ولا نظمأ، وما يعبأ، ويذرأ، وينشأ، ويبدأ، فإنها رسمت جميعها في المصحف بالواو وغير ذلك.

٤- الفصل والوصل: وردت بعض كلمات في القرآن مرسومة في المصحف تارة موصولة وتارة مفصولة مثل وصل «ألا» بالفتح وفصلها في مواضع «أن لا» ووصل «عما» «إلا» في «عن ما نهوا عنه».

ووصل «عمن» وفصلها في «عن من يشاء» في النور «وعن من تولى» في

النجم ووصل «كلما» وفصلها في «كل ما ردوا إلى الفتنة» «ومن كل ما سألتموه» وغير ذلك مما جاء في الرسم تارة مفصولا وتارة موصولا مثل إنما وأن لم بالفتح، وأن لن، وأين ما، ولكي لا، وفي ما، وغير ذلك.

٥- البدل: كتب في الرسم الألف واوا في مثل الصلاة والزكاة والحياة والربا غير مضافة ومشكاة والنجاة ومناة وكتب ياء في يتوفيكم، وكتبت هاء التأنيث تاء في مواضع من القرآن وذلك مثل «رحمت» في البقرة والأعراف وهود ومريم والروم والزخرف، «ونعمت» في البقرة وآل عمران والمائدة وإبراهيم والنحل ولقمان وفاطر والطور، «وسنت» في الأنفال وفاطر وغافر، «وامرأت» مع زوجها»[1] «ولعنت» في قوله «فنجعل لعنت الله» وفي «والخامسة أن لعنت» «ومعصيت» في قد سمع «وشجرت» في إن شجرت الزقوم في الدخان، «قرت» في القصص» «قرت عين لي ولك» و «بقيت» في هود «بقيت الله» وغير ذلك مما كتبت فيه هاء التأنيث في مواضع على خلاف الأصل بالتاء وفي مواضع أخرى على الأصل بالهاء.

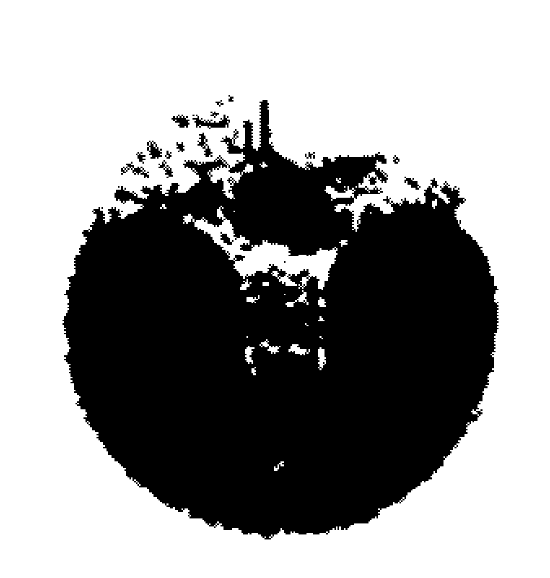
٦- «ما فيه قراءتان» وكتب على إحداهما ومن ذلك مالك يوم الدين ويخادعون وتفادوهم وتظاهرون وغيرهما مما كتب فيه بلا ألف وقد قرئ بها وبحذفها وهذه الأمثلة هي القواعد التي أتبعت في رسم المصحف ولو أردنا استقراء كل نوع منها لطال بنا المقال ولكن نقتصر على ما قدمنا ليكون أدلة على أن في رسم المصحف ألفاظا كثيرة خالف فيها الخط اللفظ وقد استوعبها علماء الرسم والقراءات مع الضبط التام.

* * *

١ - أي لفظ المرأة إن جاء مع زوجها كتبت تاء مثل «امرأت نوح» في سورة التحريم وإن جاء مطلقا كتبت هاء مثل «امرأة مؤمنة» في سورة الأحزاب.



آراء العلماء فى جواز مخالفة رسم المصحف وعدم جواز ذلك وفى كونه توفيقيا أو اصطلاحيا



قال السيوطى فى الإتقان ما نصه القاعدة العربية أن اللفظ يكتب بحروف هجائية مع مراعاة الابتداء به والوقف عليه وقد مهد النحاة له أصولا وقواعد وقد خالفها فى بعض الحروف خط المصحف الإمام.

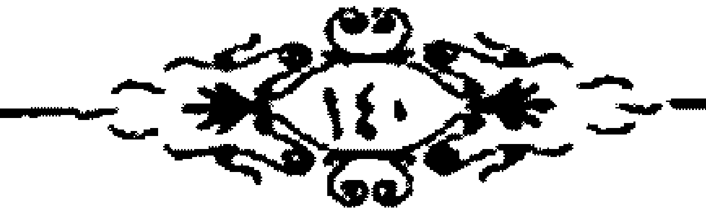
وقال أشهب: سئل مالك هل يكتب المصحف على ما أحدثه الناس من الهجاء: فقال لا، إلا على الكتبة الأولى، رواه الدانى في المقنع ثم قال: ولا مخالف له من علماء الأمة.

وقال فى موضع آخر، سئل مالك عن الحروف فى القرآن مثل الواو والألف، أترى أن يغير من المصحف إذا وجد فيه كذلك، قال لا، قال أبو عمرو يعنى بالواو والألف المزيدتين فى الرسم المعدومتين فى اللفظ نحو « أولوا »

وقال الامام أحمد يحرم مخالفة خط مصحف عثمان فى واو وياء وألف أو غير ذلك، وقال البيهقى فى شعب الإيمان، من كتب مصحفا فينبغى أن يحافظ على الهجاء الذى كتبوا به تلك المصاحف ولا يخالفهم فيه ولا يغير مما كتبوه شيئا فإنهم كانوا أكثر علما، وأصدق قلبا، ولسانا، وأعظم أمانة منا فلا ينبغى أن نظن بأنفسنا استدراكا عليهم.

وعلى ذلك فلا تجوز مخالفة رسم المصحف وكتابته على ما أحدث الناس من الهجاء لأن الرسم العثمانى قد أجمع على صحته الصحابة جميعا رضى الله عنهم.

وإجماعهم حجة وقد حث الرسول ﷺ على الاقتداء بهم فقد قال ﷺ «اقتدوا بالذين من بعدى أبو بكر وعمر» أخرجه الأمام أحمد والترمذى وابن ماجة وفى حديث «فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى».



وقال ابن مسعود: «من كان منكم متأسيا فليتأس بأصحاب رسول الله ﷺ فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوبا وأعمقها علما وأقلها تكلفا وأقومها هديا، وأحسنها حالا، اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ وإقامة دينه فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوهم فى آثارهم».

ولأن كتابته عليه كانت على وفق ما كتب بين يدى الرسول ﷺ.

رسم المصحف توقيفى

قد كتب القرآن كله في عهد رسول الله ﷺ وكان هو الذى يملى زيد بن ثابت من تلقين جبريل عليه السلام، يشهد بذلك إطباق القراء على إثبات الياء فى «وأخشونى» فى البقرة وحذفها في الموضعين من المائدة وغير ذلك مما خولف فيه بين نظائر كثيرة بالحذف والإثبات والزيادة والنقصان والتغيير والتبديل وقد ذكرنا بعضه.

وذلك كله يدل على أن الكتابة توقيفية أى بإرشاد من النبى ﷺ وكونه أميا لم يتعلم الكتابة لا ينافى ذلك، لأن الإملاء بالوحى والتلقين على هذا النحو لا يستلزم تعلم الكتابة بالمعنى الذى نفى عنه ﷺ لأن الأول إيحاء وإعلام محض بهجاء الكتابة ورقومها بدون تعلم وكسب والثانى تعلم كسبى وعمل يدوى.

«القول بأنه ﷺ تعلم القراءة والكتابة

إنه صلى الله عليه وسلم كان أميا فى بدء الإسلام وأول نزول القرآن كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾[1] وأما بعد التحدى به وعجز العرب عن معارضته والإتيان بمثله فقد قيل إنه صلى الله عليه وسلم قرأ وكتب بيده الشريفة ولنذكر عبارة الألوسى فى تفسيره بنصها عند تفسير الآية المذكورة لما فيها من الفوائد،قال:

واختلف فى أنه ﷺ هل كان بعد النبوة يقرأ ويكتب أم لا؟ فقيل إنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يحسن الكتابة، واختاره البغوى فى التهذيب وقال إنه الأصح.

---

١ - سورة العنكبوت (الآية ٤٨)



وادعى بعضهم أنه صار ﷺ يعلم الكتابة بعد أن كان لا يعلمها وعدم معرفتها بسبب المعجزة لهذه الآية فلما نزل القرآن واشتهر الإسلام وظهر أمر الارتياب تعرف الكتابة حينئذ، روى ابن أبي شيبة وغيره «ما مات رسول الله ﷺ حتى كتب وقرأ» ونقل هذا الشعبي فصدقه وقال: سمعت أقواما يقولونه وليس في الآية ما ينافيه.

وروى ابن ماجة عن أنس قال: قال ﷺ «رأيت ليلة أسرى بي مكتوبا على باب الجنة الصدقة بعشر أمثالها والقرض بثمانية عشر» والقدرة على القراءة فرع الكتابة ورد باحتمال إقدار الله تعالى إياه عليه الصلاة والسلام عليها، بدونها، معجزة، أو فيه مقدر، وهو فسألت عن المكتوب فقيل إلخ.

ويشهد للكتابة أحاديث في صحيح البخاري وغيره كما ورد في صلح الحديبية «فأخذ رسول الله ﷺ الكتاب ولا يحسن يكتب فكتب هذا ما قاضى عليه محمد ابن عبد الله» الحديث، وممن ذهب إلى ذلك: أبو ذر عبده بن أحمد الهروى وأبو الفتح النيسابورى وأبو الوليد الباجى من المغاربة وحكاه عن السمانى، وصنف فيه كتابا وسبقه إليه ابن منبه.

ولما قال أبو الوليد ذلك طعن فيه ورمى بالزندقة وسب على المنابر، ثم عقد له مجلس، فأقام الحجة على مدعاه، وكتب به إلى علماء الأطراف، فأجابوا بما يوافقه، ومعرفة الكتابة بعد أميته ﷺ، لا تنافى المعجزة بل هى معجزة أخرى لكونها من غير تعليم.

ورد بعض الأجلة كتاب الباجى لما فى الحديث الصحيح «إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب» وقال كل ما ورد فى الحديث من قوله «كتب» فمعناه أمر بالكتابة كما يقال «كتب السلطان لفلان» وتقديم قوله تعالى «من قبله» على قوله سبحانه «ولا تخطه» كالصريح فى أنه عليه الصلاة والسلام لم يكتب مطلقا، وكون القيد المتوسط راجعا لما بعده غير مطرد ثم أجاب عما أورده بعض الأجلة بما حاصله مع إيضاح وزيادة:

أولا: عن قوله «إنا أمة أمية» فإن ذلك باعتبار المبدأ أو باعتبار أكثر الأمة ضرورة أنه كان فيهم من يكتب ويحسب وهذا لا ينافى عدم بقاء وصف الأمية بالنسبة له ولغيره كما وقع من تعلم كثير من الأمة الكتابة فى عهده.



ثانيا: كون «كتب» بمعنى أمر خلاف الظاهر وقد نقل النووى عن عياض أن قوله فى الرواية التى ذكرناها «ولا يحسن يكتب فكتب» كالنص فى أنه صلى الله عليه وسلم كتب بنفسه فالعدول عنه إلى غيره مجاز لا ضرورة إليه.

ثالثا: لم لا يجوز أن يكون قوله تعالى «من قبله» راجعا إلى ما بعد أيضا وهو «ولا تخطه» وكونه غير مطرد لا ينفي الجواز المؤيد بما ذكر من حديث الحديبية ويصير المعنى وما كنت قبل إنزال الكتاب تتلو كتابا وما كنت قبل إنزال الكتاب تخطه بيمينك، ونفي ذلك قبل نزول الكتاب لا يستلزم عدم القدرة على التلاوة والخط بعده بل قد حصلت التلاوة بعد النزول فكذلك الخط ولا ضرر فيه.

رابعا: تأويل حديث الإسراء المتقدم أيضا باحتمال الإقدار أو أن فيه مقدرا خلاف الظاهر أيضا من غير ضرورة.

وبهذا يثبت جواز أنه ﷺ عرف القراءة والكتابة بعد نزول القرآن والتحدى به وأنه لا مانع من ذلك عقلا وإنما قلنا إن الذى ثبت «الجواز» لأن أدلة الفريقين المتخالفين التى تقدمت لا يفيد كل منها اعتقادا فى جانب الإيجاب أو السلب وهذا المقام لا يكفى فيه سوى اليقين فالواجب اعتقاده أنه ﷺ كان أميا فى بدء أمره وأول نزول الوحى عليه أما استمرار الأمية أو انقطاعها بتعلم الكتابة فلم يقم عليه دليل قاطع بل كلها أدلة محتملة.

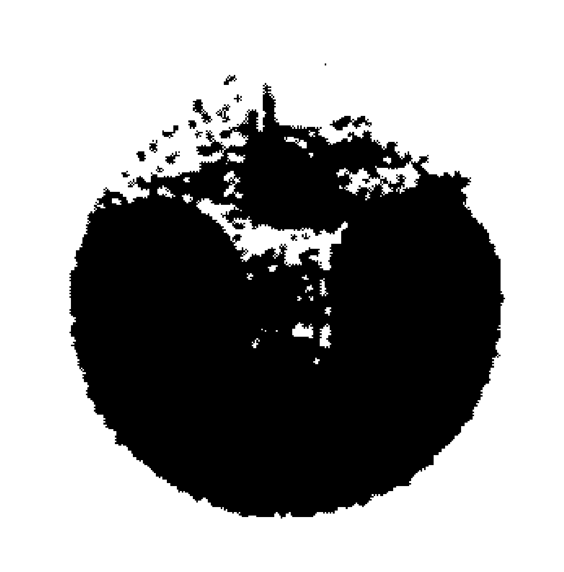
وعلى كل حال فثبوت كون رسم المصحف توقيفياً لا يتوقف على تعلمه ﷺ الكتابة لأنه إن ثبت أنه تعلمها فيما بعد فظاهر وإلا فقد كان يعلمها بطريق الوحى فكان يأمر بكتابة القرآن ورسمه كما يعلمه جبريل ومع ذلك فلا نزاع فى ثبوت تقريره ﷺ على الرسم، وتقريره على ذلك كاف فى أن الرسم توقيفى،.

وقد تلخص أن رسم المصحف ثابت بإجماع الصحابة وبتوقيف النبى ﷺ.





القائلون بأن رسم القرآن اصطلاحى لا توقيفى



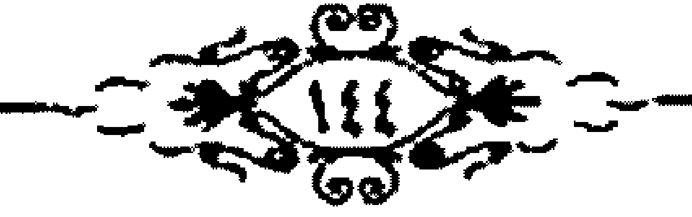
ذهب فريق من العلماء إلى أن رسم القرآن اصطلاحى لا توقيفى منهم ابن خلدون فى مقدمته والقاضى أبو بكر الباقلانى فى الانتصار حيث قال كل منهما إن رسم المصحف كان باصطلاح من الصحابة لأنهم كانوا حديثي عهد بالكتابة.

وهذا نص عبارة القاضى الباقلانى نقلا من كتاب الإبريز لابن المبارك قال «إنما فرض على الأمة الوصية فى القرآن وألفاظه، فلا يزيدون حرفا ولا ينقصونه ولا يقدمونه ولا يؤخرونه، ويتلونه على نحو ما يتلى عليهم، وأما الكتابة فلم يفرض الله على الأمة فيها شيئا إذ لم يأخذ على كتاب القرآن وخطاط المصاحف رسما بعينه دون غيره أوجبه عليهم وترك ما عداه إذ وجوب ذلك لا يدرك إلا بالسمع والتوقيف.

وليس فى نصوص الكتاب ولا مفهومه أن رسم القرآن وخطه لا يجوز إلا على وجه مخصوص وحد محدود لا يجوز تجاوزه، ولا فى نص السنة ما يوجب ذلك ويدل عليه، ولا فى إجماع الأمة ما يوجب ذلك، ولا دلت عليه القياسات الشرعية، بل السنة دلت على جواز رسمه بأى وجه سهل، لأن رسول الله ﷺ كان يأمر برسمه ولم يبين لهم وجها معينا، ولا نهى أحدا عن كتابته.

ولذلك اختلفت خطوط المصاحف، فمنهم من كان يكتب الكلمة على مخرج اللفظ، ومنهم من كان يزيد وينقص، لعلمه بأن ذلك اصطلاح وأن الناس لا يخفى عليهم الحال، ولأجل هذا بعينه جاز أن يكتب بالحروف الكوفية والخط الأول، وأن يجعل اللام على صورة الكاف وأن تعوج الألفات، وأن يكتب أيضا على غير هذه الوجوه، وساغ أن يكتب المصحف بالخط والهجاء القديمين، وجاز أن يكتب بالخطوط والهجاء المحدثة وجاز أن يكتب بين ذلك.

وإذا كانت خطوط المصاحف وكثير من حروفها مختلفة متغايرة الصورة وأن الناس قد أجازوا ذلك كله وأجازوا أن يكتب كل واحد منهم بما هو عادته وما



هو أسهل وأشهر وأولى من غير تأثيم ولا تناكر: علم أنه لم يؤخذ فى ذلك على الناس حد محدود مخصوص كما أخذ عليهم فى القراءة والأذان، والسبب فى ذلك أن الخطوط إنما هى علامات ورسوم تجرى مجرى الإشارات والعقود والرموز فكل رسم دل على الكلمة مفيد لوجه قراءتها تجب صحته، وتصويب الكتابة به على أى صورة كانت.

وبالجملة فكل من أدعى أنه يجب على الناس رسم مخصوص وجب عليه أن يقيم الحجة على دعواه وأنى له ذلك» ا هـ كلام القاضى أبو بكر الباقلانى ملخصا من الإبريز.

وبالنظر فى كلام القاضى يظهر رده بما يأتى:

«**أولا**» قوله «ولا فى نص السنة ما يوجب ذلك ويدل عليه» مدفوع بما تقدم من أن القرآن جميعه كتب بين يدى رسول الله ﷺ وقد قرر الكتاب الذين كتبوه بين يديه على كتاباتهم ولا شك أن تقرير الرسول على هيئة من الهيئات الخاصة بالكتابة سنة كما أنه قد ورد أنه كان يأمر الكتاب بشكل الكتابة كما يوحى إليه جبريل وهذا سنة.

وقد ورد أنه ﷺ قال لمعاوية رضى الله عنه «ألق الدواة وحرف القلم وانصب الباء وفرق السين ولا تعور الميم وحسن الله ومد الرحمن وجود الرحيم وضع قلمك على أذنك اليسرى فإنه أذكر لك» فقد تناول أمره صلى الله عليه وسلم لمعاوية كيفية كتابة الحروف وما يجب أن تكون عليه أدواتها.

فقوله «ولا فى نص السنة الخ» فى غير محله بل قد وردت السنة بالرسم الخاص على نحو ما ذكرناه فقوله «بل السنة دلت على جواز رسمه» إلخ باطل لا وجه له.

«**ثانيا**» قوله «ولا فى إجماع الأمة ما يوجب ذلك» مردود أيضا بأن الرسم الخاص بالقرآن قد كتب بمحضر الصحابة وأقره جميعهم وكانوا أكثر من اثنى عشر ألف صحابى فكان ذلك إجماعا منهم على ذلك وما ورد من أن واحدا أو اثنين خالف فى الرسم فقد تقرر الإجماع بعد موت المخالف فدعوى عدم وجود إجماع باطلة.

«**ثالثا**» قوله «ولذلك اختلفت خطوط المصاحف إلى قوله من غير تأثيم ولا نكير» باطل بما سبق أن نقلناه عن الإمام مالك والإمام أحمد والبيهقى وغيرهم من انهم حظروا كتابته إلا على الكتبة الأولى والهجاء الأول فكيف يدعى أن القرآن كتب بخطوط مختلفة من غير تأثيم ولا نكير، بل نقل بعضهم إجماع

الأئمة الأربعة على تحريم كتابته بغير خط المصحف الخاص وعلى ذلك فما قاله القاضى أبو بكر من جواز كتابة القرآن بغير الرسم الخاص وأن هذا الرسم اصطلاحى لا توقيفى قول باطل لم تقم عليه حجة وهو خلاف ما عليه الجمهور وثبت بالسنة والإجماع.

قال سيدى أحمد بن المبارك نقلا عن شيخه سيدى عبد العزيز الدباغ فى كتاب الإبريز ما نصه: وقال رضى الله عنه ما للصحابة ولا لغيرهم فى رسم القرآن العزيز ولا شعرة واحدة وإنما هو بتوقيف من النبى ﷺ، وهو الذى أمرهم أن يكتبوه على الهيئة المعروفة من غير زيادة ونقصان لأسرار لا تهتدى إليها العقول، وما كانت العرب فى جاهليتها ولا أهل الإيمان من سائر الأمم فى أديانهم يعرفون ذلك ولا يهتدون بعقولهم إلى شئ منه.

وهو سر من أسراره خص الله كتابه العزيز دون سائر الكتب السماوية، فلا يوجد شبه ذلك الرسم لا فى التوراة ولا فى الإنجيل ولا فى غيرهما من الكتب السماوية وكما أن نظم القرآن معجز فرسمه أيضا معجز، وكيف تهتدى العقول إلى سر زيادة الألف فى مائة دون فئة، وإلى سر زيادة الياء فى بأييد من قوله تعالى ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ﴾[1] أم كيف تتوصل إلى سر زيادة الألف فى سعوا من قوله تعالى فى الحج ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾[2] وعدم زيادتها فى سبأ من قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾[3] وإلى سر زيادتها فى قوله ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾[4] وحذفها من قوله تعالى ﴿وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾[5] وإلى سر زيادتها فى قوله تعالى ﴿أَوْ يَعْفُوَا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾[6] وإسقاطها فى قوله تعالى ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾[7] وبعد أن ذكر أمثلة كثيرة لاختلاف الرسم القرآنى ونظائر لذلك قال:

١- سورة الذاريات : ٤٧. ٢- سورة الحج : ٥١. ٣- سورة سبأ : ٥.
٤- سورة الاعراف : ٧٧. ٥- سورة الفرقان : ٢١. ٦- سورة البقرة : ٢٣٧.
٧- سورة النساء : ٩٩.

وأما قول من قال أن الصحابة رضى الله عنهم هم الذين اصطلحوا على الرسم المذكور فلا يخفى ما فى كلامه، لأن القرآن العزيز كتب فى زمانه صلى الله عليه وسلم وبين يديه على هيئة من الهيئات وحينئذ فلا يخلو ما اصطلح عليه الصحابة رضوان الله عليهم، إما أن يكون هو عين الهيئة أو غيرها .

فإن كان عينها بطل الاصطلاح لأنه اختراع وابتداع وسبقية التوقيف تنفى ذلك وتوجب الإتباع.

فإن نسب اتباعهم حينئذ للاصطلاح كان بمنزلة من قال إن الصحابة اصطلحوا على أن الصلوات خمس وعلى أن عدد الركعات مثلا أربع، وهذا بعيد كل البعد عن الاصطلاح بل هو عين الإتباع.

وإن كان ما اصطلحوا عليه غير الهيئة التى كانت بين يديه صلى الله عليه وسلم فلا يصح ذلك لوجهين:

أولهما: نسبة الصحابة وأعلام الهدى إلى مخالفة الرسول ﷺ وذلك محال، لما تقدم من أننا أمرنا باتباعهم فلو كانوا مخالفين لما أقره الرسول ﷺ لكنا مأمورين باتباعهم وفى الوقت عينه نحن مأمورون باتباع سنته ﷺ فيلزم الجمع بين النقيضين وهو محال.

ثانيهما: أن سائر الأمة من الصحابة وغيرهم أجمعوا على أنه لا يجوز أن يزاد فى القرآن حرف ولا أن ينقص منه حرف، والكتابة أحد الوجودات الأربع، وما بين الدفتين كلام الله فإذا كان النبى ﷺ أمر بالكتابة على هيئة أو قرر الكتابة على هيئة، والصحابة خالفوه فى ذلك لزم أنهم تصرفوا فى القرآن من جهة أحد وجوداته الأربعة بالزيادة والنقصان ويكون بذلك قد وقعوا فيما أجمعوا عليه هم وغيرهم على أنه لا يحل لأحد فعله.

ويلزم أيضا تطرق الشك إلى جميع ما بين الدفتين لأننا إذا جوزنا أن تكون فيه حروف زائدة على ما فى علم النبى ﷺ وعلى ما عنده وأنها ليست بوحى ولا من عند الله ولم نعلمها بعينها شككنا فى الجميع.

ولئن جوزنا لصحابى أن يزيد فى كتابته حرفًا ليس بوحي لزمنا أن نجوز



لصحابى آخر نقصان حرف من الوحى إذ لا فرق بينهما وحينئذ تنحل عروة الإسلام بالكلية نعوذ بالله من ذلك.

ودعوى الاصطلاح تكون صحيحة لو كانت كتابة القرآن الكريم إنما حدثت فى عصرهم بعد وفاة النبى ﷺ وليس الأمر كذلك فثبت أن الرسم توقيفى لا اصطلاحى وأن النبى ﷺ هو الآمر بكتابته على الهيئة المعروفة.

«فقلت» إنه عليه الصلاة والسلام كان لا يعرف الكتابة وقد قال تعالى فى وصفه ﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون﴾ فقال رضى الله عنه كان صلى الله عليه وسلم لا يعرفها بالاصطلاح والتعلم من الناس وأما من وجهة التعلم الربانى فيعلمها ويعلم أكثر منها .. ا هـ ملخصا مع زيادة وإيضاح وقد علمت وجه دلالة الآية المذكورة فثبت أن رسم القرآن توقيفى وأنه لا تجوز مخالفته ولنورد بعض فوائد اتباع «الرسم المخصوص وما يترتب على مخالفته».

فوائد الرسم القرآنى المخصوص

«أولا» اتصال السند فى القرآن فلا يجوز أن يقرأه أحد ولا أنه يقرئه لغيره إلا بما رواه بسند متصل فمن علم القواعد العربية ولكنه لا يتبع الأثر والرواية والسند لا يعرف قراءة القرآن على وجهها لأنه قد تحسن له العربية قراءة لم تنقل عن أحد ولم يقرأ بها أحد.

انظر إلى كتابة «كهيعص» و«حمعسق» و«طسم» وغيرها، فالعالم بالعربية وحدها الذى لا يتبع رواية ولا نقلا، لا يحسن النطق بها على وجهها من غير موقف، وأنى له ذلك، والقراءات هى العلم بكيفية أداء كلمات القرآن واختلافها، وذلك لا يكون بالقياس بل لابد من السماع والتوقيف «واتصال السند» من خواص القرآن العزيز بالنسبة لغيره من الكتب السماوية وبه ظل محفوظا كما وعد الله بذلك، والرواية متبعة والقراءة سنة يأخذها الآخر عن الأول.

ولاشك أن الرسم المخصوص له أعظم الأثر فى اتصال السند إذ لو كانت جميع ألفاظه مكتوبة طبق النطق بها لجرأ كثير على قراءته بدون سند ولا رواية



ظنا منهم أن ذلك كاف فلا يعرفون ما فيه من مد وهمز وتخفيف وإمالة وإظهار وإدغام وإخفاء وغير ذلك وبهذا ظهر أن للرسم المخصوص فائدة عظيمة.

«**ثانيا**» من فوائد الرسم الدلالة على أصل الحركة ككتابة الكسرة ياء والضمة واو فى نحو «ايتاء ذى القربى» «وسأوريكم» أو الدلالة على أصل الحرف ككتابة الصلوة والزكوة والحيوة بالواو.

«**ثالثا**» إفادة المعانى المختلفة بالرسم مثل وصل أمن فى قوله ﴿أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا﴾[2] وفصلها فى قوله ﴿أم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً﴾[1] فإن المفصولة تفيد معنى بل، دون الموصولة.

«**رابعا**» الدلالة على بعض اللغات الفصيحة ككتابة هاء التأنيث تاء فى لغة طيء ومثل حذف آخر المضارع المعتل لغير جازم، مثل ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾[3] فى لغة هذيل.

«**خامسا**» المحافظة على ما كان فى عهد النبى ﷺ وأجمع عليه الصحابة.

المضار التى تنشأ بترك الرسم المخصوص:

«أولا» ضياع كثير من اللغات الفصحى إذ لو ضاع الرسم لا يمكن الاستدلال عليها بالقرآن الذى هو أصدق الحديث.

«ثانيا» تطرق التحريف إلى الكتاب الشريف بتغيير رسمه الأصلى التوقيفى.

«ثالثا» انقطاع السند الذى هو أحد أركان القرآن وفى ذلك ضياع للقرآن وإهمال لأمره إذ رسمه الخاص هو الحصن المانع لقراءته بغير السند والرواية.

* * *

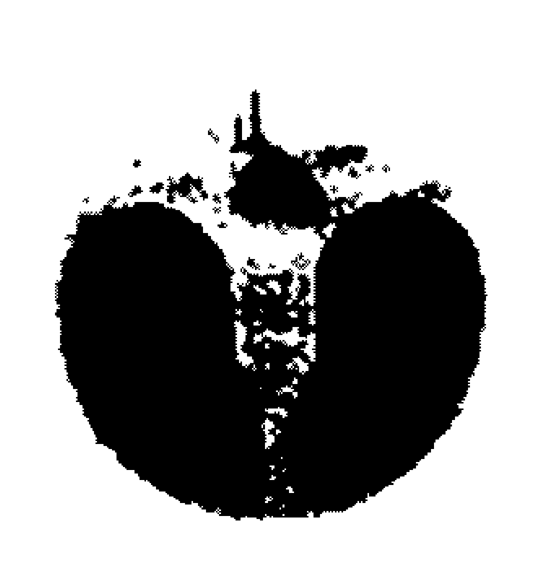
١ – سورة الملك :الآية ٢٢ .


٢ – سورة النساء :الآية ١٠٩.

٣ – سورة هود : الآية ١٠٥.



نموذج من الروايات التى أوردت شبها على كتابة القرآن



قد تمسك بعض الطاعنين على كتابة القرآن ببعض روايات وأوردوها شبها وطار بها بعض الملاحدة فرحاً لظنهم أنها تفيدهم فى الطعن على كتابة القرآن وقراءته مع أن أكثرها لم يثبت من طريق صحيح وعلى فرض صحته فإنه لا يعارض القطعى من القراءة التى ثبتت بالتواتر الذى يفيد العلم القطعى.

إذ العمدة فى ثبوت القرآن وقراءاته إنما هو التواتر أو السند الصحيح مع موافقة النحو والرسم كما سيأتى: فلو وردت رواية آحاد بما يخالف التواتر فإنها لا تعارضه لأن الأحادى مهما كان صحيحا لا يفيد أكثر من الظن ولا يثبت به قرآن فلا يعارض القطعى الثابت بالتواتر، وبالأولى إذا كان الأحادى غير صحيح فلا يلتفت إليه وهذا القدر كاف فى رد كل رواية اعتبرت شبهة إجمالاً ولكنا نذكر أهمها تفصيلا ونتبعه بالرد عليه:

أولا: من الشبه ما روى عن عثمان رضى الله عنه أنه لما عرض المصحف قال: «أحسنتم وأجملتم إن فى القرآن لحنا ستقيمه العرب بألسنتها» ونقل عن عكرمة أنه قال «لما كتبت المصاحف عرضت على عثمان فوجد فيها حروفا من اللحن فقال لا تغيروها فإن العرب ستغيرها أو قال ستعربها لو كان الكاتب من ثقيف والملى من هذيل لم توجد فيه هذه الحروف».

فهاتان الروايتان تدلان على أنه قد حصل فى كتابة القرآن لحن وخطأ فكيف يكون الرسم توقيفيا، وكيف لا يجوز مخالفته ويجاب بما يأتى:

أما عن الرواية الأولى فمن وجهين:

«أولهما» أنه حديث مرسل وفى إسناده اضطراب وانقطاع يعود بالجهالة على بعض رواته والحق أن ذلك الحديث لم يصح عن عثمان أصلا ورده جماعة



من العلماء كالإمام أبي بكر الباقلاني والحافظ أبي عمرو الداني وأبي القاسم الشاطبي والجعبري وغيرهم وأيضا في ألفاظه اضطراب لأن قوله أحسنتم وأجملتم مدح فكيف يمدحهم على الإساءة وهي وجود اللحن منهم.

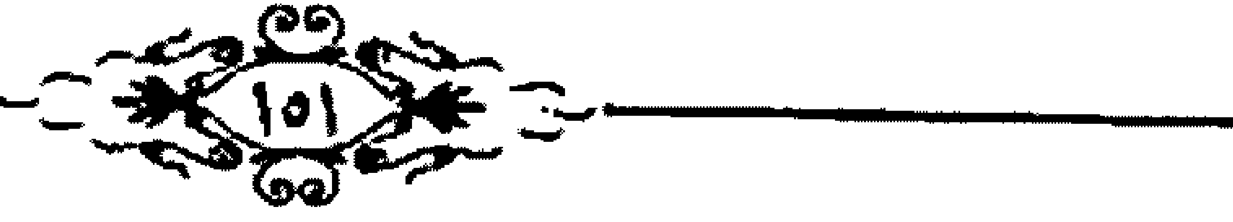
«ثانيهما» إن هذا الأثر على فرض صحته ينافي ما كان عليه عثمان رضي الله عنه من مواصلته لدرس القرآن وإتقانه لألفاظه وموافقته على ما رسم في المصاحف المنفذة إلي الأمصار مع كونه من الصحابة المشهورين بإقراء القرآن وتعليمه، وقد أخرج أبو عبيد عن عبد الرحمن عن هانئ مولى عثمان قال: كنت عند عثمان وهم يعرضون المصاحف فأرسلني بكتف شاة إلي أبي بن كعب فيها لم يتسن، وفيها لا تبديل للخلق وفيها فأمهل الكافرين، فدعا بالدواة فمحا أحد اللامين وكتب: لخلق الله، ومحا فأمهل وكتب فمهل، وكتب لم يتسنه، فألحق فيها الهاء فكيف يدعى عليها أنه رأى فساداً فأمضاه مع أنه كان يوقف على ما يكتب ويرفع الخلاف الواقع من الناسخين إليه فيحكم بالحق ويلزمهم إثبات الصواب وتخليده.

فغير ممكن أن يتولى رضي الله عنه جمع المصحف مع سائر الصحابة ليرتفع الخلاف في القرآن بين المسلمين ثم يترك فيه لحنا وخطأ ليتولى إصلاحه من يأتي بعده ممن لا يدرك مداه ولا يبلغ غايته.

«**ويجاب عن الرواية الثانية**» بأنها مروية عن عكرمة عن عثمان مع أن عكرمة لم يسمع من عثمان شيئا ولم يره وقد وردت أيضا عن يحيى بن يعمر عن عثمان وهو مثل عكرمة في أنه لم يسمع من عثمان ولم يره فهي رواية مرسلة وفي سندها انقطاع فضلا عما في ألفاظها من اضطراب لمنافاتها لما كان عليه عثمان كما تقدم.

وأيضا قوله فإن العرب ستغيرها أو ستعربها غير معقول لأن الغرض من كتابة المصحف رجوع العرب في صحة قراءتهم إليه فلو توقفت صحته على العرب في تغيير لحنه أو إعرابه لزم الدور.

وبيانه أنهم لا يقرأون صحيحا إلا وفق المكتوب والمكتوب لا يكون صحيحا إلا إذا غيروه أو أعربوه فتكون صحة قراءة العرب موقوفة على القراءة في



المصحف الذى كتبه لهم عثمان وصحة المصحف وسلامته من اللحن موقوفة على صحة قراءتهم بتغيير لحنه أو إعرابه وهذا دور ظاهر البطلان.

«ثانيا» من الشبه ما روى عن سعيد بن جبير أنه كان يقرأ ﴿ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ ﴾[1] ويقول هو لحن من الكتاب.

«والجواب» عن ذلك أنه لم يرد بقوله هو لحن أنه خطأ وإنما أراد به أنه لغة، والدليل على ذلك أنه كان يقرأ والمقيمين بالنصب والياء فلو كان يريد باللحن الخطأ لما قرأ به.

«ثالثا من الشبه» روايات عن ابن عباس وهي:

١- أنه قال في قوله تعالى «حتى تستأنسوا وتسلموا» إنه قد أخطأ الكاتب إنما هي: حتى تستأذنوا.

٢- روى عنه أيضا أنه قرأ «أفلم يتبين الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا» فقيل له إنها في المصحف «أفلم ييأس الذين آمنوا» فقال أظن الكاتب كتبها وهو ناعس.

٣- روى عن ابن عباس أيضا من طريق سعيد بن جبير أن ابن عباس كان يقول في قوله ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾[2] إنما هي ووصى التزقت الواو بالصاد وورد هذا الأثر عنه بروايات متعددة مختلفة وفي بعضها زيادة «ولو كان قضاء من الرب لم يستطع أحد رد قضاء الرب ولكنها وصية أوصى بها العباد».

٤- روى عنه أيضا أنه كان يقرأ ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً ﴾[3] أي بدون الواو.

٥- ما روى عنه أيضا في قوله تعالى ﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ ﴾[4] قال هي من الكاتب هو أعظم من أن يكون ذرة مثل نور المشكاة إنما هي مثل نور المؤمن.

---

١ - سورة النساء : ١٦٢.
٢ - سورة الإسراء : ٤٨ .
٣ - سورة الأنبياء : ٤٨ .
٤ - سورة النور : ٣٥ .



«والجواب» عن جميع الروايات الواردة عن ابن عباس من وجوه : -

١- أنها كلها روايات غير صحيحة ولا معتبرة بل هى روايات مدسوسة فى كتب الأئمة نقلت من غير تثبت، قال أبو حيان فى الرواية الأولى إن من روى عن ابن عباس أنه قال ذلك فهو طاعن فى الإسلام ملحد فى الدين وابن عباس برئ من ذلك القول.

وقال فى الرواية الثانية هو قول ملحد زنديق، وقال الزمخشرى ونحن مما لا يصدق هذا فى كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وكيف يخفى مثل هذا حتى يبقى ثابتا بين دفتى الإمام وكان متقلبا بين أيدى أولئك الأعلام المحتاطين فى دين الله المهيمنين عليه لا يغفلون عن جلائله ودقائقه، خصوصا عن القانون الذى إليه المرجع والقاعدة التى عليها البناء هذا والله فرية ما فيها مرية.

وقال ابن الأنبارى فى كل من الروايات الثلاثة الأخيرة إنه ضعيف ومعارض بما قرأ به ابن عباس نفسه على خلاف ما روى عنه.

٢- على فرض صحة هذه الروايات فهى روايات آحادية لا تعارض القطعى ولا يثبت بها قرآن مع مخالفتها لرسم المصحف.

٣- إنها معارضة بما روى عن ابن عباس من أنه كان يقرأ على خلاف ما روى عنه كيف وهو رضى الله عنه قد أخذ القرآن عن زيد بن ثابت وأبى بن كعب وهما كانا ممن جمع المصاحف وزيد بن ثابت كان فى جمع أبى بكر وكاتب الوحى فلا يعقل أن تكون قراءة ابن عباس على خلاف قراءة من أخذ عنهم القرآن.

«رابعا» من الشبه ما ورد عن عائشة رضى الله عنها وهو ما روى عن هشام ابن عروة عن أبيه قال سألت عائشة عن لحن القرآن، عن قوله تعالى ﴿إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾[١] وعن قوله تعالى ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾[٢] وعن قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ﴾[٣] فقالت يابن أخى هذا عمل الكتاب قد أخطئوا فى الكتاب.

١ - سورة طه : الآية ٦٣ .

٢ - سورة النساء : الآية ١٦٢.

٣ - سورة المائدة : الآية ٦٩.



«والجواب عن ذلك»:

١ - أما بالنسبة لآية «إن هذان» بتشديد النون فإن اسم الإشارة لم يكتب بالألف كما لم يكتب بالياء، وإذا لم يكن مكتوبا بالألف فكيف يعقل أن عائشة تخطئ الكاتب بما لم يكتبه بل الذى يعقل أنها تخطئ القارئ الذى يقرأ بالألف مع تشديد النون ولم ينقل ذلك عنها ولا عن غيرها.

وأما بالنسبة لقوله تعالى والمقيمين الصلاة من سورة النساء فقد قرأ الجمهور بالياء منصوباً وقرأ جماعة بالواو، منهم أبو عمرو وقال أبو حيان فى البحر بعد أن ذكر عن عائشة رضى الله عنها وعن إبان بن عثمان أن كتبها بالياء من خطأ كاتب المصحف، ولا يصح عنهما ذلك لأنهما عربيان فصيحان وقطع النعوت أشهر في لسان العرب وهو باب واسع ذكر عليه شواهد سيبويه وغيره، وعلى القطع خرج سيبويه ذلك.

وقال الزمخشرى لا تلتفت إلى ما زعموا من وقوعه لحناً فى خط المصحف وربما التفت إليه من لم ينظر في الكتاب ولم يعرف مذاهب العرب وما لهم فى النصب على الاختصاص من الإفتتان وخفى عليه أن السابقين الأولين الذين مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كانوا أبعد همة فى الغيرة على الإسلام وذب المطاعن عنه من أن يتركوا فى كتاب الله ثلمة يسدها من بعدهم وخرقاً يرفوه من يلحقهم.

ومراده بالكتاب كتاب سيبويه.

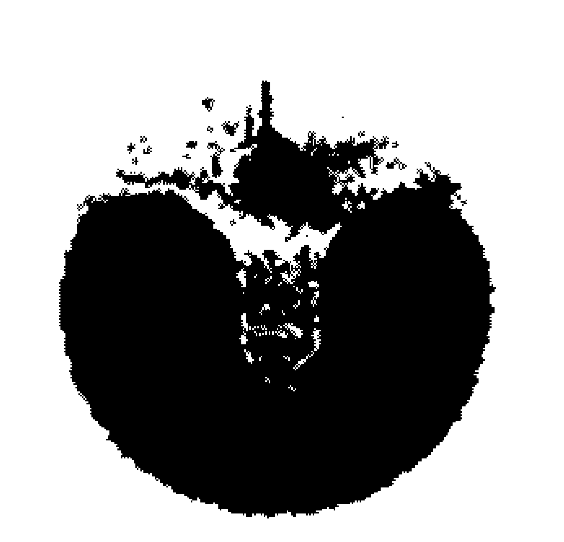
وأما بالنسبة لقوله تعالى «إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون» فى سورة المائدة فلم ينقل عن عائشة أيضا أنها خطأت من كان يقرأ بالواو فلا يعقل إذا أن تخطئ الكاتب لأنه كتب كما أمر.

٢- يجاب عن الآيات الثلاث بجواب يعمهما وهو أن ما ثبت فى رسم المصحف ثبتت القراءة به متواترة فى كل وله وجه فى العربية فيكون قرآنا قطعا ولا يرد بروايات آحاد مهما بلغت من الصحة وسيأتى أن نذكر أنه متى صح الإسناد ووافق رسم المصحف ووافق وجه النحو كان قرآنا وإلا فلا.

وبما تقدم جميعه تعلم أن هذه الشبه وما ماثلها لا يعول عليه ولا يلتفت إليه ولنكتف بهذا القدر فى هذا المبحث والله أعلم.



شكل القرآن



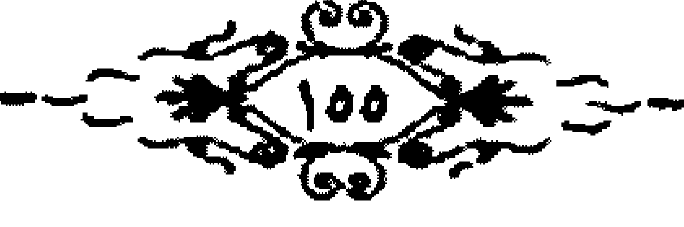
الشكل هو ما يدل علي عوارض الحرف من حركة أو سكون سواء كان ذلك فى أول الكلمة أو وسطها أو آخرها.

وفي القاموس فى مادة شكل: والكتاب أعجمه كأشكله كأنه أزال عنه الإشكال، وقوله والكتاب أى وشكل الكتاب ولاشك أن ما يميز الحرف من جهة كونه متحركاً مع بيان نوع حركته من ضمة أو فتحة أو كسرة أو من جهة كونه ساكناً - يزيل إبهامه وإشكاله.

ولم يكن الخط الذى وصل إلى العرب مضبوطاً بالحركات والسكنات بل كان خالياً مما يدل على حركات الحروف وسكونها وكانت ملكتهم وسليقتهم العربية تغنيهم عن ذلك إذ كانوا ينطقون بالكلمات طبق أوضاعها وما يرابها من المعانى من غير حاجة إلى ما يدل على بنية الكلمة وإعرابها لما هو متأصل فى نفوسهم من سليقة الفصاحة والبلاغة والإعراب.

ولذا حينما كتبت المصاحف فى عهد عثمان جردوها من الشكل ومن النقط اعتمادا على سليقيهم وعلى أن المدار فى القرآن على التلقى والرواية فلم يكن بهم حاجة إلى شكله حتى اتسعت رقعة الإسلام واختلط العرب بالعجم ودخل فى اللسان بعض هجنة وحدث اللحن فى اللسان وحدثت حوادث نبهت المسلمين إلى القيام بحفظ القرآن الذى به نور الإسلام وعليه مدار الأحكام من أن يتطرق إلى ألفاظه اللحن والخطأ.

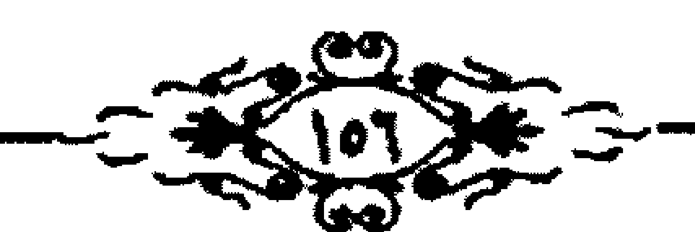
وكان قد ظهر فى المسلمين من تعلم أصول النحو وبرع فيه وفى القرآن أمثال أبى الأسود الدؤلى ويحيى بن يعمر العدوى قاضى خراسان ونصر بن عاصم الليثى وكان أبو الأسود قد سمع قارئا يقرأ «إن الله برئ من المشركين ورسوله» بجر اللام فأفزع ذلك أبا الأسود وقال: عز وجه الله أن يبرأ من رسوله، ثم ذهب إلى زياد والى البصرة وقال له قد أجبتك إلى ما سألت وكان زياد قد سأله أن يضع للناس علامات يعربون بها كتاب الله.



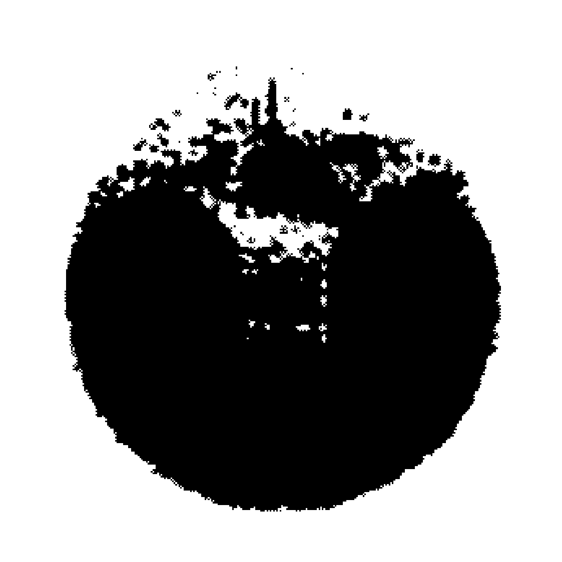
ثم وضع أبو الأسود للقرآن علامات تدل على الحركات والسكنات وقد جعل للفتحة نقطة فوق الحرف وللكسرة نقطة أسفله وللضمة نقطة بين الحرف وللتنوين نقطتين وسلك الناس طريقته غير أنهم زادوا عليها علامة للحرف المشدد كالقوس، ولألف الوصل جرة فوقها أو تحتها أو فى وسطها بحسب ما قبلها من ضمة أو فتحة أو كسرة.

واستمرت طريقة الشكل على هذا إلى أن كان عهد عبد الملك بن مروان واضطروا إلى تمييز ذات الحروف من بعضها بعد تمييز عوارضها ووضع النقط الذى هو الإعجام للباء والتاء والثاء وهكذا كما سيأتي فالتبس الشكل بالنقط فجعل لكل منهما مداد مخالف للون الآخر ثم جعل للشكل علامات أخرى وهى العلامات الموجودة اليوم للفتحة والكسرة والضمة والتنوين والتشديد وغيرها وبذلك صار القرآن مشكولا منقوطا.

* * *



إعجام القرآن



الإعـجـام هو الدال على ذات الحـروف وتميـيـز الحـروف المتماثلة فى الرسم من بعضها وفى القاموس فى مادة عجم: والكتاب نقطه كعجّمه وأعجمه وقول الجوهرى لا تقل عَجَمْت الكتاب وهم .

فالإعجام إزالة العجمة كالشكل إزالة الإشكال وقد تقدم عن القاموس أن الشكل هو الإعجام فهو يدل على أن كلاً منهما يطلق على الآخر غير أن الإصطلاح أخيرا خص الشكل بالحركات والإعجام بالنقط للتمييز بين ما يدل على ذات الحرف وبين ما يدل على عوارضه.

وقد كانت المصاحف مجردة من النقط كما أنها مجردة من الشكل كما تقدم اعتمادا على التلقى والرواية وقد اختلف المؤرخون فبعضهم يرى أن الإعجام كان معروفا قبل الإسلام لتمييز الحروف المتشابهة من بعضها غير أنه قد ترك.

وبعضهم يرى أن الإعجام لم يعرف إلا من طريق أبى الأسود الدؤلى ثم اشتهر ووضع فى القرآن فى عهد عبد الملك بن مروان والظاهر الأول لأنه يبعد جدا أن لا يكون للحروف علامات تميز المتشابهات منها عن بعض وعلى كل فإحداث النقط فى القرآن بل تعميمه فى الكتابة عامة كان فى عصر عبد الملك بن مروان.

وقد اشتدت الحاجة إلى ذلك عندما صارت الحروف تلتبس على القراء فى مثل (ننشزها وننشرها) بالراء أو بالزاى (ولتكون لمن خلفك) بالفاء أو القاف واشتبهت الحروف ببعضها فاهتم عبد الملك لذلك وأمر الحجاج بالنظر فيه فأحدث الإعجام فى عهده».

وكان ذلك على يدى نصر بن عاصم الليثى ويحيى بن يعمر العدوانى تلميذى أبى الأسود الدؤلى وكانا من الصلاح والورع وبلوغ الغاية فى العربية والقراء بمكان عظيم فوضعا النقط من واحدة إلى ثلاث للحروف المتشابهة وكان فى



هذا توفيق للامة عظيم إذ كان سببا فى حفظ القرآن ومنه تعلم أن الشكل والإعجام كان لحدوثهما صيانة للقرآن وأما التحزيب والتعشير وفواتح السور وغير ذلك فكل هذا مما زيدَ لغرض التيسير على القارئ ولكن ليس له من الأهمية ما للشكل والنقط.

وقد اختلف العلماء فى جواز ذلك وإليك عبارة القرطبى مع اختصار فى بعضها: «فصل» وأما شكل المصحف ونقطه فروى أن عبد الملك بن مروان أمر به وعمله فتجرد لذلك الحجاج بواسط وجد فيه وزاد تحزيبه وأمر وهو والى العراق الحسن ويحيى بن يعمر بذلك.

وألف إثر ذلك بواسط كتابا فى القراءات جمع فيه ما روى من اختلاف الناس فيما وافق الخط، ومشى الناس على ذلك زمناً طويلاً إلى أن ألف ابن مجاهد كتابه فى القراءات وأسند الزبيدى فى كتاب الطبقات إلى المبرد أن أول من نقط المصحف أبو الاسود الدؤلى وذكر أيضا أن بن سيرين كان له مصحف نقطه له يحيى بن يعمر.

* * *

فصل

وأما وضع الأعشار فقال ابن عطية مر بى فى بعض التواريخ أن المأمون العباسى أمر بذلك وقيل إن الحجاج أمر بذلك.

ثم نقل عن مجاهد أنه كره التعشير وعن مالك كراهة العشور التى تكون فى المصحف بالحمرة وغيرها وكراهته كتابة خواتيم السور فى أمهات المصاحف دون مصاحف الغلمان.

وقال قتادة بدءوا فنقطوا ثم خمسوا ثم عشروا وعن يحيى بن كثير أنه قال: كان القرآن مجردًا فى المصاحف فأول ما أحدثوا فيه النقط على الباء والتاء والثاء وقالوا لا بأس هو نور له، ثم أحدثوا النقط عند منتهى الآى ثم أحدثوا الفواتيح والخواتيم وقال الدانى هذه الأخبار كلها تؤذن بأن التعشير والتخميس وفواتح السور ورءوس الآى من عمل الصحابة رضى الله عنهم قادهم إلى عمله الاجتهاد.

وأرى أن من كره ذلك منهم ومن غيرهم إنما كره أن يعمل بالألوان كالحمرة والصفرة وغيرها على أن المسلمين فى سائر الآفاق قد أطبقوا على جواز ذلك واستعماله فى الأمهات وغيرها والحرج والخطأ مرتفعان عنهم فيما أطبقوا عليه إن شاء الله.

وأنت خبير بأن نسبة هذا إلى عمل الصحابة مخالف لما هو المشهور من أن ذلك كان من عمل أبى الأسود الدؤلى فى عهد زياد بالبصرة وعمل تلميذيه فى عهد عبد الملك بن مروان والله أعلم

* * *

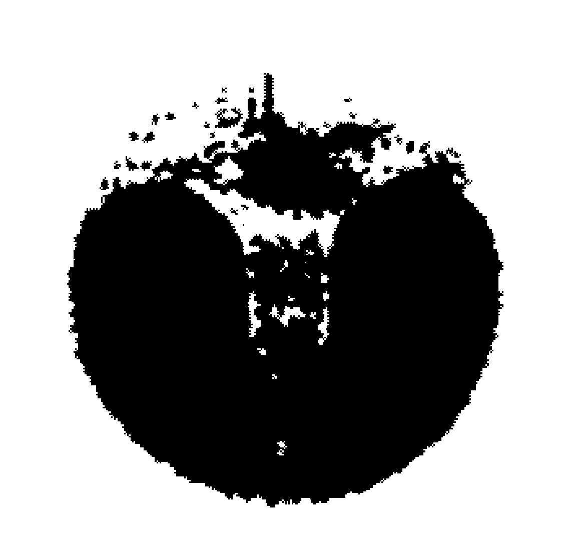
المبحث التاسع

القراءات والقراء

- الضابط فى قبول القراءات
- أنواع القراءات
- أنواع الاختلاف فى القراءة
- السبب فى اختلاف القراءات
- فوائد اختلاف القراءات
- القراءات السبع
- القراء السبعة
- باقى العشرة
- القول فى تواتر القرآن والقراءات
- شبه القائلين بعدم تواتر القراءات
- كيفية تحمل القرآن



الضابط فى قبول القراءات



«القراءات» هى اختلاف ألفاظ القرآن فى الحروف وكيفيتها من تخفيف وتشديد ومد وإمالة وغيرها فحقيقتها تغاير حقيقة القرآن قال الزركشى فى البرهان: القرآن والقراءات حقيقتان متغايرتان فالقرآن هو الوحى المنزل على محمد ﷺ للبيان والإعجاز والقراءات اختلاف ألفاظ الوحى المذكور فى الحروف وكيفيتها من تخفيف وتشديد وغيرهما.

وكل قراءة وافقت العربية ولو بوجه ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالا، وصح سندها، فهى القراءة الصحيحة، التى لا يجوز ردها، ولا يحل إنكارها. بل هى من القراءات الذى نزل بها القرآن، ووجب على الناس قبولها، سواء نقلت عن الأئمة السبعة الآتى بيانهم، أم عن العشرة كذلك، أم عن غيرهم، ولا تقبل قراءة تعزى إلى أى إمام سواء كان من السبعة أم من غيرهم، ولا يطلق عليها لفظ الصحة وأنها أنزلت هكذا إلا إذا دخلت فى هذا الضابط وانطبقت جميع الأوصاف عليها فإن الاعتماد إنما هو على استجماع تلك الأوصاف لا على من تنسب إليه.

«وقولنا» فى الضابط ولو بوجه المراد به أحد وجوه النحو سواء كان أفصح أم فصيحا مجمعا عليه أم مختلفاً فيه اختلافاً لا يضر مثله إذا كانت القراءة مما شاع وذاع وتلقاه الأئمة بالإسناد الصحيح؛ لأنه الأصل الأعظم والركن الأقوم فكم من قراءة أنكرها بعض أهل النحو ولم يعتبر إنكارهم، كإسكان ﴿ بَارِئْكُمْ فَاقْتُلُواْ ﴾[1] وخفض ﴿ وَالأَرْحَامِ ﴾[2] ونصب ﴿ لِيَجْزِيَ قَوْمًا ﴾[3] والفصل بين المضافين فى ﴿ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ ﴾[4] وغير ذلك، لأن أئمة القراء لا يعتمدون فى شيء من القراءات على الإفشاء فى اللغة ولا على القياس فى العربية بل على الأثبت فى الأثر والأصح فى النقل مع بقية الضابط ومتى

١- سورة البقرة : ٥٤ .
٢ - النساء : ١ .
٣ - سورة الجاثية: ١٤ .
٤ - سورة الأنعام: ١٣٧ .



ثبتت الرواية لم يردها قياس عربية ولا فشو لغة لأن القراءة سنة متبعة يلزم قبولها والمصير إليها.

(وقولنا) ووافقت أحد المصاحف العثمانية المراد به ولو كان ثابتا في بعضها دون بعض كقراءة ابن عامر «قالوا اتخذ الله ولدا» في البقرة بغير واو «وبالزبور وبالكتاب» بإثباتها فيهما فإن ذلك ثابت في المصحف الشامي، وكقراءة ابن كثير «تجرى من تحتها الأنهار» في آخر براءة بزيادة من، فإنه ثابت في المصحف المكي وسواء كانت موافقة أحد المصاحف تحقيقا كما ذكر أو كانت الموافقة تقديرا وهذا معنى قولنا ولو احتمالا وذلك «مثل ملك يوم الدين» فإنه كتب في جميع المصاحف بلا ألف مع أنه قرئ بها وبدونها فقراءة الحذف توافق رسم المصحف تحقيقا وقراءة الإثبات توافقه تقديرا لحذفها في الخط اختصارا من «ملك الملك».

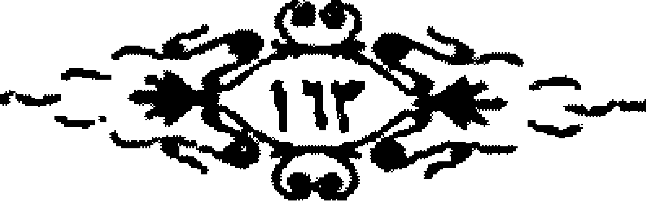
وقد يوافق رسم المصحف اختلاف القراءات تحقيقا مثل تعلمون بالياء والتاء و(يغفر لكم) بالياء والنون وغير ذلك مما يدل تجرده من النقط والشكل على فضل عظيم للصحابة رضى الله عنهم وفهم ثاقب في علم الهجاء وغيره!

(وقولنا وصح سندها) المراد به أن يروى تلك القراءة العدل الضابط عن مثله؛ وهكذا حتى ينتهي، ومع ذلك تكون مشهورة عند أئمة هذا الشأن الضابطين، غير معدودة عندهم من الغلط، أو مما شذ بها بعضهم.

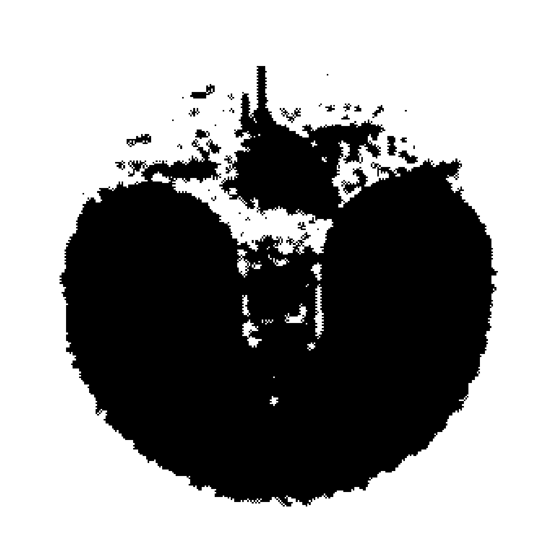
وظاهر هذا الأكتفاء بصحة السند على الوجه المذكور وعدم اشتراط التواتر وذلك لأن التواتر إذا ثبت لا يحتاج معه إلى الركنين الآخرين وهما موافقة الرسم وموافقة النحو لأن ما ثبت من القراءات متواترا عن النبى صلى الله عليه وسلم وجب قبوله وقطع بكونه قرآنا سواء وافق الرسم أم لا أما إذا لم يكن تواتر فلابد من الركنين مع صحة الإسناد وإذا شرطنا التواتر في كل حرف من حروف الخلاف انتفى كثير من أحرف الخلاف الثابت عن السبعة.. اهـ ملخصا من ابن الجزرى والإتقان مع إيضاح.

وسيأتي تحقيق القول في تواتر القراءات السبع وغيرها. ويجمع هذا الضابط قول ابن الجزرى في الطيبة:

فكل ما وافق وجه النحو	وكان للرسم احتمالا يحوى
وصح إسنادا هو القرآن	فهذه الثلاثة الأركان
وحيثما يختل ركن أثبت	شذوذه لو أنه في السبعة



أنواع القراءات



جعل ابن السبكي القراءات على ضربين «المتواتر» وهو ما نقله جمع لا يمكن تواطؤهم على الكذب «والشاذ» وهو غير المتواتر وجعل القراءات السبع والعشر متواترة. والشاذ ما وراء ذلك، والذى حرره ابن الجزرى ونقله عنه السيوطي وغيره أن أنواع القراءات ستة :

(النوع الأول: المتواتر) وهو ما نقله جمع لا يمكن تواطؤهم على الكذب عن مثلهم، ومثاله ما اتفقت الطرق فى نقله عن السبعة أو عن غيرهم وهذا هو الغالب فى القراءات.

(النوع الثانى: المشهور) وهو ما صح سنده بأن رواه العدل الضابط عن مثله وهكذا ووافق العربية ولو بوجه ووافق أحد المصاحف العثمانية سواء كان عن الأئمة السبعة أو غيرهم من الأئمة المقبولين واشتهر عند القراء فلم يعدوه من الغلط ولا من الشذوذ إلا أنه لم يبلغ درجة المتواتر، ومثاله ما اختلفت الطرق فى نقله عن السبعة فرواه بعض الرواة عنهم دون بعض وقد ذكر كثيراً من هذا النوع الدانى فى التيسير والشاطبى فى الشاطبية وغيرهما وهذان النوعان هما اللذان يقرأ بهما مع وجوب اعتقادهما ولا يجوز إنكار شيء منها.

(النوع الثالث: الآحاد) وهو ما صح سنده وخالف الرسم أو العربية أو لم يشهر الاشتهار المذكور وهذا النوع لا يقرأ به ولا يجب اعتقاده. ومثال ذلك «رفارف خضر وعباقرى حسان» وكذا «من قرات أعين».

(النوع الرابع: الشاذ) وهو مالم يصح سنده ومثاله قراءة ابن السميقع «فاليوم ننحيك ببدنك» بالحاء المهملة «لتكون لمن خلفك» بفتح اللام، وقراءة «ملكَ يومَ الدين» بصيغة الماضى ونصب يوم، وهذا النوع والذى بعده لا يجوز القراءة به ولا يجوز اعتقاده.

(النوع الخامس: الموضوع) وهو ما نسب إلى قائله بغير أصل ومثال ذلك



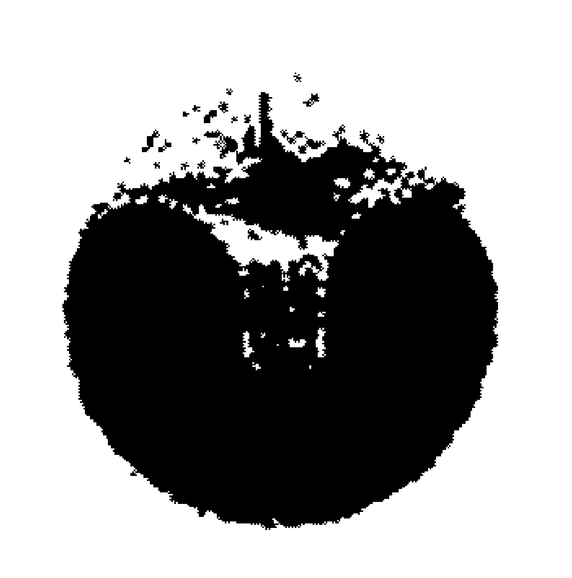
القراءات التى جمعها محمد بن جعفر الخزاعى ونقلها عنه أبو القاسم الهذلى ونسبها إلى أبى حنيفة ولا أصل له فى ذلك مثل «إنما يخشى اللهُ من عباده العلماءَ» برفع لفظ الجلالة ونصب همزة العلماء مع أن هذه القراءة لا أصل لها.

(النوع السادس: ما يشبه المدرج) وهو ما زيد فى القراءات على وجه التفسير مثاله ما روى عن ابن عباس قراءة «ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم في مواسم الحج» وما روى عن سعد بن أبى وقاص «وله أخ أو أخت من أم» وربما كانوا يدخلون التفسير فى القرآن إيضاحا اعتمادا على أنهم محققون لما تلقوه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم على أنه قرآن فكان الإلتباس عندهم مأمونا، فلما كتبت المصاحف فى عهد عثمان جردت من ذلك لأنها صارت مرجعا عاما.

* * *



أنواع الاختلاف فى القراءة



تختلف القراءات على ثلاثة أضرب:

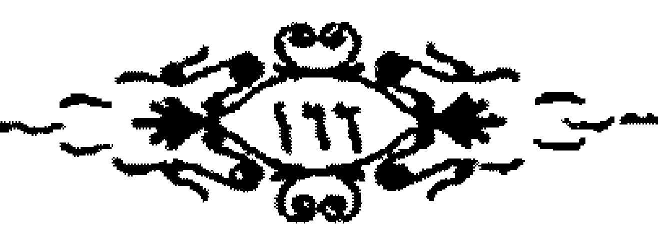
الأول: اختلاف فى اللفظ مع الإتفاق فى المعنى مثل ﴿خُطُوَاتِ خُطْوَاتِ﴾[1]، بضم الطاء وإسكانها ومثل «كفوا وكفؤا»[2] بالواو الهمزة.

الثاني: اختلاف في اللفظ والمعنى مثل ﴿يَخْدَعُونَ وَيُخَادِعُونَ﴾[3] ﴿لامَسْتُمُ ولَمَسْتُمُ﴾[4]﴿يُكَذِّبُونَ ويَكْذِبُونَ﴾[5]بتشديد الذال وتخفيفها ﴿يَطْهُرْنَ ويَطَّهَرْنَ﴾[6] بإسكان الطاء وتشديدها.

(الثالث): اختلاف فى صفة النطق باللفظ مع الاتفاق فى اللفظ والمعنى كالمد والإمالة ونقل الحركات والإظهار والإدغام وترقيق اللامات والراءات وتغليظها وغير ذلك.

وكل من النوع الأول والثالث مما لا يترتب على الاختلاف فيه تغاير فى المعنى- أمر القراءة به ظاهر، وأما النوع الثانى وهو ما كانت القراءات فيه متغايرة المعنى فإنه متى ثبت كل منها بالطرق التى تقبل فى ثبوت القراءات على الوجه السابق وجب قبول كل منها مع اعتقاد أن الكل حق وتكون كل قراءة مع الأخرى بمنزلة الآية مع الآية الأخرى، يجب الإيمان بها كلها واتباع ما تضمنته من المعنى علما وعملا، ولا يجوز ترك موجب إحداهما لأجل الأخرى؛ ظنا أن ذلك تعارض؛ بل كما قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه: من كفر بحرف منه فقد كفر به كله .

١- سورة النور : ٢١.
٢- سورة الإخلاص : ٤ .
٣- سورة البقرة : ٩ .
٤- سورة المائدة : ٦.
٥- سورة البقرة : ١٠ .
٦- سورة البقرة : ٢٢٢ .



هذه أنواع الاختلاف في القراءات.

أما نقل الاختلاف في القراءات فهو على ضربين:

الأول: اختلاف اتفقت الطرق على نقله عن القراء بأن تكون قراءة كل من القراء المخالفة لقراءة الآخر قد اتفقت الطرق على إسنادها لقارئها وهذا النوع من القراءات السبع الآتي ذكرها متواتر باتفاق.

الثاني: اختلاف اختلفت الطرق في نقله بأن تكون قراءة القارئ المخالفة لقراء غيره يثبتها بعض الطرق لقارئها وينفيها بعض الطرق عنه؛ وهذا النوع من القراءات السبع هو الذي قال فيه أبو شامة إنه غير متواتر كما سيأتي النقل عنه.

* * *



السبب فى اختلاف القراءات



والسبب فى اختلاف القراءات السبع وغيرها أن عثمان رضى الله عنه لما كتب المصاحف ووجه بها إلى الأقاليم كان بكل إقليم من الصحابة من يحمل عنه أهله القرآن وكانت المصاحف خالية من النقط والشكل فثبت أهل كل ناحية على ما تلقوه سماعا من الصحابة الذين عندهم بشرط موافقة المصحف والعربية وتركوا ما يخالف خط المصحف امتثالا لما أمر به عثمان وأجمع عليه الصحابة لما رأوا فى ذلك الاحتياط للقرآن، والصحابة إنما كانوا يقرءونهم بما تلقوه عن رسول الله ﷺ.

ومن أجل ذلك نشأ الاختلاف بين قراء الأمصار مع كونهم متمسكين بحرف واحد وهو حرف قريش، وقد ظن بعض الناس أن القراءات قد أخذت من المصحف، وليس كذلك لخلوه في أول الأمر من النقط والشكل، نعم المصحف كتب بصورة تحتمل القراءات المختلفة فى الأغلب ولكنه لم يكن إماما ودليلا فى كيفية النطق والأداء وإنما الاعتماد فى ذلك على الرواية والتلقى والسماع.

وإنما كان المصحف إماما ودليلا فيما يعينه من ترتيب يمنع التقديم والتأخير، ومن حصر يمنع الزيادة والنقصان، وإبدال لفظ بلفظ آخر وإن كان بمعناه، وبهذا قد تلخص أن سبب الاختلاف أن الصحابة فى الأقاليم المختلفة الذين عنوا بإقراء القرآن كله لم يقرئه كل منهم أهل إقليمه بجميع القراءات المنزلة بل أقرأهم ببعضها وثبتوا على ذلك البعض وهكذا فى الجهات المختلفة كما تقدم.

ويدل على أن الاعتماد إنما هو على الحفظ والتلقى أمران:

«أولهما» ما ورد فى الحديث الصحيح الذى رواه مسلم أنه ﷺ قال «إن ربى قال لى قم فى قريش فأنذرهم فقلت أى رب إذا يبلغوا «أى يشدخوا» رأسى فقال: إنى مبتليك ومبتل بك، ومنزل عليك كتابا لا يغسله الماء تقرأه نائما ويقظانا؛ فابعث جنداً أبعث مثليهم وقاتل بمن أطاعك من عصاك، وأنفق أنفق عليك».



فقد أخبر أن كتابه لا يحتاج إلى صحيفة تغسل بالماء، بل يقرأه في كل حال، وقد ورد أيضا في وصف أمته «أناجيلهم صدورهم» فقد وصف الأمة بأنهم يحفظون القرآن عن ظهر قلب ولا يحتاجون إلى صحيفة بخلاف أهل الكتاب، فإنهم كانوا لا يحفظون كتابهم ولا يقرأونه كله إلا في الصحف.

«ثانيهما» ما روى أن عثمان رضي الله عنه لما كتب المصاحف أنفذها إلى الأقطار وأرسل الحفاظ معها لتعليم المسلمين فقد أمر زيد بن ثابت أن يقرىء بالمصحف المدني، وبعث عبد الله بن السائب مع المكي. وبعث المغيرة بن شهاب مع الشامي، وبعث أبا عبد الرحمن السلمي مع الكوفي، وبعث عامر بن عبد قيس مع البصري، وكان في تلك الأمصار في ذلك الوقت الجم الغفير من حفاظ القرآن التابعين.

(فكان بالمدينة) ابن المسيب وعروة، وسالم وعمر بن عبد العزيز، وسليمان وعطاء ابنا يسار، ومعاذ بن الحارث المعروف بمعاذ القارئ وعبد الرحمن ابن هرمز، وابن شهاب الزهري، ومسلم بن جندب وزيد بن أسلم وغيرهم.

(وكان بمكة عبيد الله بن عمير. وطاوس.. وعطاء ومجاهد. وعكرمة. وابن أبي مليكة وغيرهم.

(وكان بالكوفة) علقمة، والأسود ومسروق وعبيدة، وعمر بن شرحبيل، والحارث بن قيس، والربيع بن خيثم. وعمرو بن ميمون وغيرهم.

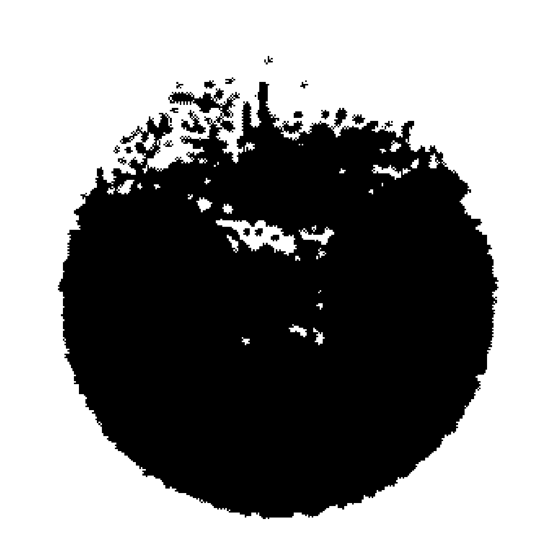
(وكان بالبصرة) عامر بن قيس، وأبو العالية، وأبو رجاء، ونصر بن عاصم ويحيى بن يعمر. وجابر بن زيد، والحسن، وابن سيرين، وقتادة، وغيرهم.

«وكان بالشام» المغيرة بن شهاب المخزومي صاحب عثمان بن عفان في القراءة وخليد بن سعد صاحب أبي الدرداء وغيرهما.

وقد قرأ أهل كل مصر بما نقلوه عن الصحابة الذين تلقوا عن رسول الله ﷺ ووافق مصحفهم؛ فقاموا في ذلك مقام الصحابة ثم تجرد قوم للقراءة والأخذ واعتنوا بضبط القراءة أتم عناية حتى صاروا في ذلك أئمة للاقتداء، يرحل إليهم ويؤخذ عنهم، وأجمع أهل بلدهم على تلقي قراءاتهم ولم يختلف عليهم اثنان في صحة روايتهم ولتصديهم للقراءة نسبت إليهم وكان المعول فيها عليهم، وقد أجمعت الأمة المعصومة من الخطأ على قراءاتهم الموافقة للمصاحف وترك ما خالفها.



فوائد اختلاف القراءات



لاختلاف القراءات وتنوعها مع السلامة من التضاد والتناقض فوائد كثيرة:

١ - الجمع بين حكمين مختلفين كقراءة ﴿ يَطْهُرْنَ ﴾ و﴿ يَطَّهَّرْنَ ﴾[١] بالتخفيف والتشديد فيجمع بينهما بأن الحائض لا يقربها زوجها حتى تطهر بانقطاع حيضها وتتطهر بالاغتسال (ومنها) الدلالة على حكمين شرعيين مختلفين كقراءة ﴿ وَأَرْجُلَكُمْ ﴾[٢] بالخفض والنصب فإن الخفض يقتضي فرض المسح والنصب يقتضي فرض الغسل والظاهر بينهما التنافي فجمع رسول الله ﷺ بينهما وبين أن كلا منهما في حالة فجعل المسح للابس الخف والغسل لغير لابسه فيكون كل من القراءتين دل على حكم في حالة غير مادلت عليه الأخرى.

٢ - بيان المراد من حكم القراءة الأخرى كقراءة ﴿ فَاسْعَوْا ﴾[٣] فإنها تفيد بظاهرها المشي السريع وقراءة «فامضوا» بينت أن المراد مجرد الذهاب، وكقراءة لمستم مع ﴿ لامستم ﴾[٤] فإنها بينت أن المراد من المس المباشرة.

٣ - الإعجاز مع الإيجاز فإن كل قراءة مع الأخرى بمنزلة الآية مع الآية لأن تنوع اللفظ واختلاف دلالاته بذلك يقوم مقام الآيات ولو جعلت دلالة كل لفظ من دلالاته المختلفة آية على حدتها كان في ذلك تطويل.

٤ - سهولة حفظه وتيسير نقله على هذه الأمة فإن حفظ كلمة ذات أوجه أسهل وأقرب إلى الفهم من حفظ جمل تؤدي معاني تلك القراءات المختلفة لا سيما إذا كان الخط واحدا.

٥ - الاحتجاج على القول الحق كقراءة ﴿ وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾[٥] بكسر اللام

١- سورة البقرة : ٢٢٢ . ٢- سورة المائدة : ٦ . ٣ - سورة الجمعة : ٩ .
٤- سورة المائدة : ٦ . ٥ - سورة الإنسان :الآية ٢٠.



وردت عن ابن كثير وغيره ويحتج بها على رؤية الله تعالى فى الآخرة وكذا الاحتجاج، لقول بعض أهل العربية كقراءة ﴿ والأَرْحَامَ ﴾(١) بالخفض و «ليُجزى قوما» بالبناء للمفعول مع النصب.

٦ - إعظام أجور هذه الأمة لبذلهم الجهد واستفراغهم الوسع فى تتبع معانى القراءات المختلفة واستنباط الحكم والأحكام من دلالة كل لفظ واستخراج أسراره وخفى إشاراته وإمعانهم النظر والكشف عن التوجيه والتعليل والترجيح والتفصيل بقدر ما يبلغ غاية علمهم ويصل إليه نهاية فهمهم ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ﴾(٢) والأجر على قدر المشقة وهذا لا ينافى تيسير الحفظ السابق لأن هذا فى استخراج المعانى والأحكام وذلك فى الحفظ.

٧ - اتصال سند هذه الأمة فى القرآن فإن قراءة اللفظ الواحد بقراءات مختلفة مع اتحاد خطه وخلوه من الشكل والنقط متوقف على السماع والتلقى والرواية بل بعد نقط المصحف وشكله لأن الألفاظ التى اختلفت قراءتها إنما نقطت وشكلت على وجه واحد فلم تزل باقى الأوجه متوقفة على السند والرواية إلى يومنا هذا، وفى ذلك منقبة عظيمة ونعمة جسيمة لهذه الأمة المحمدية بسبب إسنادها كتاب ربها واتصال هذا السند الإلهى بسنده فكان ذلك تخصيصا بالفضل لهذه الأمة وإعظاما لقدر هذه الملة .

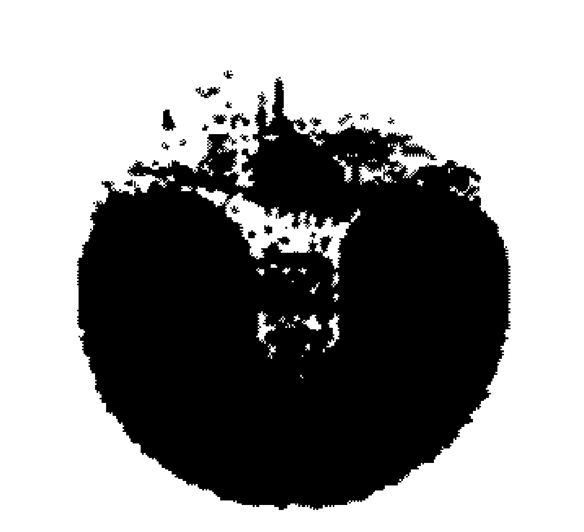
ولنكتف فى الذكر بهذا القدر من الفوائد والله أعلم .

* * *


٤- سورة النساء : ١.


٥- سورة آل عمران : ١٩٥.

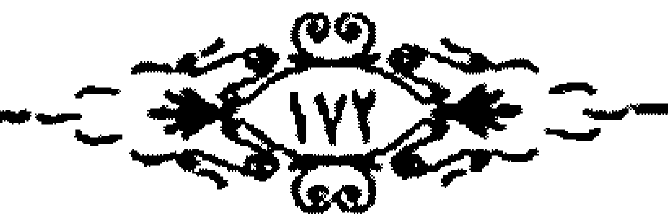
القراءات السبع



والقراءات السبع، هى القراءات المنسوبة للأئمة السبعة المعروفين عند القراء وهم نافع، وعبد الله بن كثير، وأبو عمرو بن العلاء، وعبد الله بن عامر، وعاصم، وحمزة؛ وعلى الكسائى، وسيأتى الكلام عليهم ولم تكن القراءات السبع متميزة في التأليف من غيرها فإن الذين صنفوا فى القراءات من الأئمة المتقدمين كأبى عبيد القاسم بن سلام وأبى حاتم السجستانى وأبى جعفر الطبرى وإسماعيل القاضى قد ذكروا أضعاف هؤلاء وكان الناس على رأس المائتين «بالبصرة» على قراءة أبي عمرو ويعقوب «وبالكوفة» على قراءة حمزة وعاصم «وبالشام» على قراءة ابن عامر «وبمكة» على قراءة ابن كثير «وبالمدينة» على قراءة نافع واستمروا على ذلك.

فلما كان على رأس الثلاثمائة قام الإمام أبو بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد، ببغداد وجمع قراءات سبعة من مشهورى أئمة الحرمين والعراقين والشام وهم الذين تقدمت أسماؤهم غير أنه أثبت اسم الكسائى وحذف يعقوب؛ والسبب فى الاقتصار على السبعة مع أن فى أئمة القراء من هو أجل منهم قدرا أو مثلهم أكثر من عددهم - أن الرواة عن الأئمة كانوا كثيرين جدا فنظر إلى من اشتهر بالثقة والأمانة وطول العمر فى ملازمة القراءة والاتفاق على الأخذ عنه ومع ذلك لم يترك الناس نقل ما كان عليه غير هؤلاء من أئمة القراءات ولا القراءة به كقراءة يعقوب وأبى جعفر وخلف وهم الثلاثة المكملون للعشرة كما سيأتى.

وقد اقتصر ابن جبر المكى على خمسة، اختار من كل مصر من الأمصار التى بعث إليها عثمان بالمصاحف إماما وبهذا تعلم أن العدد فى سبعة كان اتفاقيا، لابن مجاهد.

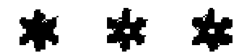


وقد توهم بعض الناس أن قراءات السبعة هى الأحرف السبعة وليس الأمر كذلك، والذى أوقع هؤلاء فى هذه الشبهة أنهم سمعوا أن القرآن أنزل على سبعة أحرف وسمعوا قراءات السبعة؛ فظنوا أن هذه السبعة هى تلك المشار إليها.

ولهذا لام كثير من العلماء المتقدمين ابن مجاهد على اختياره عدد السبعة لما فيه من الإيهام وقالوا هلا اقتصر على ما دون هذا العدد أو زاد عليه أو بين مراده ليخلص من لا يعلم من هذه الشبهة، قال أبو شامة: ظن قوم أن القراءات السبع الموجودة الآن هى التى أريدت فى الحديث وهو خلاف إجماع أهل العلم قاطبة وإنما يظن ذلك بعض أهل الجهل.

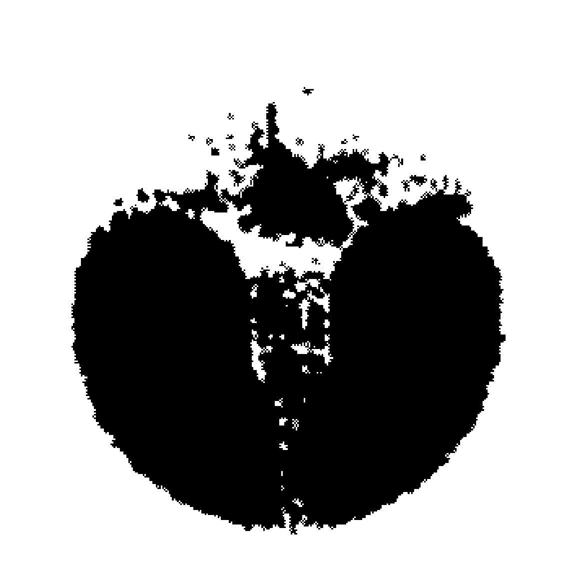
وقال أبو العباس بن عمار: لقد فعل مسبع هذه السبعة مالا ينبغى له، وأشكل الأمر على العامة بإيهامه كل من قل نظره أن هذه القراءات هى المذكورة فى الخبر وليته إذا اقتصر نقص عن السبعة أو زاد ليزيل الشبهة، ووقع له أيضا فى اقتصاره لكل إمام على راويين أنه صار من سمع قراءة راو ثالث غيرهما أبطلها، وقد تكون هى أشهر وأصح وأظهر، وربما بالغ من لا يفهم فخطأ أو كفر.

ولغير من ذكرنا عبارات فى هذا المعنى وأنت خبير بأن ابن مجاهد لم يكن رائده فى ذلك إلا التحرى والضبط ومع ذلك فالقراء لم يتركوا مما تركه شيئاً بل كل قراءة أخذت حظها من العناية بالنقل والتمحيص والتدقيق فما استجمع منها ضابط القراءات قبل وإلا فلا، ولنتكلم على القراء السبعة.





القراء السبعة



ولنذكر طرقهم فى الرواية ونقتصر فى الرواة عن كل منهم على اثنين ممن اشتهرا فى الرواية عنه وهما اللذان اقتصر عليهما ابن مجاهد وإن كان الرواة عن كل منهم أكثر من اثنين وها هم القراء السبعة وراويا كل منهم:

الأول، أبو عمرو زبان بن العلاء البصرى روى عن مجاهد بن جبر وسعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبى بن كعب عن رسول الله ﷺ وقرأ على جماعة منهم أبو جعفر زيد بن القعقاع والحسن البصرى وقرأ الحسن على حطان وأبى العالية وقرأ أبو العالية على عمر بن الخطاب وكان أبو عمرو من أعلم الناس بالقراءة مع الصدق والأمانة والثقة في الدين وتوفى سنة أربع وخمسين ومائة وكان مولده سنة ثمان وستين.

ورواه الدورى والسوسى عن اليزيدى عنه:

١ - الدورى هو أبو عمر حفص بن عمر المقرى الضرير روى عن اليزيدى عن أبى عمرو وكان الدورى شيخ القراء فى وقته وهو منسوب إلى الدور موضع بالجانب الشرقى من بغداد وكان ثقة ضابطا وهو أول من جمع القراءات وتوفى فى شوال سنة ست وأربعين ومائتين.

٢ - والسوسى: هو أبو شعيب صالح بن زياد روى عن اليزيدى عن أبى عمر وكان ثقة ضابطا من أجل أصحاب اليزيدى توفى سنة إحدى وستين ومائتين وعاش نحو التسعين سنة.

الثانى ابن كثير: هو أبو محمد عبد الله بن كثير المكى وقيل «أبو معبد» روى عن مجاهد بن جبر عن ابن عباس عن أبى بن كعب عن رسول الله ﷺ وقرأ على أبى السايب عبد الله بن السايب بن أبى السايب المخزومى وقرأ عبد الله بن السايب على أبى بن كعب وعمر بن الخطاب وكلاهما قرأ على رسول الله ﷺ.



وكان ابن كثير إمام الناس فى القراءة بمكة من غير منازع وكان ذا سكينة ووقار لقى من أصحاب رسول الله ﷺ عبد الله بن الزبير وأبا أيوب الأنصارى وأنس بن مالك. ولد ابن كثير سنة خمس وأربعين وتوفى سنة عشرين ومائة، وراوياه عن أصحابه هما البزى وقنبل :

١ - أما البزى فهو أبو الحسن أحمد بن عبد الله بن القاسم بن نافع بن أبى بزة البزى وبينه وبين ابن كثير رجال، لأنه يروى عن عكرمة بن سليمان بن كثير عن شبل بن عباد وإسماعيل بن عبد الله بن قسطنطين عن ابن كثير وكان إمام المسجد الحرام ومقرئه ومؤذنه وكان إماما ضابطا ثقة انتهت إليه مشيخة الإقراء بمكة، ولد البزى سنة سبعين ومائة وتوفى سنة خمسين ومائتين.

٢ - وأما قنبل فهو محمد بن عبد الرحمن بن محمد المخزومي المكى كنيته أبو عمرو وقنبل لقب له، قرأ على أبى الحسن أحمد القواس، وقرأ القواس على أبى الأخريط وقرأ أبو الأخريط على القسط وأخبر أنه قرأ على شبل وقرأ شبل على ابن كثير، وكان قنبل إماما فى القراءة متقنا ضابطا رحل إليه الناس من جميع الأقطار. ولد سنة خمس وتسعين ومائة وتوفى سنة إحدى وتسعين ومائتين.

«**الثالث» نافع بن عبد الرحمن** بن أبى نعيم المدنى قرأ على أبى جعفر القارىء وعلى سبعين من التابعين، على عبد الله بن عباس وأبى هريرة، على أبى ابن كعب على النبى ﷺ.

وكان إمام الناس فى القراءة بالمدينة انتهت إليه رياسة الإقراء بها ولد نافع فى نهاية سنة سبعين وتوفى سنة تسع وستين ومائة، «وراوياه قالون وورش:

١ - أما قالون: فهو أبو موسى عيسى بن مينا النحوى قرأ على نافع واختص به كثيرا وقال: قرأت على نافع غير مرة وكتبتها عنه، ولد سنة عشرين ومائة وتوفى سنة عشرين ومائتين وقالون فى الأصل معناه الجيد.

٢ - وأما ورش: فهو عثمان بن سعيد المصرى وكنيته أبو سعيد وورش لقب له رحل إلى المدينة ليقرأ على نافع فقرأ عليه ختمات فى سنة خمس وخمسين ومائة ورجع إلى مصر فانتهت إليه رياسة الإقراء بها، ولد سنة عشر ومائة وتوفى سنة سبع وتسعين ومائة وكان حسن الصوت جيد القراءة لا يمله سامع.



«**الرابع ابن عامر» وهو عبد الله بن عامر اليحصبي**، ويحصب فخذ من حمير، وكنيته أبو نعيم وقيل أبو عمران، كان إمام دمشق وقاضيها وهو تابعي لقي واثلة ابن الأسقع والنعمان بن بشير وقرأ على المغيرة بن أبي شهاب المخزومي، على عثمان بن عفان رضي الله عنه، على رسول الله ﷺ وقال يحيي ابن الحارث الذماري إنه قرأ على عثمان، ولد سنة إحدى وعشرين وتوفي سنة ثمان عشرة ومائة وراوياه عن أصحابه: هشام وابن ذكوان :

١ - أما هشام فهو أبو عمار بن نصير السلمي القاضي الدمشقي وكنيته أبو الوليد أخذ القراءة عن عراك بن خالد المزى عن يحيي بن الحارث الزماري عن ابن عامر وكان عالم دمشق ومفقيها ومحدثها مع الثقة والضبط، ولد سنة ثلاث وخمسين ومائة وتوفي سنة خمس وأربعين ومائتين.

٢ - وأما ابن ذكوان فهو أبو محمد عبد الله أحمد بن بشير بن ذكوان القرشي الدمشقي وقيل كنيته أبو عمر أخذ قراءة ابن عامر عن أيوب بن تميم التميمي عن يحيي بن الحارث الذماري عن ابن عامر، قال أبو زرعة الحافظ الدمشقي لم يكن بالعراق ولا بالحجاز ولا بالشام ولا بمصر ولا بخراسان في زمن ابن ذكوان عندي أقرأ منه توفي في شوال سنة ثنتين ومائتين.

«**الخامس عاصم» وهو أبو بكر عاصم بن أبي النجود** بن بهدلة مولي بني خزيمة بن مالك بن النضر، والنجود بفتح النون وضم الجيم من من نجدت الثياب سويت بعضها فوق، بعض قرأ عاصم على زر بن حبيش على عبد الله بن مسعود على رسول الله ﷺ وعلي أبي عبد الرحمن عبد الله بن حبيب السلمي معلم الحسن والحسين، على عليّ رضي الله عنه، على رسول الله ﷺ. كان جامعا بين الفصاحة والإتقان والتحرير والتجويد ومن أحسن الناس صوتا بالقرآن توفي آخر سنة سبع وعشرين ومائة.

وراوياه أبو بكر شعبة وحفص:

١ - أما شعبة فهو أبو بكر عياش بن سالم الأسدي واسمه شعبة وقيل محمد وقيل مطرق كان إماما عالما كبيرا ولد سنة خمس وتسعين وتوفي سنة ثلاث وتسعين ومائة.



٢ - وأما حفص فهو أبو عمر حفص بن سليمان بن المغيرة البزاز تعلم القراءة من عاصم كما يتعلم الصبى من المعلم وكان ربيب عاصم ابن زوجته، ولد سنة تسعين وتوفى سنة ثمانين ومائة.

«السادس حمزة» وهو أبو عمارة حمزة بن حبيب الزيات التيمي مولى عكرمة بن ربعى التيمى وكنيته أبو عمارة، قرأ على أبى محمد سليمان بن مهران الأعمش، علي يحيى بن وثاب، على زر بن حبيش على على بن أبى طالب وعثمان وابن مسعود، على النبى ﷺ كان ورعا عالما بكتاب الله مجوداً له عارفا بالفرائض والعربية حافظا للحديث ولد حمزة سنة ثمانين وتوفى سنة ست وخمسين ومائة.

وراوياه خلف وخلاد:

١ - أما خلف فهو أبو محمد خلف بن هشام بن طالب البزاز، روى عن سليم بن عيسى الحنفى عن حمزة، ولد خلف سنة خمسين ومائة وتوفى فى جمادى الآخرة سنة تسع وعشرين ومائتين وكان ثقة زاهدا عابدا.

٢ - وأما خلاد فهو أبو عيسى خلاد بن خالد الصيرفى روى أيضا عن سليم ابن عيسى الحنفى عن حمزة كان أضبط أصحاب سليم وأجلهم، عارفا محققا وتوفى سنة عشرين ومائتين.

«السابع الكسائى» وهو أبو الحسن على بن حمزة الكسائى النحوى من أولاد الفرس من سواد العراق، قرأ على حمزة بن حبيب، على يحيى بن وثاب، على زر بن حبيش على عثمان وعلى وابن مسعود على النبى صلى الله عليه وسلم قال أبو بكر بن الأنبارى.

اجتمعت فى الكسائى أمور كان أعلم الناس بالنحو وأوحدهم بالغريب وكان أوحد الناس بالقرآن فكانوا يكثرون عليه حتى لا يضبط الأخذ عليهم فيجتمع فى مجلس ويجلس على الكرسى ويتلو القرآن من أوله لآخره يسمعون ويضبطون عنه حتى المقاطع والمبادىء توفى سنة تسع وثمانين ومائتين.



وراوياه أبو الحارث والدورى:

١ - أما أبو الحارث: فهو أبو الحارث الليث بن خالد المروزى المقرى، قرأ على الكسائى وكان من أجلة أصحابه وكان ثقة ضابطا توفى سنة أربعين ومائتين.

٢ - وأما الدورى فقد تقدم الكلام عليه مع أبى عمرو بن العلاء.

الكلام على القراء الثلاثة الذين بهم تكمل العشرة

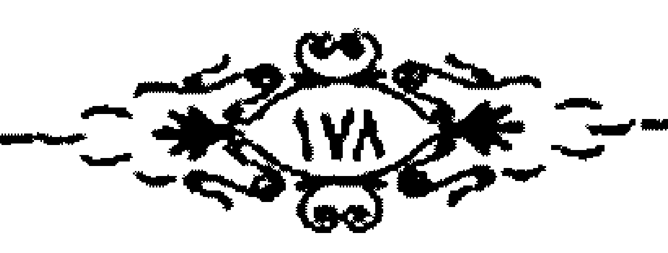
وهم: أبو جعفر. ويعقوب. وخلف:

«أما أبو جعفر» فهو أبو جعفر يزيد بن القعقاع القارى نسبة لموضع بالمدينة يسمى قار «ورواته» اثنان: أبو موسى عيسى بن وردان الحذاء طريق قالون عيسى ابن مينا النحوى «وأبو مسلم» سليمان بن مسلم الجماز الزهرى طريق أبى عبد الرحمن قتيبة بن مهران.

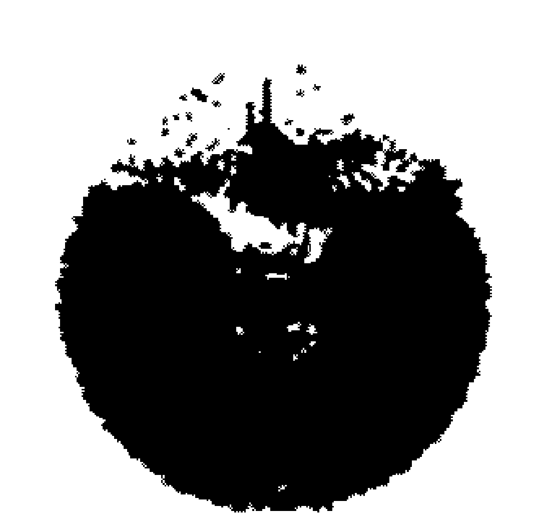
وأما يعقوب: فهو أبو محمد يعقوب بن إسحق الحضرمى، قرأ على أبى المنذر سلام بن سليمان الطويل على عاصم وأبى عمر وتوفى سنة خمس ومائتين. ورواته ثلاثة «روح بن عبد الملك» طريق أحمد بن يحيى المعدل «وأبو بكر محمد بن المتوكل اللؤلؤى الملقب برويس» طريق أبى محمد بن هارون وطريق أبى الحسن أحمد بن محمد يعقوب بن مقسم الفقيه وأبو أحمد زيد بن أحمد بن إسحاق؛ طريق العدل أيضا وطريق محمد بن هرون.

«وأما خلف» فهو أبو محمد خلف بن هشام بن ثعلب البزار، قرأ خلف على سليم على حمزة .. ا هـ بحث القراء ملخصا من مقدمة تفسير النيسابورى ومن تاريخ القرآن لأبى بن عبد الله الزنجانى نقلا عن كتاب المكرر فيما تواتر من القراءات السبع وتحرر لمصنفه سراج الدين أبى حفص عمر بن زين الدين قاسم بن شمس الدين محمد الأنصارى الشهير بالنشار.

* * *



القول فى تواتر القرآن والقراءات



(أما القرآن) فلا خلاف أن كل ما هو من القرآن، متواتر فى أصله وأجزائه، وأما فى محله ووضعه وترتيبه فكذلك عند محققى أهل السنة للقطع بأن العادة تقضى بالتواتر فى تفاصيل مثله؛ لأن هذا المعجز العظيم الذى هو أصل الدين القويم، والصراط المستقيم، مما تتوفر الدواعى على نقل جمله وتفاصيله، فما نقل آحادا ولم يتواتر يقطع بأنه ليس من القرآن.

وذهب كثير من الأصوليين إلى أن التواتر شرط فى ثبوت ما هو من القرآن بحسب أصله، وليس بشرط فى محله ووضعه وترتيبه.

«ورد هذا الرأى»:

(١) بأن الدليل السابق يقتضى التواتر فى الجميع.

(٢) لو لم يشترط التواتر فى المحل والوضع لجاز سقوط كثير من القرآن المكرر وثبوت كثير مما ليس بقرآن، ولجاز أن لا يتواتر كثير من المكررات الواقعة فى القرآن مثل «فبأى آلاء ربكما تكذبان».

(٣) لو لم يتواتر بعض القرآن بحسب المحل جاز إثبات ذلك البعض فى الموضع بنقل الآحاد.

وقد بنى المالكية وغيرهم ممن قال بإنكار البسملة قولهم على هذا الأصل وهو وجوب التواتر جملة وتفصيلا بحجة أنها لم تتواتر فى أوائل السور وما لم يتواتر فليس بقرآن .

«وقد أجيب» بمنع كونها لم تتواتر فرب متواتر عند قوم دون آخرين وفى وقت دون وقت ويكفى فى تواترها كتابتها فى المصاحف العثمانية مع اتفاقهم على تجريدها مما ليس قرآنا ويدل لذلك روايات كثيرة .. ا هـ ملخصاً من الإتقان مع إيضاح ويمكن للمالكية وغيرهم أن يعترفوا بتواترها بين السور وعدم ثبوت تواتر أنها جزء من كل سورة ويحمل ذلك على تكرر نزولها مع كل سورة.



(أما القراءات السبع):

الجمهور على أن القراءات السبع متواترة جميعها سواء ما كان منها من قبيل الأداء كالمد والإمالة أو تخفيف الهمزة أولا، وسواء كان مختلفا فى نقله عن القراء أو متفقا على نقله عنهم.

وذهب ابن الحاجب إلى أن ما كان من قبيل الأداء كالمد أو الإمالة وتخفيف الهمزة لا يشترط فيه التواتر وعبارته فى مختصره: مسألة القراءات السبع متواترة فيما ليس من قبيل الأداء كالمد واللين والإمالة وتخفيف الهمزة ونحوه، لنا لو لم تكن متواترة لكان بعض القرآن غير متواتر كملك ومالك ونحوهما وتخصيص أحدهما تحكم باطل لاستوائهما.

ووجه ما قاله ابن الحاجب من استثناء ما ذكر من التواتر أن ما كان من قبيل الأداء بأن كان هيئة للفظ يتحقق اللفظ بدونها كزيادة على أصل المد والإمالة وما بعدها من الأمثلة مقادير الزيادة فيه ولا يضبطه السماع عادة لأنه يقبل الزيادة والنقصان وذلك يكون بالاجتهاد وقد شرطوا فى التواتر أن لا يكون فى الأصل عن الاجتهاد.

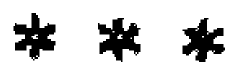
وتحقيق كلام ابن الحاجب أنه إن أريد بتواتر ما كان من قبيل الأداء تواتر أصله كأصل المد وأصل الإمالة وغيرهما كأن يراد تواتر المد مثلا من غير نظر لمقداره فالحق خلاف ما قاله ابن الحاجب للعلم بتواتر ذلك وإن أريد تواتر الزائد على الأصل فالوجه ما قاله ابن الحاجب وهو الذى يوافق توجيهه.

وقال أبو شامة الألفاظ التى اختلفت الطرق فى نقلها عن القراء من القراءات السبع ليست متواترة وأما الألفاظ التى اتفقت الطرق على نقلها عنهم من القراءات السبع فمتواترة.

وعبارته فى المرشد الوجيز نقلا عن شرح جمع الجوامع: وما شاع على ألسنة جماعة من متأخرى المقرئين وغيرهم أن القراءات السبع متواترة نقول به فيما اتفقت الطرق على نقله عن القراء السبعة دون ما اختلفت فيه بمعنى أن نفيت نسبته إليهم فى بعض الطرق وذلك موجود فى كتب القراءات لاسيما كتب المغاربة والمشارقة فبينهما تباين فى مواضع كثيرة.

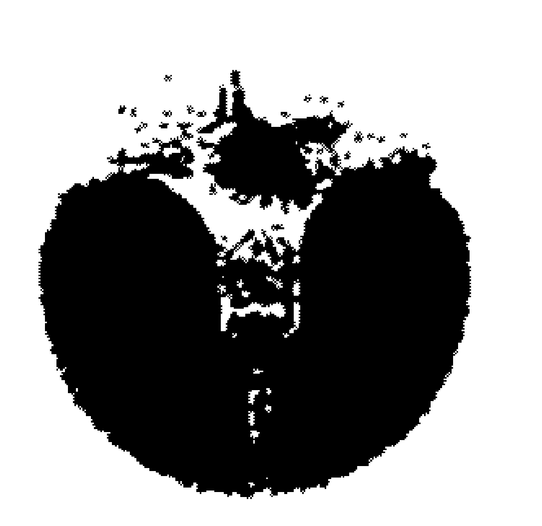


والحاصل أنا لا نلتزم التواتر فى جميع الألفاظ المختلف فيها بين القراء أى بل منها المتواتر وهو ما اتفقت الطرق على نقله عنهم، وغير المتواتر وهو ما اختلفت فيه بالمعنى السابق وعلى ذلك فيكون كل من ابن الحاجب وأبى شامة قد وافقا الجمهور فى تواتر القراءات السبع وخلافهما لا يضر لأنك قد علمت أن ما كان من قبيل الأداء يكون بالاجتهاد وإنما الخلاف عند ابن الحاجب فى الزائد على أصل المد والإمالة والتحفيف وغيرها وعند أبى شامة فى الألفاظ التى اختلفت الطرق فى نقلها عن القراء وهذا خلاف قليل الأثر لأنه لا يقدح فى تواتر القراءات السبع فى الجملة فلا ينافى أن فيها غير المتواتر وهو قليل وهو الذى ذكره أبو شامة مما اختلفت الطرق فى نقله عن القراء، أثبته أحد الرواة ونفاه الآخر كما تقدم .





شبه القائلين بعدم تواتر القراءات السبع



ذهب بعضهم إلى أن القراءات السبع ليست متواترة واستند إلى الشبه الآتية :

أولا قالوا - إن المعلوم بالتواتر هو كون إحدى القراءتين من القرآن وأما هما معا أو إحداهما بعينها فلا، كيف والذين تستند إليهم وهم سبعة لا يحصل العلم بقولهم فيما اتفقوا عليه فضلا عما اختلفوا فيه.

والجواب عن ذلك بأن قراءة كل واحد من هؤلاء السبعة قد علمت من جهته ومن جهة غيره ممن يبلغ عددهم التواتر وإنما نسب العلماء القراءات المتواترة إلى السبعة، لئلا تلتبس على الجاهل بغيرها من الشواذ فإذا قيل إن هذه القراءة فى السبع؛ كان معناه أنها مروية بطريق التواتر لا بطريق الآحاد، وأما إضافة القراءة إلى من أضيفت له من أئمة القراءة فالمراد بها أن ذلك الأمام اختار القراءة بهذا الوجه على حسب ما قرأ به فآثره على غيره ولزمه حتى اشتهر به وأخذ عنه فأضيف إليه دون غيره من القراء وهو مع ذلك متواتر.

(ثانياً) قالوا: إن القول بتواتر القراءات السبع يؤدى إلى تكفير من طعن فى شيء منها مع أنه قد وقع الطعن من بعض العلماء فى بعض قراءات، فقد طعن بعضهم فى قراءة حمزة ﴿واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام﴾ بخفض الأرحام لأن فى ذلك عطفا على الضمير المجرور من غير إعادة الجار، وطعن بعضهم فى قراءة أبى عمرو ﴿فتوبوا إلى بارئكم﴾ بإسكان الراء لأن فى ذلك حذفا لحركة الأعراب وهو غير جائز وغير ذلك أمثلة أخرى، فكيف يقال بتواترها مع وجود مثل هذه الطعون من بعض العلماء.



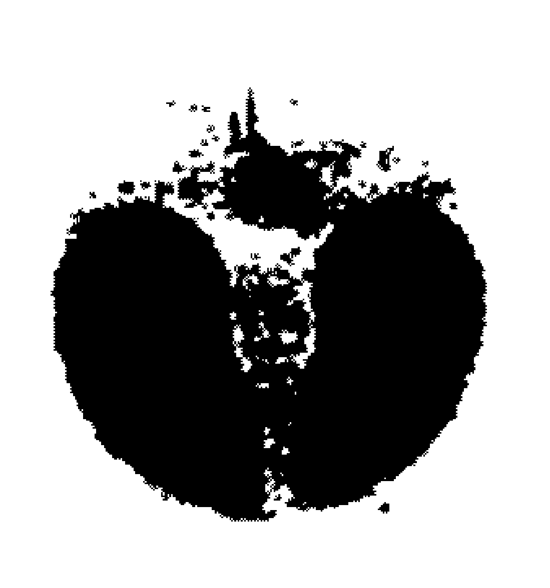
«والجواب عن ذلك» بأن إنكار شيء من القراءات لا يقتضي التكفير على الإطلاق لأن التواتر منه ما علم بالضرورة ومنه ما لم يعلم بالضرورة فالذى يقتضى الكفر إنما هو إنكار المتواتر الذى علم من الدين بالضرورة وأما المتواتر الذى لم يعلم بالضرورة فإنكاره لا يقتضى الكفر ولا شك أن بعض القراءات قد تواتر إلا أنه لم يصر تواتره معلوما من الدين بالضرورة لأنها إنما تواترت عند القراء الذين عنوا بأمر القراءات وضبط وجوهها فتواترها ليس كتواتر القرآن من كل وجه.

وأما ما وجه من المطاعن إلى بعض القراء فى بعض قراءاتهم فقد أجابوا بأن المدار على دخول القراءة تحت ضابط القراءات السابق ولا يشترط الفشو فى اللغة العربية وبهذا تبين أن هذه الشبهة لا تقدح فى تواتر القراءات السبع.

* * *



القول فى القراءات الثلاث المكملة للعشرة
(وهى قراءات يعقوب وأبى جعفر وخلف)



ذهب ابن السبكى فى منع الموانع إلى أن القراءة قسمان فقط متواتر وشاذ وجعل الشاذ هو ما ليس بمتواتر وعد الثلاثة التى تكمل العشرة من المتواتر كالسبعة، وعبارته فى منع الموانع ما نصه:

وإنما قلنا فى جمع الجوامع والسبع متواترة ثم قلنا فى الشاذ والصحيح أنه ما وراء العشرة؛ ولم ينقل والعشر متواترة، لأن السبع لم يختلف فى تواترها فذكرنا أولا موضع الإجماع ثم عطفنا عليه موضع الخلاف.

قال: على أن القول بأن القراءات الثلاث غير متواترة فى غاية السقوط ولا يصح القول به عمن يعتبر قوله فى الدين وهى لا تخالف رسم المصحف، قال وقد سمعت أبى يشدد النكير على بعض القضاة وقد بلغه أنه منع من القراءة بها واستأذنه بعض أصحابنا مرة فى إقراء السبع فقال أذنت لك أن تقرأ العشرة.. انتهى.

وقد علل عد العشرة من الصحيح الجلال المحلى بقوله: لأنها لا تخالف رسم السبع من صحة السند واستقامة الوجه والعربية وموافقة خط المصحف الإمام.

وهذا مذهب الأصوليين وأما مذهب الفقهاء فالشاذ ما وراء السبعة فالثلاثة المذكورة عندهم من الشواذ ومذهب الفقهاء ضعيف بما سبق بيانه من أن ضابط القراءات منطبق عليها.

وهذا الضابط هو الميزان فى قبول القراءة أو ردها سواء كانت من السبعة أو غيرهم فإن قولنا القراءات السبع متواترة معناها فى الجملة فلا ينافى أنه يوجد فيها المشهور والمروى بطريق الآحاد المحفوفة بالقرائن المفيدة للعلم.

وأما المروى من طريق الآحاد المحضة فهو نذر لا يكاد يوجد ولذلك قال أبو



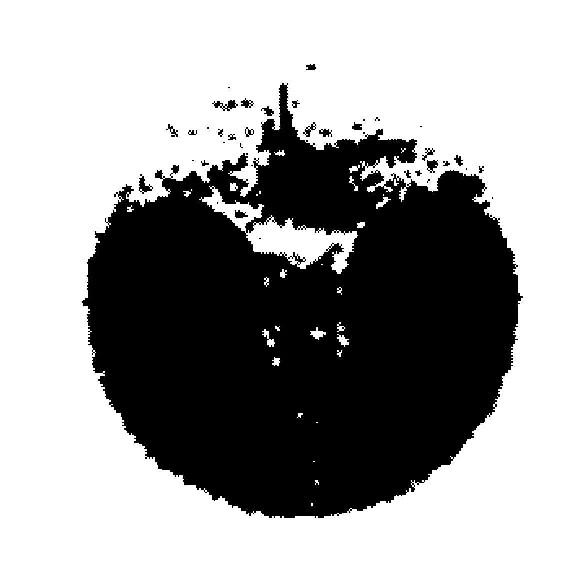
شامة في المرشد الوجيز بعد أن ذكر ضابط القراءة ما نصه «فإن الإعتماد على استجماع تلك الأوصاف لا على من تنسب إليه فإن القراءات المنسوبة إلى كل قارئ من السبعة وغيرهم منقسمة إلى المجمع عليه والشاذ غير أن هؤلاء السبعة لشهرتهم وكثرة الصحيح المجمع عليه في قراءاتهم تركن النفس إلى ما نقل عنهم، فوق ما ينقل عن غيرهم.

أقول وهذا الذي تميل إليه النفس ويطمئن إليه القلب

* * *



(خاتمة) فى كيفية تحمل القرآن



قد ورد فى الأحاديث الصحيحة أن النبى ﷺ كان يسمع القرآن من جبريل وأن جبريل كان يسمع القرآن من النبى ﷺ فقد أخرج البخارى عن فاطمة رضى الله عنها أنها قالت أسر إلىّ النبى ﷺ أن جبريل كان يعارضنى القرآن كل سنة وأنه عارضنى العام مرتين..» فهذا الحديث يدل على المعارضة وهى من الجانبين وذلك بأن يقرأ أحدهما تارة ويسمع الآخر وبالعكس تارة أخرى.

وأخرج البخارى فى حديث عن ابن عباس أنه قال «كان رسول الله ﷺ أجود الناس بالخير وأجود ما يكون فى شهر رمضان لأن جبريل كان يلقاه فى كل ليلة فى شهر رمضان حتى ينسلخ يعرض عليه رسول الله ﷺ القرآن فإذا لقيه جبريل كان أجود بالخير من الريح المرسلة» وأخرج عن أبى هريرة أنه كان يعرض على النبى صلى الله عليه وسلم القرآن كل عام مرة».

فمدارسة القرآن مع جبريل كانت تارة بالسماع وتارة بالقراءة من كل منهما وإن الصحابة قد أخذوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن سماعا لأن فصاحتهم تقتضى قدرتهم على الأداء كما سمعوا.

وقد ثبت أيضا أن كثيرا من الصحابة قرأ بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم يدل لذلك أحاديث عمر وهشام بن حكيم وأبى بن كعب وعبد الله بن مسعود وغيرهم حين اختلفوا فى القراءة وعلى ذلك فتحمل القرآن عن الشيخ يكون بأحد طريقين أو بكليهما إما بالسماع منه أو القراءة عليه أو كليهما ولا تجوز رواية القرآن ولا قراءته بالمعنى ولا يشترط فى قراءته الحفظ بل هى تكفى ولو من المصحف.

«وينبغى» لقارئ القرآن أن يفيه حقه من إعطاء الحروف حقها من المخارج والمد والوقف والوصل مع الخشوع والخشية لله فقد أخرج البخارى «عن قتادة،



قال: سألت أنسا عن قراءة رسول الله ﷺ فقال: كان يمد مدا إذا قرأ بسم الله الرحمن الرحيم يمد بسم الله ويمد بالرحمن ويمد بالرحيم» وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال «أحسن الناس صوتا من إذا قرأ القرآن رأيته يخشى الله».

نسأل الله أن ينفعنا بالقرآن وأن يعاملنا بالعفو والإحسان إنه كريم منان والحمد لله على حسن معونته وجميل نعمته والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وذوى محبته.

وكان تمام هذا المؤلف في يوم الخميس الثاني عشر من شهر ربيع الأول من شهور سنة سبع وخمسين وثلاثمائة وألف على يد مؤلفه وجامعه الذى يرجو من الله تحقيق حميد الآمال وعظيم الأماني محمد على سلامة الزرقاني جعله موفقا لخير العلم وأفضل العمل وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

* * *



الفهرس

الموضوع	الرقم

مؤلفات الدكتور/ محمد سيد أحمد المسير

١ - قضايا الفكر الإسلامى المعاصر .

٢ - منهج الفرقان فى علوم القرآن جـ ١ «تحقيق» .

٣ - منهج الفرقان فى علوم القرآن جـ ٢ «تحقيق» .

٤ - العبادات .


نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع
أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة ١٩٣٨
www.nahdetmisr.com